تيغالين

" حلم العودة "

" رواية "

ياسين كني

obeikandl.com

تيغالين حلم العودة

" رواية "

اسم الكاتب: ياسين كني
تصميم الغلاف: محمد علي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
رقم الإيداع: ٢٨٤٦٩ /٢٠١٧

١١٤ عمارات جنوب الأحياء – مدينة السادس من أكتوبر
موبايل و واتس : ٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١

جميع الحقوق محفوظة للناشر
وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقية أو إلكترونية،
أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذنٍ كتابيٍّ من الناشر؛
يُعَرِّضُ فاعله للمساءلة القانونية.

obeikandl.com

عـــزاء

إلى كل من لم يجد نفسه
في هذه الرواية،
عزائي الخالص

ياسين كني

obeikandl.com

تحت الخط

...انطلق به القطار سريعا يحمل معه آلامه وآماله، القطار يأكل الحديدَ والمجهولُ يأكل أطرافا من قلبه الحائر، لم يسبق له أن غادر مدينته إلا إلى القرى المجاورة، التي كانت أمه تأخذه إليها في العطل المدرسية الشتوية، حيث تتوقف بدورها عن تجارتها التي تركد مع قلة الأسماك، أو حينما تذهب مرغمة ضاربة بعرض الحائط الربح في موسم السمك، لأداء مناسك الزيارة والتبرك بالأولياء والصالحين، الأحياء منهم والأموات في موسم "دور ركراكة"، حينما يحلّ بمسقط رأسها، هناك في غياهب هضبة الشياظمة في وسط المغرب الغربي، على الطريق القاحلة بين مدينتي آسفي والصويرة، لا تزال أصوات الكلاب النابحة وصرير الجنادب تطرب أذنيه أنسا وشوقا، تلك الأصوات التي تعوّد أن يسمعها في الطريق حينما كان يسري ليلا من "دْوّار" جده إلى قُبّة الولي، حينًا على متن العربة المجرورة وأحيانا أخرى راجلا، في ليلة ليلاء قاتم ليلها كقلبه، لم يعرف كيف كان يستطيع أن يتعرّف المسار حينها، بل كيف كان أخواله والشباب من بقية الفخذ الأسري يعرفون الطريق، باعتبار أنه كان يقتفي أثرهم فقط، ممسكا بيد أحدهم أو ثوبه تارة، ومقتفٍ صدى الصوت تارة أخرى، كان يصل تعبا منهكا، لا يكاد يلتهم لقيمات الكسكس المدجج بالحمص والزبيب، حتى يجد نفسه مستندا فخذ أمه اللاهية بالإنصات والاستماع إلى تخاريف قدرات وكرامات الولي دفين بقعة الموسم، كراماته وأثرها على أبنائه ونسله ومن تشدد إليهم وآمن ببركاتهم وقَدّم النية الحسنة على كل فعل أو قول أو تقرير حول ما يخصهم وما يحيط بعالمهم الخارق، لقد كان الخشوع يملأ المكان، وكان للتراب والبراز والدم شفاء لم تحظ به نواتج مختبرات العالم بأسره، وبنفس قدر أحاديث بركة الأولياء على مريديهم، كانت

هناك أحاديث عن عقاب من كَذّب بهم وشكّك في قدراتهم وحاجج في ولايتهم وشرعية ما يفعله الشرفاء المنتمون لنسلهم، بين من شُلّ ومن أُفقر ومن سُجن ، ومن فقدت جنينها ومن دَمّرت حياتَها العنوسةُ ومن خالفها التوفيق في كل شيء من أمور دنياها وآخرتها.

في طفولتي المبكرة زرت يوما موسما لولي صالح بالمنطقة لا أعرف إسمه ولا بركته ولا تخصصه الاستشفائي، المهم تسللت إلى داخل الضريح في غفلة من الجميع وسرقت شمعة خضراء لم يسبق أن رأيت مثلها وغادرت في هدوء. خلال اليوم الموالي أعدت الشمعة إلى مكانها واستغفرت مئة مرة خوفا من اللعنة التي تحل على كل من يقتحم حرم الأسياد الصالحين، اللعنة التي أدرج تفاصيلها أحد أحفاد الولي الصالح ضمن موعظته التي قدمها أمام الجموع الغفيرة بين وصلتين غنائتين أدتهما شيخات مليحات أمام ناظريه بينما يقوم بأخذ أنفاس عميقة من السبسي الطويل الذي كان يشيد بحشيشته الجيدة، بعد سنوات عدت مرة أخرى، إلى موسم الولي الصالح نفسه الذي لم أعرف بركته بعد، لكنني سأعرف لعنته، حدثتني نفسي الأمارة بالسوء ان اشكك في بركة الأولياء، قلت لصديق أكبر مني سنا بلساني الخالي من العظم : " كيف لولي صالح أن ترقص على عتباته شيخة بشكل فاضح وأن... "

لم أكمل جملتي الهامسة حتى حلت لعنة الولي على قفاي، قريب من أسرتي لا أعرف درجة قرابته الدموية مني هوى بيده علي ونهرني، في القرية يساهم الجميع في تربيتك بالضرب، وحتى قليلو التربية أيضا يساهمون وبحماس متزايد، كان هذا القريب يحترف البناء ويده قد تحولت مع الزمن إلى أداة من أدواته، وهي اليوم أيضا أداة من أدوات إنزال اللعنة على كل من يتجرأ على التشكيك في كرامات الأولياء، وبعد سنوات اكتشفت تخصصه أخيرا، إنه جينيكولوگ، يداوي العقم وتأخر الزواج، ورغم ذلك فهناك الكثير من الرواد من جنس الذكور، بوركابي

موجود، استغربت الأمر فقصدت أحد شيوخ القرية اللطفاء وسألته : إذا كان الولي متخصصا في تزويج العانسات فماذا يفعل الذكور هنا يا عمي؟! أجابني الشيخ الذي خلا فمه من الأسنان سوى من ناب ناتئ : المصيدة يا ولدي تجذب الضحية لا القناص،

لم أفهم كلام الشيخ وحينما لاحظ الاستغراب في عيني، قال ضاحكا : ستفهم يا ولدي، لكن الوقت سيكون قد فات حينها، وعطا الله لي عطاه...

وضع رشيد حقيبته على مقربة منه، فوصايا أمه، التي لم تركب قطارا قط، عن لؤم لصوص القطارات لا يزال صداها يتردد داخله، خائفا أن يفقد كتابا يستأنس به أو سترة يستدفئ بها، أو الدريهمات التي تكافلت أسرته لتلملمها له، فقد أعطته أمه، امي عايشة، رأسمال أكياس البلاستيك تجارتها في سوق السمك، وهي لا تدري من سيقدّم لها قرضا جديدا لتعيد تدوير دولاب تجارتها التي تستعين بها على توفير اللقمة والأسمال، وأعطاه أخوه، المبلغ الذي تعوّد أن يدفعه مقابل الغرفة التي تأوي الأسرة، مؤجِلا دفع الإيجار إلى الشهر القادم عسى أن ينظف أسماكا أكثر فيسدد المبلغ، أما أخته، نورة، فقد أعطته مبلغا أخذت نصفه من درج صاحبة المقهى التي تشتغل عندها، بل إن أخاه، عبد البر، الذي اعتزل الأسرة إلى إحدى الجماعات الإسلامية ، ساهم بمبلغ اقترضه من شيخه ومدرسه الذي أفتى له بقطع رحمه وسلك طريق الله، وخالته التي آثرت أن تقدم له مبلغا كان سيعفيها من قطْر السقف موسم المطر، كان يأخذ من كل واحد منهم المبلغ وهو يتمنى لو أن الأرض تبتلعه لجوفها، أن اضطر إلى تجريد هؤلاء المساكين من دريهماتهم ليضيفها إلى دريهماته التي وفرها من عمله الصيفي رفقة أمّه تارة وأخيه تارة أخرى.

يخترق القطار سهل عبدة متجها شمالا إلى المجهول، وقد أدهشه منظر معامل الفوسفات دخانها واتساعها، فرغم أنه ابن المدينة إلا أنه لم يسبق له أن

زار المنشأة المتعاظمة المترامية في مخرج المدينة الجنوبي الغربي، التي اعتاد فقط أن يشم نتانة دخانها متظافرة مع روائح معامل الأسمدة وأعلاف الدواجن والمطرح العمومي للأزبال، متجها إلى حيث عينت وزارة التربية الوطنية هذا الفتى الغرّ ذو العشرين ربيعا، رشيد الذي لم يخْبَر الحياة كفاية ولم يغادر حضن أمّه، سيعيش مستقلا بعيدا عن الأسرة بألف كيلومتر، حتى مركز تكوين المعلمين قضاه في مدينته، سيطبخ وينظف ويكنس و... وحده أو ربما مناوبة مع زملاء العمل...

- الورقة يا ولدي.. (صوت يفاجئ شرود رشيد)

- أ..أ..أ..(رشيد مبعثَر اللسان)

- تذكرة القطار، لا تبدو من أولئك الذين يقضون الرحلة فارين من المراقبين (يقول مراقب القطار ببدلته التي تزرع الرهبة لقرب شبهها ببدلة الشرطة)

لم يتذكر رشيد أين وضع تذكرة القطار، وكاد وجهه ينفجر من ضغط الدم المتصاعد إليه، مرت الثواني كانتظار الحساب، وما إن همّ أن يرفع رأسه تجاه سائله علّه يجد له حلا حتى بدت التذكرة مستلقية على الأرض تترنح، ليباغتها ملتقطا إياها كي يسلمها للجابي كأنها قطعة جمر لم يتحمل طول بقائها بين أصابعه، تحقق منها المراقب وأعادها إليه مبتسما، أخذها رشيد وقد قرأ في الإبتسامة نصحا أن انتبه فإن القادم أشد وأطغى، نصيحة كان يتمنى أن يسمعها من والده الذي لم يره منذ شهر، وحتى حينما ذهب ليودّعه في بيته وجد زوجته مغلّقة الأبواب ومرخية الستائر في وجهه، ولم يشأ أن يلحّ في الطلب حتى لا ينال الصد من والد حياته بين الخمر والجمر.

استخرج رشيد كراسة يكتب على سطور أوراقها روايته التي أمضى سنتي التكوين، داخل ردهات مركز المعلمين، في كتابة فصلها الأول، دس يده في جيب المحفظة واستخرج قلم حبر أزرق محاولا تطويع شخصيات روايته المتمردة، التي يحاول أن يحكي من خلال فصولها التضييق على الإبداع الحقيقي الذي تقدمه

النخب المثقفة، وقد عنون هذه الرواية "كبت الحواس"، كان يطمح أن يعبر عن نفسه قبل كل شيء، عن التهميش الذي يلاقيه في الوصول إلى طموحاته، ورغم أن رشيد تلقى تعليما علميا بالأساس، إلا أن ميولاته الأدبية تجلت بعد أن انتهى من همّ مسائل الرياضيات التي أنهكته في شعبة العلوم الرياضية التي اختارها في المرحلة الثانوية، ظنا منه أن سوق العمل سيفتح له الأبواب محتضِناً بعد الباكالوريا، لكن تجري الرياح بما يمليه عليها ذوو السياسات والنفوذ والأموال، وبما تفرضه سياسات التوجيه والتعليم الغُرابية التي فرضتها الدولة منذ أن آمن مسؤولوها أن العقل لا يفقس ذهبا كما الحجر، وها هو اليوم يبعث إلى جبال الريف البعيدة ليعلّم الصبيان مبادئ الحروف والأرقام، لكنه كان فرحا بالمهنة للرسالة التي ينوي تبليغها، ولاتخاذها ركيزة ينطلق منها لتحقيق ما منعه منه الفقر والحرمان، كان أسلوبه سلسا يستطيع أن يكتب الصفحات خلال سويعات، لكنه كان يتريث ويعيد الكتابة والتنقيح مئات المرات، فحلمه رواية بمعايير جديدة تتعدى القص الذي يغتصب الرواية اسمها، إلى سرد يرسم لوحة سريالية تقرأ آلاف المرات دون أن تبوح بكامل مكنوناتها، لكن في نفس الوقت لا تستعصي على قارئ مبتدئ يضمن لها الانتشار بغير ابتذال.

كان يحمل رسالة في روايته، نقدا ولوما وفضحا ظن أن أحدا قد يتقي جراءه أو يحدث له ذكرا "إن تاريخا كتبته حواشي السلطة لا يستحق أن يقرأ، تاريخا يرفع الداني ويسقط العالي ويضبب الناصع وينصع الباهت لا يستطيع أن يقنعني، أن يجعلني ممجدا لشخصية يمجدها الرويبضة والرعاع من أصحاب القلم والمطبعة، لكن ما أؤمن به حقا أن الرجال لهم نصيب من زمنهم، ففي زمن الفلسفة ظهر أرسطو وأفلاطون معلمين ومؤسسين، وفي زمن اللغة ظهر سيبويه والدؤلي وابن جني مجددين ومنظرين، وفي زمن جَنْي ثمار العلم ظهر ابن خلدون وابن الهيثم وبن حيان، وفي زمن دين العلم برز اينشتاين وفلمينغ وغيتس، فلا

تقنعوني أنه في زمن التردي والتدحدر والتهاوي سيظهر خنفشار مجددا في الدين وفلان آية في النضال وعلان قمرا منيرا في الإرشاد والتوجيه، ومثل من ينتظر من نخبة اليوم تغييرا كمثل من قال في حق دخان الأرجيلة والسجائر المتكاثف هذا عارض ممطرنا، بل هو ما استعجلوا به"

يقفل رشيد كراسته بعد أن رفضت الشخوص أن تقول له هيت لك، ويكتفي بتلك الكلمات التي نحتها على لسان بطل روايته، خاصة بعد أن دخلت عليه فتاة كبدر التمام مقبلة بابتسامة طفولية عريضة انتبه إليها وحده، بينما لم ينتبه بقية الذكور، الذين تبقوا من زحمة الانطلاق، إلا إلى ذراعيها العاريتين وتبانها الرمادي النافر في أسفل ظهرها، لعله هو أيضا كان سابعهم في الانتباه، إلا أن الابتسامة كان وقعها عليه أقوى مما سواها، أو لعل ذلك ما أبداه، جلست الفتاة بجانبه يفصله عن كتفها أربعة أكتاف أخرى، كان من حين إلى الآخر يختلس النظر إليها، دون أن ينخرط في الحديث الذي سرعان ما دار بينها وبين بقية الركاب، كان كالعذراء في خدرها، أوكما كانت العذراء في غير زمانه، يسمع الحديث ويتأسف على جمال تلطخه محرمات لم يعد لها وجود إلا في قاموسه، فصاحبنا ما صاحب صاحبة أنوثة قط، إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار خياله الذي كان يُملأ كل سنة بحبيبة جديدة ما كلّمها ولا كلمته على أرض الواقع، وحُبّه الحقيقي الوحيد الذي أنزله إلى أرض الواقع، لم يُكتب له فيه صحبة ولا لقاءات، فقد صارحها بحبه ووعدها بالزواج في رسالته إليها دون أن يعرف ردها، لقد وضع الرسالة كأبطال الأفلام الرومانسية القديمة في دفترها ولم يعلم أقرأتها أم لفّها صاحب ترمس لزبون من زبائنه، لقد كان رشيد يحرّم على نفسه النساء طمعا في رضى الله، أو هذا ما كان يقنع به نفسه، المهم أنه وجد نفسه على هذه الحالة منذ الأزل، يكتفي بنظرة من بعيد إذا ما بودل مثلها علَتْه الحمرة وفرّ حاملا ذيل الخيبة والندم على ما فعل ويفعل، ثم كيف له أن يشرع في علاقة وهو المعدم الفقير الذي لا يجد ما

يشبع به بطنه، أليست بنات اليوم متطلبات وأدناهن تحتاج ملبسا للظهور أمامها بمنظر لائق؟ لا يريد أن ينطبق عليه المثل العامي (آش خاصك ألعريان؟ خاتم أمولاي)

تذكر رشيد وهو يرى فتاة القطار جارته المومس، نوال، التي كانت تسكن في غرفة مقابلة للغرفة التي بلغ الحلم فيها، فتاة بالغة الجمال رأى فيها البراءة والنقاء، يتذكر كيف كانت صدمته قوية حينما رفض أن يصدق خبرا بثه أحد الصبيان في الزقاق عن كونها عاهرة يلتقطها الشباب مقابل دريهمات قليلة، كانت تبدو له أطيب وأرق من أن تمارس الدعارة، تحنوا عليه كالأم، وإن كان يختلط حنانها بالنسبة إليه بين حنان الأم وحضن الحبيبة، كان يختلس النظر إليها وهي تغسل الملابس أو منحنية تمسح البلاط لا ترتدي ما يستر مثيرات من تعوّد على عورات النساء، فما بالك بمن لم يظهر عليها بعد، ينتظر بشغف أن يراها بين الحين والآخر، و يتمنى أن يصفع أمها التي كانت دائمة الشجار معها مطالبة إياها بالمال الذي لم يكن أحد يجهل مصدره إلا هو، تذكر كيف كانت دائمة البكاء مهددة العالم بالانتحار أو الهجرة، داعية الله أن يخلصها من آلامها ومن حياتها التعيسة، وبدوره يدعو الله بعدها أن لا يستجيب، كيف يموت الملاك الذي حولتموه شيطانا !

- المحطة التالية الدار البيضاء المسافرين (صوت بارد كأنه منبعث من مقبرة)

مدينة الدار البيضاء إذن، كان وقع الاسم على رشيد قويا حرك فيه الفضول لرؤية الجنة الموعودة التي يتكلم عنها كل شباب الحي، سواء منهم من زارها أو من لم تتزين بها عيناه من قبل، فهي مدينة المال والحضارة والعمران، ومدينة الأعمال والرقي والتجار، مدينة كبار القوم عاليهم وسافلهم، أو هكذا كان يقال له، تطلع عبر زجاج النافذة طامعا أن يكحل عينيه برؤية عيِّنة مما سمع، لكنه لم يظفر إلا بمنظر السكك الحديدية القاحلة وجحافل البشر التي تتسابق لتمتطي القطار،

وبعض المتشردين الذي كان يظن أن مدينته هي الوحيدة التي بُليت بتفريخ أمثالهم، والذي كاد في سنوات طفولته الأولى أن يصبح منهم لولا رحمة الله به، نزل كل من كان معه من الركاب، وفتاته الجميلة طبعا، ليحل مكانهم جمع آخر جلّه متجه للعاصمة الرباط، علم هذا من خلال محادثاتهم، وعلم أيضا أن الازدحام سببه أن هذا آخر قطار ومن أفلته سيكون مضطرا لمواجهة ليل البيضاء الأسود.

حل الظلام وفرغ القطار من رواده وبقي صاحبنا وحيدا، حاول أن ينام لكن المجهول الذي سيقتحم غياهبه وقف عمودا بين جفنيه مانعا إياها من الاحتضان، تذكر تيغالين والرموز التي حدثه عنها صاحبها، تذكر كيف قرأها مرتين دون أن يفلح في حل رمز ولا اكتشافه، ظل مستلقيا يقلب فكره ذات اليمين وذات الشمال وذهنه شارد تدبيره بالآتي من الأيام، فجأة يدخل عليه ظلا شخصين بعد أن توقف القطار في إحدى المحطات التي لم يعد يدري لأي مدينة هي، فصَوْت التذكير بالمحطات قد توقف بعد أن غادر القطار محطة سلا، وحتى دروس الجغرافيا التي نبغ فيها رشيد لم تسعفه لتحديد موقعه، أشعل أحد الراكبين المصباح ليضع حقائبه في مكانها، بدا منظر الشابين منفِّرا، ألوان لباسهما الضيق وكلامهما المخنث لا يطاق، وحديث ماجن قليل الحياء عن سهرة يتوجهان لإحيائها، تذكر الشاذين الذين مرا بحياته، الأول ابن جارتهم الذي كان يشتغل في الدار البيضاء، وكان لا يحضر إلا خلال الأعياد، كان لباسه مختلفا عن بقية الشباب في سنه، وقد اعتاد أخوه الصغير أن يدافع عنه وينفي عنه أي تهمة قد تلحق به بسبب هذا اللباس، فكان يدّعي أنه يمارس رياضة تضطره لارتداء هذا النوع من الألبسة الغريبة، لكن كلامه لم يكن يقنع إلا الصبية من أمثال رشيد في ذلك الوقت، ومع مرور الزمن عرف رشيد أن سعيدا يمارس اللواط، وعرف أيضا أنه يشتغل في صالون حلاقة نسائي يتعدّى مهنة الحلاق إلى ما دونها مما يروج في بعض صالونات الحلاقة، كان سعيد لا يخالط إلا الفتيات وقلّ أن تجده خارج البيت مع رفيق، كان

يتحرك وحده في هدوء بخطى واسعة متمايلة لا تحمل بصمات أنثى ولا ذكر، كان يشاهد أيضا مع "دوبّيرا" بائع الحشيش المعروف في الحي، الذي كان عاشقا للّوطيين، وكان يقيم وشرذمة من رموز الإجرام والخروج عن القانون والعادات والأعراف مزادا علنيا، من يدفع فيه أكثر يظفر بلوطي جديد، يقضي معه لياليه الحمراء الفاقعة والتي قد يطعّمها بمومسات من مخلفات النتانة البشرية الخانقة، كان "دوبّيرا" يرافق أيضا " سونيتا " وهوخياط معروف في الحي تردّد عليه رشيد مرارا وتكرارا سخرة لنساء الحي ، كان "سونيتا" مفتول العضلات معروفا بين الأوساط الرياضية المحلية، وكان من أسرة معروفة بالتدين، لكنّه شذ عن طريق أسلافه، فوالده شيخ جليل يحترمه الجميع لمكانته في مسجد الحي الكبير، فهوالمؤذن والساهر على النظافة، وله طلعة بهية بلحيته البيضاء الناصعة، كما كان يشتغل خياطا أيضا وهو من علّم ابنه الحرفة، لكنه تبرأ منه وطرده من بيته بعد أن عرف ما يأتيه مما لم يُبقِه إليه أحد من المقربين.

تتراقص الخيالات على زجاج نافذة عربة القطار التي خنق راكباها أنفاس رشيد، ظلام في الخارج وعتمة في الداخل، لكن سرعان ما نزل رفيقاه واختلى بنفسه مرة أخرى يلتقط أنفاسه ويعاود التدبر في الماضي، كأنه يحمل ممحاة يصفي بها رجزه بأمل المستقبل، عادت به ذاكرته هذه المرة إلى طفولته الأولى أيام المدرسة الابتدائية، حيث كان طفلا خجولا محتشما، يتذكر جيدا كيف كان يتهرّب من زملائه التلاميذ حينما يحس أنهم قد يزورونه في بيته، لم يرض أبدا أن يعرف أحد أنه نزيل غرفة حقيرة بين جيران لا يشرّفون، وأن الفقر المدقع ينهش أسرته كالكلب المسعور، كان بالكاد يقف هنيهات معهم بعد الانصراف من الفصل الدراسي، ليتوجه إلى البيت الغرفة الذي تتزاحم فيها الجثث ليلا والعزلة نهارا، يتذكر كيف كان لا يجد من يحضّر له وجبة من الوجبات، وحتى إن وُجد فماذا سيُحضّر؟ الغرفة خاوية على أركانها، قنينة غاز زرقاء صغيرة وبعض الأواني لا غير،

ورائحة قلي السمك وجبة الليل مما لملمت الأم في السوق تسكن الغرفة والملابس، بل والأجساد أيضا، طعامه النهاري غالبا كسرات خبز يابسة وبعض الشاي، وفي أحسن الأحوال بعض زيت الزيتون إن نسيت أمه إخفاءه عند إحدى الجارات، تلمّه لضيف منتظر قلما يأتي، سروال (جينز) أزرق وآخر من ثوب مزركش كان كل ما يملك، مع بعض الأقمصة التي يتذكر أن أمه تفرغت يوما لتبكر ذاهبة إلى أحد أسواق الملابس المستعملة القادمة من الخارج والتي كانت تسمى بملابس البال، لتشتري له أغلبها بينما بعضها الآخر ورثه من إخوته وحتى من أخواته البنات ولا يعرف طبعا من أين حصلوا عليها، أما الأقدام فمحرمة عليها الأحذية، تلتصق بها غالبا صنادل البلاستيك البيضاء أوالخضراء... لم يكن والده قد طلق أمه بعد، وكان يُقسّم وقته بين غرفتها وبيت زوجته الثانية، وكانت رائحة البول أيضا تعطّر المكان، فقد كان سرير الأب الذي لا يرى الشمس يُسقى كلما ثمل الأب، فينبت راحة أصبحت من تفاصيل المكان، كل ما يتذكره رشيد من والده إزعاجه الدائم بالأغاني والصراخ ليلا، ومعاركه الدائمة مع كل أفراد الأسرة غيره، لكنه يتذكر أيضا المعركة الأخيرة مع أمه، لقد جاءت في إحدى الليالي منهكة لا تكاد تستطيع حمل جسمها، وضعت كيس السردين الأسود فوق مائدة خشبية متهالكة وأمرت ابنتها الشابة نزهة أن تقليه تحضيرا للعشاء، وتمددت على الحصير البلاستيكي واستغرقت في نومها، فجأة دخل الوالد يحمل قنينة الكحول التي لم يبق منها غير القليل، يتمتم بأغانيه المحرفة عن أم كلثوم أو أسمهان، ليرتمي هو الآخر على سريره المعفر، فجأة يُسمع طرق خفيف على باب الغرفة ونداءات

- امي عايشة..أ امي عايشة

- نعم ، أمي ناعْسَة ، نْفَيّقْها ليك؟ (تجيب نزهة الصوت المنادي الذي يبدو أنه مألوف لديها)

- آه صَيْفَتَتْني أمي لشي سُخْرة (يجيب صاحب الصوت)

تنهض الأم قائمة إلى باب الغرفة مزيلة ستارة الثوب متكئة عليه، لتسلّم على ربيعة ابنة الجارة من الخدين كعادة التحية بين النساء بعد كل لقاء، حتى إن لم يطل الغياب بينهن

- كي دايرا بنيتي؟ (تقول امي عايشة بإجهاد)

- لا باس امي عايشة، أمي بغات فلوس القُرعة

- تسناي شويا أ بنيتي

تدخل الأم تبحث تحت منديل على نافذة الغرفة المغلقة، وتعيد البحث والتنقيب دون فائدة

- شكون شاف لفلوس لكانت هنا؟ (تقول امي عايشة بنبرة حادة كأن لم يكن بها اجهاد يخرم صوتها في المحادثة السابقة)

- (بصوته الثمل النعسان) هزّيتها الصباح

تندب الأم حظها العاثر الذي ألقاها بين يدي هذا الزوج، وتخرج واعدة ربيعة وتعود متوعدة زوجها، تتعالى الأصوات والاتهامات ويحمى الوطيس، تقف نزهة بين الوالد والأم كما اعتادت لتمنع الإصابات التي قد تنجم عن العراك المستعر، متناسية ومتحملة الإصابات التي تلحق بها غالبا، لكن هذه المرة لم تسلم الجرة، فقد دفع الأب نزهة دفعة قوية أسقطتها على مقلاة السردين حتى أكلت جزء من صدرها وأماكن متفرقات من كامل جسدها، خلفت وراءها تشوهات لم يعد رشيد يتذكرها، لأن أخته غادرتهم منذ ذلك اليوم، وغادرهم أيضا والده قسرا تحت ضغط الأم...

أخيرا محطة معلومة، لقد وصل القطار إلى مكناس، لم يستطع رشيد معرفة التوقيت، تجاوزت الساعة منتصف الليل أو توشك ربما، توقّف القطار وانتظر رشيد أن يرافقه ركاب جدد، لكن أحدا لم يصعد، والقطار أيضا لم يتحرك، ماذا هناك؟ سؤال تردد في ذهن الفتى قبل أن يهمّ بالنهوض للاستفسار عن الأمر، في

الردهة وجد مسافرا آخر أخبره بأن عطبا ما حل بالقطار وأن بإمكانه أن ينزل ريثما تحل المشكلة، لم يتجرأ رشيد على النزول من القطار، لقد أصبح القطار أقل غموضا من خارجه، لا يحتاج إلى مشكلة جديدة، لكن ماذا لو لم يصلح القطار وأرسلوا الركاب في قطار آخر، آه هذا ما كان ينقصه.

مرت ساعتان أو أكثر ورشيد يتردد بين مكانه والنافذة، وأخيرا بدأ الركاب في الصعود مرة أخرى للقطار

- لا بأس بني لقد انتهت المشكلة

صوت العجوز دخل بردا وسلاما إلى صدر رشيد، وعاد إلى مقعده ينتظر انطلاق القطار مرة أخرى، ذكّرته العجوز بجَدته في هضبة الشياظمة، هناك بعيداً حيث كان يقضي بعض عطله المدرسية، كانت "ينّا" كما كان يدعوها الجميع، امرأة تعكس صورة المرأة القروية المغربية بامتياز، حنان لا ينقطع ومعين عطف متجدد وشقاء السنين قد خط طُرُقا على وجهها، طُرُقٌ توصلك إذا تتبعتها إلى زمن التضحية والألم والحرمان، بلباسها المزركش ورائحتها الطيبة النابعة من الطين والغنم وخبز "الخبّاز" ، كانت "ينّا" أول المستيقظين وآخر النائمين، بين عجن وخبز وطهو وإحضار روث البهائم اليابس ورعي البقرات وحَلْبِها أحيانا ومهام لا أول لها ولا آخر، لا تستريح أبدا ولا في موسم الدور، فكل النساء كن يذهبن إلى مقام الولي عداها، كانت تبقى حارسة للبيت وما فيه، فهي الوحيدة المسؤولة عنه، كل بناتها متزوجات وليس معها غير الذكور، الذكور البور، يتذكر رشيد كيف كان يجلس قربها وهي تدفع القش والتبن بقضيبها المعدني الأسود تحت الصحن الفخاري الذي يتربع على ثلاث قطع من الحجر المسود، حيث تطهو الخبز، لقد كانت عيناه تذرفان دمعا وتكاد تنفجران وهو يتأمل جدته الأسطورية التي لا يؤثر الدخان في مقلتيها الضيقتين كما يفعل بمقلتيه، كان طعامها لذيذا دون لحم ولا منكّهات، ليت أمه وأخواته يُجدن الطبخ بنفس الجودة.

أخيرا توقف القطار في محطته الأخيرة، إنها فاس، مدينة ترددت كثيرا في الكتب المدرسية، مدينة العارفين والملوك والسياسيين والمثقفين وكل شيء، كان الظلام يخيّم على كل شيء، نزل صاحبنا يقدّم قدَما ويؤخّر الأخرى، فهو لا يعرف مقصده وممشاه، كيف سيتوجه إلى الحسيمة الآن، كل ما قاله له جاره سحيتة الرحالة أو ابن بطوطة كما يدعوه الشباب، أن عليه أن يتوقف في فاس ثم يتوجه إلى المحطة الطرقية بوجلود ليستقلّ حافلة تقلّه إلى الحسيمة، سأل أحد العاملين في محطة القطار عن محطة بوجلود فأخبره أنها بعيدة وعليه أن يستقل سيارة أجرة، وهنا تزايدت مخاوف الشاب الغرّ من سيارات الأجرة والحديث عن أجرتها المرتفعة وخداعها للزبائن الأغراب بإطالة مسارهم للزيادة في قيمة الأجرة، لكن لم يجد بُدّا من سيارة الأجرة خاصة في هذا الليل المخيف.

أمام باب محطة القطار انتظر رشيد مرور سيارة أجرة داعيا المولى أن يكون سائقها رجلا رشيدا يرأف بحاله، لكن أنّى له أن يكون كذلك وهو يشتغل في الليل وما يلفه من عمل مع السكارى والمنحرفين والمومسات، توقفت أخيرا سيارة أجرة أمامه تحت إلحاح نداءاته وتلويحاته، حاول أن يظهر كأنه ابن المدينة حتى لا يُخدع، وطلب من السائق أن يوصله إلى مقصده، دفع لذلك تسعة دراهم، وهولا يكترث خدع أم لا، فالمبلغ ليس كبيرا على العموم.

المحطة غاصة بالمشردين وباعة الأكلات الخفيفة وبضائع أخرى لا طائل منها، تذكر أنه لم يأكل شيئا منذ العصر، فاشترى رغيف خبز مستطيل لم يستطع تمييز حشوته المائعة، المهم أن بطنه ملئت بشيء يُسكت وقتياً ضجيج أمعائها، ما ان أنهى وجبته حتى توقف أمامه شاب وسيم مرتبة ملابسه.

- إلى أين مقصد أخي؟ (قالها الشاب بابتسامة عريضة)

- الحسيمة (رد رشيد مترددا)

- (الشاب مشيرا بأصبعه) ها هي الحافلة أمامك، وهذه تذكرة لها

- (يتناول رشيد التذكرة) متى تغادر الحافلة؟

- بعد نصف ساعة من الآن وهي الحافلة الأولى المتوجهة إلى الحسيمة هذا اليوم (يجيبه الشاب بلؤم باد لم يتبينه رشيد)

اشترى رشيد التذكرة من الشاب وانتظر ساعة أو أكثر ولم تتحرك الحافلة من مكانها، ولم يفتح بابها، فجأة رأى رجلا يقترب منها بيده مكنسة وبعض الخرق وباليد الأخرى سطل ماء، قصده ليكتشف أن الحافلة لن تتحرك إلا في العصر وأن وجهتها ليست الحسيمة ، وأن التذكرة لا قيمة لها وأنه كان ضحية لاحتيال الشاب البريئة ملامحه في عيني رشيد.

تذكر رشيد رواية تيغالين و بطلها والعصابة التي اعترضته في الغابة و كيف أصبح واحدا منها بعد أن خدمته الظروف، ترى هل تخدم الظروف رشيدا فينضم إلى العصابة بعد أن يغير عقيدتها؟

انطلقت الحافلة نحو الحسيمة، وهذه المرة كانت التذكرة التي حصل عليها رشيد من الشباك المخصص للتذاكر غير مزيفة، وفهم من الراكب الذي بجانبه بعد دردشة قصيرة أن عمليات الاحتيال كالتي تعرّض لها منتشرة جدا، فهِم أيضا أن المسار الذي خطّه له سحيتة مرتجلا، فالقطار الذي نزل منه يتوجه إلى مدينة تازة أيضا وهناك يمكنه أن يتوجه إلى الحسيمة عبر طريق أيسر من التي يقطعها الآن، فهي طريق جبلية شديدة التعرج، خاصة بعد مدينة تاونات، كما أن الحافلات التي تنطلق من تازة أو عبرها أكثر جودة من الحافلة التي يركبها الآن، وبالفعل كان المسار عسيرا مليئا بالتقيؤ والدوار والمعانات لرشيد، أصبحت الحافلة معلقة في الهواء عبر مسارات ضيقة جدا بعد أن تجاوزت مدينة تاونات، وأصيب رشيد برهبة بالغة من المنظر، كأنه على ظهر طائرة ترتج ارتجاجا، كان ينتظر في الحقيقة أن تهوي الحافلة به ومن معه عبر الحافات الكثيرة التي مرت بها، لم يجد فرصة للاستغراق في الخيال والاستذكار الذي سيطر عليه على متن القطار.

أخيرا مدينة الحسيمة، كانت الساعة متأخرة ليقصد نيابة وزارة التربية حتى يتبين مكان تعيينه، فالحافلة اللعينة تسير سير السلحفاة في العقبة، لذا اضطر رشيد أن يستأجر غرفة في فندق بالمدينة، كان الفندق حقيرا جدا، رائحة العفن تفوح منه بشدة، لقد اعتاد الروائح الكريهة منذ صغره، لكن رائحة الفندق كانت تحمل من النتانة ما يزيد من وطأة الغم على غريب مثله، لكن مثل هذا الفندق هو الوحيد الذي يتماشى مع إمكانياته المادية، خاصة بعد أن ضاع جزء من ميزانية رحلته بعد احتيال شاب المحطة عليه، وضع حقيبته في الغرفة وخرج ليبحث عن مطعم يرمّ الصدع الكبير الذي أحدثته الرحلة في بطنه، وجد ضالته في مطعم شعبي أسفل الفندق نفسه، سأل عن لائحة الطعام فلم يعرف من الأسماء إلا طاجين السردين، فطلبه من النادل الذي كان يتحدث بالريفية قبل أن يعرف أن صاحبنا لا يتقنها، حضر الطاجين بين يديه، لكن السردين الذي تعوّد عليه في طاجين آسفي كان مغايرا تماما لطاجين الحسيمة هذا، طاجين آسفي كان عبارة عن كرات مصنوعة من عجينة السردين تطفوا فوق صلصة كثيفة من الطماطم وبعض الزيتون والبطاطس والجزر، أما هذا الطاجين فسردينه لا يزال على هيأته حين اصطياده، حتى رأسه لا يزال ملتصقا بجسده، يستلقي فوق أقراص من البطاطس وبعض الجزر، أكل رشيد الطاجين مضطرا ليسكت السنفونية التي صخبت في بطنه، لكنه استثنى السردين الذي لم يستسغ جودته ولا طعمه، أعطى الجزء المتبقي من الطاجين لمتسكع دخل المطعم متسولا، دفع ثمن أكلته وخرج يتسكع في طرقات المدينة باحثا عن النيابة ليكون مقصده في الغد ميسرا.

مدينة الحسيمة رائعة وجميلة، والأجمل نساؤها اللواتي لم يكن كما وصفهن رحالة الدرب سحيتة، فلباس الحشمة الذي بالغ في وصفه له لم يحضر منه شيء، كانت جل النساء وخاصة الشابات منهن يرتدين سروالا ضيقا يفضح عوراتهن وسترة ضيقة تظهر كل المفاتن، لكن الذي لم يخطئه سحيتة في وصفه هو جمالهن،

كن أقرب إلى الأوربيات اللواتي يظهرن في شاشة التلفاز التي لم يكن يراها رشيد إلا عند خالته، لكن نساء الحسيمة كن بالألوان عكس نساء تلفاز خالته، وجد رشيد نفسه قرب شاطئ المدينة الذي يشبه تماما شاطئ مدينة آسفي، لكن دون رائحة كبريت ولا معامل الأحماض، شاطئاً نقياً صافياً وبحراً أزرق دون حبيبات كبريت طافية فوقه، كل شيء كأنه مألوف إلى قلبه وعينيه، عدا اللهجة الريفية التي تملأ المكان، والتي أشعرته بالغربة فعلا، استلقى على الرمل وكان الجو باردا، ألقى أذنيه مستمتعا بصوت الموج الذي يبدو أنه افتقده، تخيل أنه لا يزال في مدينته قريبا من البحر، الحضن الذي يلجأ إليه كلما ضاقت عليه اليابسة بمن عليها، وهي التي لم تكن رحبة قط معه.

عاد رشيد إلى الفندق بعد أن صلى المغرب في مسجد مجاور، صوت الإمام دافئا كما لم يكن من قبل عند من صلى خلفهم، أو هكذا بدا له في خضم الغربة المستعرة، تسربت دمعات من عينيه لم تكن أبدا دمعات خشوع، كانت أثر الغربة الذي بدأ يرتسم في القلب وتترجمه الحواس، قصد غرفته واستلقى على سريرها وغط في نوم عميق لم تستطع أن توقظه منه لسعات البق الذي يملأ الملاءة التي كان يفترشها، رأى أحلاما وكوابيس لم تستطع سبيلا إلى إيقاظه، حل الفجر سريعا دون أن يكتفي رشيد من نومه، وقف بصعوبة، توجه إلى المرحاض، وأطال الجلوس فيه كعادته في هذا الموضع، فجأة سمع ضجة كبيرة وطَرقًا منعه من الاطمئنان في خلوته، خرج من المرحاض فإذا بضابط أمن يقترب منه بعد أن وجهه إليه خادم الفندق

- يلاه معانا (بصوت جهوري فظ نابع من قلب غليظ خاطبه رجل طويل مسود الوجه)

- فين؟ (يجيب رشيد برهبة بادية)

- الكوميسارية

- (وقلبه يكاد يخلع باب صدره) علاش؟
- تالتما وتعرف (ممسكا بيد رشيد)
- نلب...س ونمشي معاك (رشيد مرتبكا)
- بلاش يلاه غير هكدا

مرت الدقائق المعدودات التي قضاها رشيد في سيارة الشرطة قاسية على شاب لم يكلم شرطيا من قبل، اللهم حين كان يحضّر بطاقة التعريف الوطنية، لقد كانت الشرطة مصدر خوف بالنسبة إليه، بل بالنسبة لكل من يعرف، تذكر في هذه اللحظة الحاج بن شريفة فقط، وحكاياته عن الاعتقال والتعذيب والنفي.

كان الحاج بن شريفة صاحب دكان قريب من مسكن رشيد، وكان يقدم السلع لرشيد وأسرته إلى حين ميسرة، يحب رشيد كثيرا ويعتبره ابنا له، إلى درجة أنه كان أكبر المساهمين في المبلغ الذي لملمه رشيد لهذا السفر، رشيد أيضا يبادل الحاج نفس الإحساس، هو بمثابة الشيخ أو المعلم، كان له كالخضر لموسى، بل كان الوالد الذي تمنى مثله، يحلّ معه مسائل الرياضيات ويراجع معه دروس الإرث والجغرافيا والتاريخ، موسوعة متنقلة هو، يقصده كثيرا في أوقات فراغه، بل كان يخصص أوقاتا لأجله، كان يستمتع بجلساته، ويستمتع بلباسه الأنيق الذي لا يشبه لباس أحد من سكان الحي، جلباب فاخر وطربوش أحمر قان ، وبُلْغة صفراء عليها خنجر مزخرف، وأحيانا يرتدي لباسا رسميا لم تتعود كل المدينة على مثله، وليس الحي فقط ، وجهُه المشرق يبعث على الثقة والحب، وجهه مضئ رغم النتوءات التي عليه، ولحيته الخفيفة البيضاء تدعو للوقار، كل سكان الحي يتحدثون عن الحاج بن شريفة وأنه من أشراف مدينة الرباط، يتحدثون عن عائلته التي أقل من فيها محام أو طبيب، عن عمه الوزير السابق وخاله ضابط المخابرات الحربية، يتحدثون عن عائلته التي تدخلت حتى يخرج من المعتقل الذي لم يكن أحد يخرج منه، لقد سمع رشيد من لسان الحاج إشارات عن أنه ربما كان عضوا في حركة إلى

الأمام الماركسية، كان أيضا من رفاق شيخ العرب، وانه اعتقل وذاق أصناف العذاب، لكنه لم يكن يتجرأ على سؤاله عن التفاصيل رغم شغفه لمعرفتها، كان واجب الاحترام والتقدير يفرض الاكتفاء بما يجوده عليه من حديث، لم يتجرأ رشيد حتى على استفساره عن سبب انتمائه إلى هذه المنظمات الماركسية وهو الحافظ لكتاب الله والمؤمن بالأفكار السلفية كما يبدو من خلال كلامه، كان رشيد يعلم بسذاجة أن كل ماركسي هو ملحد وكل ملحد هو شرير، فهل يعقل أن يكون الحاج ملحدا وشريرا !؟

كان الحاج بن شريفة مصدر أغلب الكتب التي قرأها رشيد، ولكن روايته تيغالين تظل الرواية الأغرب والأكثر إثارة، لقد شغلت رشيد وزجت به في عالم تملؤه رموز الحاضر و الماضي، حاول مرارا أن يطلب من الحاج تفسيرا للرواية التي بدت له خيالية إلى أبعد الحدود، لكن الأخير كان يردد دائما : ستفهمها حينما تفهم واقعنا وما نعيشه في هذا الوطن، ووقت الفهم لا يزال مبكرا لتفهم...

obeikandl.com

سواطير وأساطير

بدت حياتها دون هدف، لقد تغير كل شيء منذ أول يوم لها في مشوارها المهني، منذ الشهر الثاني تقريبا...

وصلت مريمة رفقة والدها إلى مدينة تارودانت في جبال الأطلس الكبير حيث عُيّنت معلمة في هذه النيابة، كل ما تعرفه عن التعليم في المغرب هو مدرستها الابتدائية التي درست فيها في قلب مدينة فاس، عاصمة العلم كما يطلق عليها، والتي لم يبق لها نصيب من العلم ولا من الأدب، فاس حيث بيت الأسرة، أما التعليم القروي وما يصاحبه من قهر في أعالي الجبال فهو ما لم تسمع به أذناها ولم تره عيناها ولم يخطر على بالها، مريمة الفتاة الأمازيغية المنحدرة من ضواحي مدينة تازة في الشمال المغربي على مشارف جبال الريف، والتي قضت العشرين سنة من عمرها في مدينة فاس ولم تغادرها إلا لماما، تفتح صفحة جديدة من حياتها ملؤها الطموح والرغبة في تحقيق مسار مهني ناجح يغيّر حياتها وحياة أسرتها التي ضحت بالغالي والنفيس من أجل تدريسها، رغم ظروفهم المادية المتعسرة، بوجهها البيضوي الحالم وشفتيها النافرتين كأنها من مشاهير الفن اللواتي يخضعن لعمليات التجميل كل مرة، كانت فاتنة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وتزيدها جمالا حمرة الخجل التي تعلوها كلما جمعها كلام بغريب، كانت فتاة من خارج الزمن، من فجوة الماضي الذي لا يزال يعيش بيننا ولم يغلقها اللاتحضر واللاتأسلف الذي أصبحت البلاد تعيشه.

دلفت مريمة إلى مقر النيابة الاقليمية لوزارة التربية الوطنية تستفسر عن المدرسة التي عينت بها، وتختلس نظرات متعاقبة لوالدها الشيخ، كأنها تطلب منه النجدة والمدد، يقلّب المسؤول في أوراقه ويطلب منها الحضور بعد يومين لمعاينة

اجتماع توزيع المناصب على الملتحقين الجدد، التحقت الفتاة ووالدها بأحد الفنادق القليلة المتواجدة في المدينة بعد أن أرشدهما إليه أحد المارة الذي كان يتكلم السوسية، وهي لهجة أمازيغية محلية، لم تفهم مريمة كلمة منها، رغم أنها تجيد الأمازيغية، أو بالأحرى تجيد لهجة أمازيغية أخرى، كان يتحدث تشلحيت، أما هي فتعلمت من والديها لهجة قريبة من تمازيغت منتشرة في مسقط رأس والديها ويتحدثان بها داخل المنزل، ورغم أن كلا من تشلحيت وتمازيغت لهجتان من لهجات السكان المغاربة المتعددة إلا أنها لم تفلح في فهم شيء من هذه اللغة الغريبة عنها، لكن الوالد فهم كل الكلام فقد سبق له أن عمل بمدينة أغادير وتعلم التشلحيت هناك.

كان الفندق متدهورا جدا، والأفرشة متعفنة ونتنة، لكنها ليلة أو اثنتان وينتهي الأمر، نال الإرهاق من الأب واستسلم إلى النوم بملابسه التي عليه، لكن مريمة لم يداعب عينيها الكرى، فهي تقلب أوراق المستقبل واحتمالاته، كيف لها أن تعيش منفردة دون أسرتها الكبيرة التي نشأت وسطها، أسرة من أبوين وجدة عجوز وخمس أخوات وثلاثة إخوة، ونفير من الأقارب المتناوبين على منزلهم القصديري، حيث يقيمون عندهم في بدايات حياتهم في مدينة فاس إلى أن يرتبوا أمورهم للاستقرار في المدينة وولوج حرفة البناء التي يمارسها أبوها، كجُلّ ذكور القرية مسقط رأسه، منذ أزيد من ربع قرن.

مريمة بسترتها المزركشة وغطاء رأسها الذي لا يستر شعرها الأشقر الناعم، كأنه سلاسل ذهبية جيّدة الصقل صاغتها يد حرفي ماهر بحب ونشوة، انطلقت نحو مدشر قروي يدعى ألوز، لقد عينت في مدرسة ما في ضواحي هذا المكان المجهول بالنسبة لها ولمرافقها، كانت رحلة شاقة جدا بين فجاج الجبال البيضاء اللامعة كالفضة المصقولة، تتلاصق الأجساد داخل سيارة أوبيل ألمانية قديمة، ربما يفوق عمرها عمر الفتاة الغريرة الوحيدة التي بداخلها، يحاول الأب أن يوسع

من المكان الذي خصصته ابنته لجسدها النحيف، يعرف أنها لا تقوى على تحمل المنعرجات، وقد تصاب بدوار وغثيان أقوى من الذي أصابها في طريقهم الطويل من فاس إلى تارودانت، أخرج كيسا بلاستيكيا من جيبه ووضعه في حجرها تحسبا للطوارئ، بينما استغرقت في إغماض محاجرها متناومة على زجاج السيارة، جسدها منهك يبحث عن فسحة في المقعد دون جدوى، تيبّست الأطراف وتسلل الفتور الى كامل الجسد، إلى الروح أيضا، لم تمدّ يدها لحمل الكيس، فوقتُه لم يحن بعد...

نزلت مريمة من السيارة، مسحت عنها بقايا الغثيان الذي علق بثيابها، كانت الشمس ترمي بأشعتها لتبدي نظارة وجهٍ مشرق رغم عتمة الزمن، أمسك بها أبوها وتوجها إلى مدرسة قريبة بدت على الطرف الآخر من الشارع، استقبلهم حارس فضولي يتحدث كأنه مسؤول كبير في هذه المدرسة، أوربما هو كذلك في لحظة كتلك، استفسره الأب عن طريقة الذهاب إلى مجموعة مدارس الأمل

- الأمل (تتعالى ضحكاته الاستهزائية) نعم اذهب إلى الشارع الأول بعد ذلك المنعطف ستجد من يوصلك إلى هناك.

قال الحارس كلامَه بالعامية المغربية التي يبدو أنه لم يتعود على الحديث بها، مصاحبة بإيقاعات تحيل على الاستهزاء، من كلمة الأمل على ما يبدو.

قصد الأب مصطحبا ابنته الشابة المكان الذي دلّه عليه الحارس، سأل هناك مجموعة من أصحاب السيارات، لكن على ما يبدو فالمجموعة أرادت أن تتكسب من هذا الغريب الذي يعتبر زبونا نادرا بالنسبة لهم، لم تفلح مساوماته معهم، يبدو أن المبلغ الذي اقترحه لم يغر أحدا منهم، خاصة أن المسافة طويلة والطريق جبلية غير معبدة.

ترك الأب وابنته سماسرة النقل هؤلاء وقصدا مقهى على ناصية نفس الشارع، علّهما يظفران بإفطار جيد يطفئ جوعهما المتراكم يوما بعد يوم، منذ أن

خرجا من مدينة فاس، أوربما منذ أن وعى كل منهما على هذه الدنيا السافلة، طلب براد شاي وبعض الفطائر المحلية التي وجدها هناك، وبينما هو منهمك في التزود لمعدته أثار انتباهه شابين يتحدثان بالعامية، وفهم أنهما مُعلّمان من خلال ما استرقه سمعه من شظايا الكلام.

- سمحوليا أولدي (الأب بنبرة استعطاف)

- مرحبا أسيدي (يجيبه احد الشابين بنبرة ترحيب كبير)

- أنا وبنيتي معلمة جديدة وبغينا نمشيو لمدرسة الأمل، فين نقدرو نلقاو الترنسبور؟

- (المعلم متطلعا إلى المعلمة الجديدة) مرحبا تسنا حتى يبان شي واحد من الدواروياخدك معاه

بعد أقل من ساعة ظهر أحد القرويين في المقهى فأخبره صاحبها أن المعلم نبيل يوصيك أن توصل المعلمة الجديدة إلى المدرسة، كان المعلم قد غادر المقهى بعد أن أوصى صاحبها خيرا بالمعلمة والأب، وطمأنه أن وصولهما سيتم على أحسن ما يرام، اقترب القروي من المعلمة مدّ يده فسلم على أبيها، وأومأ بوجهه مشيرا بالتحية عليها، وطلب منهما أن ينتظراه في المقهى ريثما يقضي أغراضه وينطلقوا إلى القرية.

انتظرت مريمة طويلا واخترق القلق صدرها وتعاظم دقيقة بعد أخرى، إلى أين الوجهة والوصول؟ ما هذه المناطق المهجورة التي نصل إليها؟ هل هناك أمكنة أشد وعورة مما نحن فيه الآن؟ أسئلة وأخرى طرحتها على نفسها مناجاة دون أن تنتظر جوابا أو مجيبا، تناولت الغذاء رفقة والدها الذي لم يعد يقاوم التعب وقضى فترة الانتظار في النوم على كرسي خشبي متهالك، لقد علمته قسوة الدنيا أن يتحمل، لقنته دروس الصبر اضطرارا لا اختيارا، يكاد يسقط من كرسيه كلما ثقل

نومه، وقبل أن يروي الأب ظمأه من النوم الذي اجتاحه حضر القروي مشيرا إليهما أن هيا إلى مجهولكما، فأيقظته الابنة الشابة وسيقا الى الحتف زمرا.

صعد الأب على سطح سيارة البيكوب البيجو القديمة، بينما حشرت مريمة جسمها النحيف بين سيدة وابنتها الشابة في المقعد قرب السائق، تكاد تختنق قبل أن تنطلق السيارة، أما الأب فرقد كغيره من الراكبين الذين لم ينتبه لعددهم من كثرتهم، رقدوا جميعا فوق أكوام الأكياس الممتلئة بالأعلاف والخضر ومواد أخرى لم يتبينها، مر وقت طويل جدا لم يستطع الأب ولا ابنته أن يعرفا مقداره، وأخيرا وصلا إلى مقصدهما، لم يبق من الركاب على السطح غير الأب، بينما بقيت مريمة مع السيدة وابنتها وقد اختنقت فعلا، وبدا هذا واضحا على وجهها الذي تحول إلى لون الطماطم التي لم يكتمل نضجها...

وقف الأب وابنته معا أمام قاعتين وبناية أخرى كتبت عليها "الإدارة" وبناية رابعة كأنها خرابة كتب عليها بخط لم يعد يظهر بوضوح " المطعم"، لا سور ولا مراحيض ولا أية علامة تدل على أنها مدرسة، ولا ذلك الاسم المكتوب بخط رديء على جدار إحدى القاعات " مدراسات لأمال"، التفتا إلى بعضهما ودون كلام، دار حوار طويل بينهما، لم يشأ أحد منهما أن يبدأه بالكلمات، فالنظرات قامت بأكثر من الواجب.

يا إلهي أهذه هي المدرسة التي سأعمل بها؟ أين سأسكن وسط هذه الخرابات؟ لقد كنت أظن أن بيتنا القصديري أسوء ما يوجد في المغرب؟ إنها مجرد كهوف تحت جرف، هكذا كانت البيوت المحيطة بالمدرسة، والمدرسة نفسها مبنية بطريقة غريبة لم تتعود عليها مريمة، قطع مستطيلة من الاسمنت غريبة مركبة بعضها فوق بعض، يعلوها سقف قصديري مثبت بمسامير، يسمع منها ضجيج هائل من أصوات عصافير استحت أن تغرد في مثل هذا المكان فرضيت بالضجيج، الضجيج فقط.

دخلت مريمة والأب الشيخ الذي يحاول إخفاء ملامح التخوف والوجل، طرقا باب الإدارة فلم يجب أحد، القاعات فارغة فوقت الدراسة قد انتهى، ظلا جالسين في مكانهما وقد افترشا حقائبهما وأغراضهما ينتظران فرجا، وكلما مر بهما أحد يرميهما بنظرة فضولية محتشمة، بدا لهما من بعيد شبح رجل قادم نحوهما وقد اقترب مسافة أبدت لهما أنه ليس من صنف المارة الذين مروا بهما سابقا دون كلام.

- السلام عليكم (قال الرجل الخارج من طيف الشبح)

- وعليكم السلام (رد الأب كمن عثر على ضالته بعد بحث طويل)

- أنا المدير (قال الشبح الذي تحول فجأة الى انسان بلحم وعظم وملابس)

- مرحبا سيدي، هذي بنتي لمعلمة الجديدة (الأب كأنه وضع عنه حجر سيزيف)

- أهلا لا باس، كيف درتو مع الطريق (المدير بصوت في برودة وإرتجال جليد مبرد الثلاجة)

تعاظمت صدمة مريمة وأباها حينما علموا من المدير النظام الإداري في مدارس القرى، مريمة لن تشتغل في هذه القرية، مدرسة الأمل عبارة عن مجموعة من المدارس تتوزع على قرى متعددة، تسمى المدرسة التي تتواجد بها الإدارة المركزية وباقي المدارس تسمى فرعيات، ومريمة ستشتغل في إحدى هذه الفرعيات، لأن القانون يقول أن آخر من التحق بالمجموعة يشغل المنصب الشاغر.

الفرعية التي ستشغلها مريمة تدعى "إمنت دراست" تبعد بأزيد من عشرين كيلومترا عن مركزية مجموعة مدارس الأمل، كل ما عرفته مريمة أن المدرسة كانت قد أغلقت لخمس سنوات للخصاص في الأساتذة وستفتتح هذه السنة، وهي تتوفر على قسم ومسكن، وعلى مريمة أن تقوم بحملة تحسيسية تدعو فيها الآباء لإعادة إرسال أبنائهم للمدرسة، وعليها أن تركز على المستوى الأول ... لائحة غير قصيرة من

المهام عرضها المدير على مريمة، لا تدري كيف ستقوم بها وحاجز اللغة يقف عقبة في وجهها، أوهذا ما كانت تعتقده على الأقل.

قضت مريمة الليلة عند شيخ القبيلة، بينما قضى أبوها الليلة رفقة المدير في ركن من الإدارة يخصصه لنومه وسكنه، بعد أن تناولا العشاء في بيت الشيخ، فالعادات تقضي أن لا يبيت أجنبي في بيت أهل القرية، فالبيوت ضيقة والحفاظ على شرف النساء أولوية قصوى، بينما لم يكن شرف مريمة محصن من نظرات الشيخ المتربصة..

أصبح النهار ولم يكد ضوء الشمس يتجلى حتى وصلت مريمة وأبوها إلى " إمنت دراست" على متن بغلين مليحين تكفل ابن شيخ القرية المراهق بقيادتهما، مترجلا في العقبات وممتطيا في الإستواءات، وصلا إلى المدرسة الغير مُسَوّرة ولم يكفهم ضوء النهار تنظيفا وكنسا وترتيبا، وأخذا من الليل نصيبا على نور القمر وضوء قنديل خافت، أخيرا أصبح المسكن يعج بالحياة بعد أن كان يبدو كبيتٍ خرب تسكنه الأشباح، خاصة وأن موقعه يُشعر بالرهبة والخوف، الغريب في الأمر أن المسكن كان مجهزا بأَسرّة ودولاب وبعض الموائد والأثاث الجيد الذي لا يزال قابلا للاستعمال، ولم يجد الأب وابنته غرابة في الأمر، لقد ظنا أن الأثاث جزء من المسكن الذي توفره الوزارة لموظفيها، الغرابة كانت فقط بالنسبة إليهما في إصرار المدير على عدم مرافقتهما حتى يُعَرّف المعلمة على المدرسة وأهل القرية، لكنهما ظنا أنها عدم لياقة وقلة لباقة ليس إلا.

مر يومان على مقام مريمة في هذه القرية، كانت الأمور على قساوتها تنفرج شيئا فشيئا، خاصة بعد أن نامت لأول مرة منذ مغادرتها بيت أهلها ليلة كاملة، لكن ما لم يرقها عدم حضور أي تلميذ للمدرسة، وكذا تجنب الأهالي الاقتراب من المدرسة، وحتى حينما كان أبوها يحاول فتح حوارات معهم كانوا يتجنبونه، تذكرت

وصايا المدير والحملة التحسيسية، لكنها لا تجيد التشلحيت، كيف لها أن تتواصل معهم، تذكرت أباها الذي يحسن نوعا ما هذه اللهجة، فأوكلت له الأمر.

اعتلى الأب ربوة وسط المساكن وبدأ يلقي خطبته التي ترجمها عن ابنته التي قضت الليلة تلقنه إياها، خاطب الآباء والأمهات، لكنه خاطب الأطفال أيضا، ذكرهم بمزايا التعليم وأهمية العلم وضرورة الالتحاق بالمدرسة، رغّب وحبب ودعا بالحكمة والموعظة الحسنة ولم يجد من يجادله بالتي هي أحسن، ليعود إلى المسكن الوظيفي ويترك ابنته في القسم وحيدة تتمتم بأغنية شرقية مفعمة بالحياة والأمل، قضت ساعتين دون أن تظفر بتلميذ واحد، وهكذا كان الحال يوما بعد يوم طيلة أسبوع من مقامها، أخيرا قررت أن تطرق الأبواب وتتحدث مع الأمهات بعربيتها ولهجتها الأمازيغية المخالفة للهجتهم...

الساعة الثامنة والربع صباحا، تسمع مريمة طرقا خفيفا على الباب، وتسارع لفتحه حتى لا يوقظ الطرق أباها الذي نام قبل ساعة فقط بعد أن صلى الفجر، فتحت الباب ولم تجد أحدا أمامها، التفتت يمينا وشمالا وما من أحد، وقبل أن تقفل الباب سمعت صوتا من القسم المقفول، ازدادت ضربات قلبها وأحست بالخوف الشديد، كادت تقفل الباب لكنها لم تدر أي شيء دفعها لتقصد القاعة، تشجع نفسها وتطمئن خوفها وتقترب برفق من القسم، وجدت الباب مفتوحا فزاد خوفها وتحول هلعا.

- شكون؟..شكون؟..شكون؟ (تقول مريمة رافعة صوتها بين الكلمة والأخرى، كأن الشجاعة تتسلل إليها تدريجيا)

لم يردّ أحد على نداءاتها المتكررة والمتقطعة، لكنها سمعت صوت أقدام تتجول في القسم كأنها تبحث عن مكان للاختباء كالفأر المحاصر، ولجت القسم بهدوء فإذا بشبح جسم هزيل وصغير يقف قرب الجدار الخلفي للقسم صرخت

بأعلى صوتها وصرخ الشبح أيضا، وما هي إلا لحظات حتى حضر الأب مسرعا من وقع الصراخ المفزع على قلبه قبل أذنيه...

مرّ أسبوع آخر ولم تحظ مريمة إلا بتلميذها الوحيد الذي علمت منه أنه اختبأ منها يومئذ لأن أبويه منعاه من الالتحاق بالمدرسة وأنه يأتي ضدا على رغبتهما، لقد كان "محمّاد" يجيد العامية، فقد عاش سنة كاملة في أغادير حينما كان يرقد في مستشفى هناك يعالج من مرض خبيث ألمّ به، كان محمّاد مؤنس مريمة الوحيد، لهذا فقد أصبح مدلَّلها، وما هو إلا أسبوعه الأول حتى نقل صدى المعاملة الرائعة التي يحظى بها لكل قرنائه، وهذا خلق إشعاعا للمدرسة جعل الأسبوع الثاني يستقطب خمسة عشر تلميذا آخر شغلوا مريمة وجعلوها تبدأ مشوارها المهني المعطل.

لقد حان وقت الفراق وقرر الوالد الرجوع إلى بيته وترك ابنته الوحيدة لعملها، تتحمل مسؤولياتها وحياتها االجديدة وحيدة معتمدة على رصيدها المعرفي وخبرتها القليلة في الحياة، لقد تأخر كثيرا عن عمله و أسرته ولم يعد يستطيع المكوث أكثر، وها هي ابنته قد بدأت تتعود على مقامها الجديد وتستأنس بعملها وتلاميذها الجدد، لقد كان وداعا حارا ممتزجا بالدموع والوجل، ليغادر الأب ببغل أحد أهل القرية القلائل الذين خرجوا من قمقمهم وقرروا أن يتواصلوا مع المعلمة ويمدوها بقوانين العيش والبقاء في هذه القرية التي لا تظهر على أي خريطة من خرائط المغرب، باستثناء خريطة وزارة التربية الوطنية، فلا سلطة فعلية للدولة على هذا المكان ولا مظهر من مظاهر التاريخ أو السلطة هنا، باستثناء هذه المدرسة الحقيرة بنايتها.

كان محماد هو المدرس الفعلي في القسم، حيث كان الواسطة بين المعلمة والتلاميذ الذين لا يجيدون إلا لهجتهم المحلية، كما كان اليد اليمنى لمريمة خارج الفصل الدراسي، ينظم إحضار الماء والخبز مناوبة بين التلاميذ، كما يتكلف

بإحضار كل ما يلزم مريمة من احتياجاتها المعيشية التي تأتي من السوق الأسبوعي، فهو من يأخذ المال للأهالي مناوبة ليحضروا الحاجيات، لقد كان يسهل فعلا الحياة على مريمة في ظل استمرار مقاطعة الأهالي للمدرسة والتي لم تكن تدري لها سببا، كان محماد أيضا مرشد مريمة المفضل في رحلاتها الى أرجاء الغابات والحقول المجاورة للمدرسة، كانت الطبيعة خلابة استأنست بها الفتاة كثيرا، ماء وخضرة ووجهها المشع بالحُسن والأمل، ومواويل نساءالجبل المنبعثة من المجهول تبوح وتشتكي...

كانت مريمة تتمنى أن تسمح إحدى أسر القرية لإحدى بناتها أن تبيت معها ليلا، فالوحدة تنمّي خوفها وهواجسها، لكن لا تلميذة في الفصل ولا إمكانية لإحضار فتاة من خارج الفصل، تقضي المعلمة ليلتها بين طبخ وكنس وتحضير لدروس الغد، كما تحاول إبقاء محماد أكبر قدر ممكن معها حتى تتعلم بعض الكلمات المفاتيح للتواصل مع التلاميذ، وتقضي ما بقي من ليلها الطويل في الخوف والتخوف مستأنسة بصوت مذياع قديم وجدته في المسكن ترفع صوته إلى أعلى درجة إذا ما سمعت صوتا خارج المسكن أو داخله.

وجدت مريمة في المسكن الوظيفية أوراقا قديمة تحكي تفاصيل رواية غير مكتملة، تيغالين، اسم لجزيرة تحكي قصص غابرة من زمن غابر، قصة مشوقة عن البحث عن التغيير في ظل سلطة الواقع، سحرت الرواية مريمة لكن أجزاءها المفقودة تركت فراغات كثيرة لديها و تمنت لو أنها تكملها يوما ما، وقررت أن تسأل عن الرواية حينما تعود إلى فاس أو مدينة بها مكتبة، لكنها لم تفعل...

انتصف الليل ومريمة وحيدة في غرفتها تقلب أوراق ذاكرتها على وهج قنديل غاز أثري، تتذكر أحلامها التي اصطدمت بهذا التعيين المشؤوم، قد تبقى هنا دون أن تطور أداءها المهني، ودون أن تظفر بعرض نفسها على عريس مفترض، لقد كانت تحلم بنصفها الآخر الذي قد يخرجها من مسلسل الآهات التي عاشته منذ نعومة

أظفارها، لكن الأكيد أن هذا الفارس بلا جواد لن يكون هنا بين جبال الأطلس حيث مقامها، وهي طبعا لا تريد فارسا على بغل من هذه الأرياف، لا تريد طبعا أن تحكم على نفسها بالسجن المؤبد في هذه القرية... فجأة تسمع مريمة طرقا خفيفا على الباب، يا إلهي إنه منتصف الليل، من يا تراه يطرق الباب في هذا الوقت المتأخر؟ تذكرت مريمة الاغتصاب والتحرشات التي سمعت قصصها المثيرة عن معلمات تعرضن إلى قساوة أحداثها، قصص كانت أول ما يستقبل به رواد مراكز تكوين المعلمين، نادت بأعلى صوتها مستفسرة عن الطارق، لكن ما من مجيب، انتظرت قليلا ولم تسمع إعادة للطرق، تسمرت في مكانها وحاولت أن تقنع نفسها أنها الريح أو خيالاتها التي لا تنتهي، لكن الطرق عاد مرة أخرى ولم تجد مجيبا ثانية، ارتجلت عن سريرها وتقدمت نحو الباب الذي لا يبعد كثيرا عنها، فالمسكن ضيق تلامس أقدامها باب الغرفة إذا تمددت على السرير، وصلت قرب باب المسكن، أعادت الاستفسار عن الطارق ولم يجب أحد، حاولت أن تفتح الباب لكن خوفها منعها، فجأة لمحت صورا تحت الباب قد بدا الجزء الكبير منها، مدت يدها برفق وسحبتها بتردد وقلق.

على سريرها جلست مريمة تقلب الصور الخمسة التي سحبتها من تحت الباب، كانت صورا لشباب في عمرها، ولا يبدو أنها حركة مراهقة من شباب القرية، فلا الملامح ولا اللباس وتسريحات الشعر تظهر أنهم من شباب المنطقة، تزايد القلق والخوف ولم تستطع خلال تلك الليلة أن تنام، وقضت ما تبقى من الليل تقلب جنبيها ذات اليمين وذات الشمال وخوفها يفزعها بعد كل حركة ريح أو عواء كلب، من هؤلاء؟ لماذا وضعت هذه الصور تحت الباب؟ ماذا يريدون مني؟...

أشرقت الشمس واستطاعت مريمة أن تغفو لسويعات حتى الضحى، قامت من مكانها بصعوبة، لم تستطع تحضير طعام الغذاء واقتصرت على قلي بيضات جادَ بها التلاميذ في اليوم السابق، أكلتها بصعوبة معوضة خصاصة الإفطار

والغذاء، فشهيتها كانت مسدودة جراء ما جرى بالليل، وضّبت نفسها واستعدت للخروج إلى القسم، حضر محماد كالعادة أولا كي يحضر لها الماء ويغطي احتياجاتها التي تتجدد كل يوم، كان يفعل كل شيء بحب، فقد عانى الطفل كثيرا منذ أن ولج هذه الدنيا، توفت أمه أثناء ولادته وتركته في هذه الدنيا بمرض بسيط تطور نتيجة الاهمال إلى مرض خبيث، لم يجد حنانا من زوجة الأب ولا من الكم الهائل من الممرضات اللواتي تناوبن على خدمته في المستشفى، رغم أن والده كان يجود عليهم بماله وعسله حتى ينتبهن لفلذة كبده، خاصة أثناء غيابه، أما مريمة فقد وجد فيها الأم الحنون، عرضت مريمة عليه الصور ولم يتعرف عليها لكنه وعدها أن يعرضها على شباب القرية الذين تجمعه معهم جلسات قرب النهر وهم يصطادون مقنعي رؤوسهم منتظرين سمكا قلما يجود بنفسه عليهم، لقد كان محماد محبوب القرية أيضا لحسه الفكاهي ولمعرفته التي اكتسبها في مدينة أغادير، هذا الامتياز لم يحظ به أحد من الأطفال لدى الشباب الذين يروق لهم الإنصات إليه وهو يصف المدينة، خاصة وصفه لبنات أغادير ولباسهن المثير الذي لا مثيل له في هذه القرية الريفية المنبوذة...

ظلت مريمة تنصت لرواية شباب القرية التي نقل محماد تفاصيلها وهي شاغرة فمها من الذهول، لقد تحدث الشباب عن معلميهم الذين ماتوا منتحرين في يوم واحد في المسكن الوظيفي، وعن المؤسسة التي توقفت عن العمل منذ ذلك الحادث المفزع، وكيف أن أهل القرية يتحدثون عن مشاهدات لهؤلاء الشباب في المسكن إلى اليوم، وأن المسكن الوظيفي مسكون بأرواحهم، وقد كانوا من قبل على خلاف مع جل أهل القرية، لذلك فأرواحهم تؤذي كل من يقترب منهم من المسكن، لهذا كانوا يمتنعون عن إيفاد أبنائهم إلى المدرسة، والصور التي التقطتها المعلمة هي للمعلمين أنفسهم أبطال رواية الشباب.

منذ أن سمعت مريمة رواية المعلمين وهي تؤكد أنها وقفت على مشاهدات مفزعة، الشباب يزورونها وتسمع أصواتهم وخطواتهم في المسكن، لقد بدأت فعلا تشعر بالخوف، تتلو القرآن وتقنع نفسها أنها مجرد خيالات يغذيها خوفها المستعر من الرواية التي سمعتها، وأن لا وجود للأرواح بعد وفاة الإنسان، فهي في البرزخ تنتظر الحساب إما في نعيم أو عذاب، هذا ما أكده أستاذ لها كانت قد سمعت منه وعظا على هذا النحو، بل حتى الجن أكد لها يوما أنه لا يسكن إلا ما خلا من الأماكن من بني آدم، وأنه لا يوجد مسكن مسكون ولا حتى بشر، " أيعقل أن يسكن الجن الفقراء فقط، يبدو أنه يحب الخبز والشاي " يقول الأستاذ ساخرا، لقد كانت على حياد من كلامه، لكنها اليوم أصبحت في أمس الحاجة إلى الاعتقاد به سواء كان حقا أم اجتهادا خاطئا.

في ليلة وقد مر على رواية المعلمين المشنوقين أزيد من شهرين، جلست مريمة تحضر طعام العشاء وقد أقنعت نفسها بكلام أستاذها القديم حول الأرواح والجن، وقد استزادت شجاعة وإقداما من قراءاتها السابقة لكتب حول التحصين من أذى الجان، استحضرتها في هذا المكان الذي يصعب أن يحصل فيه المرء على ورق من أي نوع، سوى بعض قصاصات الجرائد التي كانت تأتي مع عشبة النعناع الضرورية لمشروب الشاي الشعبي، انتبهت إلى موضوع شدّها في المذياع يتحدث فيه أحد المذيعين عن الطرق الصوفية بصوت كأنه ينبعث من بئر عميق، يتخلله صوت موسيقي عذب، وبين العارف مولانا فلان والقطب سيدنا علان، بين الترضي والتبريك تسمع مريمة صوت صراخ عالٍ تنخلع له القلوب، غطى الصوت على صوت المذياع الذي اعتادت مريمة أن ترفعه منذ أن تسرب الخوف إلى قلبها ليلة الصور، قصدت الفتاة مكان الصوت فإذا بها ترى تحت وقع الظلام خيالا يتردى من حبل معلق عليه، رجعت إلى المطبخ وأحضرت قنديل الغاز، اختفى الخيال لكن الحبل لم يختف، أمسكت بالحبل قلبته يمينا وشمالا وقلبها قد خلع باب الصدر

وكاد يخرج منه، استغرقت ما شاء الله لها من الوقت وهي تقلب في الحبل وتتحسسه، فجأة تسمع صوت نداء واستغاثة، مريمة..مريمة.. تعود مسرعة إلى المطبخ حيث سمعت الصوت، خيال آخر يبدو أمامها، لكن هذه المرة على ضوء القنديل، دموعها تنهمر دون كلام، هربت فزعة نحو الباب لكن الباب أبى أن يستجيب لرغبتها في الفتح، يتعالى الصراخ والعويل ونداءات الاستغاثة، وتتزايد الخيالات في الظهور، لقد وصل عددها إلى خمسة، استجمعت شجاعتها وبدأت تردد القرآن ما تحفظ منه من آيات، لكن الخيالات أبت أن تصمت أو أن تختفي، أخيرا سقطت الفتاة متهاوية على الأرض، مر من الوقت ما شاء الله أن يمر، لم تدر مريمة تعداد ساعاته ودقائقه، لكنها استيقظت والليل لا يزال يسدل ستاره، استيقظت ويد شاب من شباب الصور يمسح على جبينها، تطلعت إليه غير مميزة هل هي في حلم أم في يقظة، واستسلمت مرة أخرى لنومها، أولعله بقية من إغمائها السابق.

مر أسبوع على الحادث المرعب لمريمة، وقد أرسلت رسلا كثر محملين برسائل متعددة لمديرها في العمل، لكنها لم تجد استجابة منه، لا زالت لم تتخذ قرارها بشأن ما يحدث، محماد الوحيد الذي يستمع إليها ويمدها بحلول طفولية لا تقدم ولا تؤخر في الأمر شيئا، أما أهل القرية فقد سمعوا بما حدث لها ولم يحركوا ساكنا، ربما لاعتقادهم أنها تخيلات الوحدة لا أقل ولا أكثر، لكن ماذا عن كلام الشباب حول المسكن المسكون، هل هو حديث لم يتعد دائرة الشباب وأن أهل القرية لا علم لهم بما حدث، هل قصة الصور مجرد أسطورة؟ أم هي مزحة من الشباب لإخافتها؟ لكن ماذا عن مشاهداتها الأخيرة؟ لقد وصلت مريمة إلى حد لا يطاق معه انتظار الآتي من الوقت في هذا المسكن المشؤوم، لقد بدأت فعلا تفكر في الرحيل، لكن إلى أين؟

شهر آخر ومريمة لم تقرر مستقبلها، وقد ضاق بها الحال فعلا بعد مرور هذه المدة وهي منقطعة عن أهلها، حتى الرسائل التي بعثت بها لهم لا تدري مصيرها، خاصة أنها كانت عن طريق المدير الذي لم يستجب لنداءاتها المتكررة، لكنها وجدت حلا ستشرع في تنفيذه مع شروق شمس الغد، ستذهب إلى المركزية حيث المدير وترمي الكرة في ملعبه حتى يجد لها حلا لما يحدث، لقد كان هذا قرارا نهائيا لها وعزمت أن تكون هذه ليلتها الأخيرة في المسكن الوظيفي المرعب، وقد أخبرت محماد أن يحضر لها دابة ويذهب معها ليرشدها، وزاد تصميمها بعد موافقته ومعرفتها أنه يعرف الطريق جيدا فقد سبق أن ذهب مرارا وتكرارا للقرية حيث المركزية، فأخواله هناك، وغالبا ما يقضي أوقاتا عندهم لاهيا مع أبنائهم في نهر مجاور.

حلت الليلة الأخيرة، وتنفيذا لنيتها المبيتة جمعت مريمة أغراضها وتهيأت للمغادرة النهائية لهذه القرية، ما الذي يجبرها على البقاء في مكان كهذا؟ أيقنت أن المدير على علم بما يحدث، وإلا لتفقد أحوال الفرعية ليقف على سيرها بعد أن توقفت لسنوات، الآن فقط عرفت سر عدم قدومه معها وأبيها في زيارتهما الأولى للقرية، تناولت قطعا من الخبز وبعض حبات الطماطم المقطعة دوائر، أطفأت القنديل واستسلمت للنوم عسى أن تمر هذه الليلة سريعا، مر بعض الوقت واستيقظت الفتاة على صوت قرع قوي للطبول، حسبته في البداية عبثا للشباب في الخارج لكن القرع بدأ يقترب شيئا فشيئا، وقد رافق القرع صوت موسيقى گناوة وأهازيجها المتحدثة للجن، وعن الجن، سيدي بن باروخ، لا لا ميمونة، عايشة المجذوبة، وأسماء أخرى لم تتبينها، تتعالى الأصوات وكأنها تدخل إلى المسكن، تنظر مريمة من النافذة فلا ترى إلا الظلام في الخارج، لقد بدأت تدرك أن الصوت مصدره مسكنها، ترتعد وهي تشعل فتيل القنديل الذي قل غازه، واستعانت بشمعة لزيادة شدة الإضاءة، بل بشموع كثيرة عسى أن تحارب ظلمة الخوف بنور الشمع، الموسيقى والأهازيج الگناوية تتعالى، وضربات القلب أيضا تتعالى، تصرخ،

تحاول الخروج من المسكن لكن الباب يأبى مرة أخرى، تعالى مع الأهازيج أصوات صراخ كأنها في حضرة جذبة صوفية من التي تعودت أن تسمعها في بعض بيوتات فاس العتيقة، شعّ نور قوي في المسكن لم تدر الفتاة مصدر ضوئه، وبدأت ترى رجالا بلباسهم المزركش الأحمر والأخضر، خمسة رجال يحملون آلات گناوية ويعزفون ويطلقون العنان لأهازيجهم، والرجال أنفسهم يتراقصون بوجع والدم ينزف من أفواههم والآذان، صرخت وصرخت مريمة دون جدوى، هربت إلى الغرفة التي تعودت أن تنام فيها، لكنها صدمت بمنظر النيران تتصاعد من السرير والأثاث، هربت مرة أخرى نحو الباب الذي انخلع في يدها من قوة الخوف والرهبة، أطلقت رجليها للريح ولم تتوقف عن العدو إلى أن أغمي عليها مرة أخرى، ولكنها هذه المرة استفاقت في المركز الصحي لأولوز.

بعد أن قضت ثلاثة أيام في المركز الصحي، وسط الذهول والصمت، تسترجع ما وقع لها بصعوبة بالغة، لقد أصبحت كالمجنونة، حضر الدرك وسمح لهم الطبيب المسؤول أخيرا باستجواب مريضته، حكت ما وقع لها ودوّنوا ما روت من حكايتها الشبيهة بحكايا الجدات القديمة في محضر رسمي، وطلبوا منها اصطحابهم للقرية للتحقيق في الأمر حالما تسمح حالتها الصحية بذلك، أخيرا وصل والدها الذي بكت بحرقة بين أحضانه، وكأنها تلومه على تركها، لقد راسلته قوات الدرك بناء على طلب الفتاة، قرر أن يستجيب لطلب الدرك والذهاب للقرية لمتابعة التحقيق حتى يتخلص وابنته من المشكل القائم، لكن الطبيب نصح والدها بعدم السماح لها بمرافقتهم، كما أنها رفضت وبكت بشدة لذلك، أخيرا اتفقوا أن يرافقهم الوالد فقط، وصل شابين للاطمئنان عن حالة مريمة، علم والدها أنهما من أحضراها إلى المركز الصحي بعد أن وجدوها مرمية وسط الغابة حيث يمارسون رياضة القنص، بعيدا عن القرية التي كانت فيها بأزيد من عشرين كيلومترا، شكرهما بمودة وتقدير على صنيعهما، ولكنه لم يطمئن إلا بعد أن زالت شكوكه

حول تعرض ابنته لاغتصاب أوتحرش جنسي، اطمأن رغم أن ابنته تبدو في حالتها كالمجنونة، لكن لا يهم دماغها، المهم هو بكارتها فهي رأس المال !

وصل الدرك رفقة الوالد إلى القرية وقد اقتادا شيخ القرية ليجمع الساكنة أمام المدرسة، تجمع خلق كثير هناك، وقد كانت دهشة الدرك كبيرة حينما وجدوا المسكن على غير الحالة التي وصفتها مريمة، لا أثر للحريق ولا لباب مكسور ولا لأي دليل على جرم أو حادث، أكد أهل القرية أن المعلمة تتخيل لا أقل ولا أكثر، لكن محماد ظهر مرة أخرى ودافع عن أستاذته وحكى لهم عن الصور والأساتذة المنتحرين، لكن واقع الحادثة لم يتغير فالشواهد تدل على أن الأستاذة كانت تتخيل فقط، فقضية الانتحار قد انتهت ولا علاقة لها بما يحدث اليوم، فجأة يظهر شيخ قد انحنى ظهره وبلغ من الكبر عتيا، بدأ يؤنب أهل القرية، بل وصل به الحد إلى الشتم بأغلظ الألفاظ، لكن أحدا لم يتجرأ على النبس ببنت شفة في حضرته، أطرقوا رؤوسهم وأطبقوا شفاههم لا يتحركون كأنما على رؤوسهم الطير، فهم الأب من سابق معرفته باللهجة المحلية أن فقيه القرية سبب ما يحدث وأن أهل القرية على علم بكل شيء ولكنهم لا ينكرون منكرا ولا يأمرون بمعروف، وأنهى الشيخ محاضرته بأن أخذ عكازته التي يتكئ عليها ووكز بها شخصا بقوة حتى سقط على ظهره، ترجم شيخ القرية كل شيء للدرك وأمر قائدهم بإحضار هذا الفقيه المرمي على الأرض من شدة ضربة العكازة، علم القائد أيضا أن الشيخ الهرم هو فقيه كبير بالمنطقة وأنه يسكن أعالي الجبال متنقلا بين القمم، ويُحكى أنه قادر على الاختفاء والطيران، بل أنه يخالط الجن ويصرعهم، وقال له أيضا موشوشا أنه المسؤول عن إخراج الجن الذي سكن قصورا ملكية، طبعا هي بالنسبة لرائد الدرك مجرد حكايات يتناقلها الأهالي قد يكون أغلبها افتراءات وأساطير.

وصل الدرك إلى المركز وسلم القائد الفقيه إلى وحدة الاستنطاق التي أبرحته ضربا وشتما وتنكيلا، حتى أقر أنه ساحر يقوم بتعويذاته لتنفير الأساتذة من القرية

حتى يدفع القرويون بأبنائهم له ليدرسهم القرآن، وأنه يعيش من حرفته هذه، والمدرسة تقطع الطريق أمام لقمة عيشه، لقد أقرّ أن تعويذة " التراجيل " كما سماها هي التي جعلت الأستاذة تتخيل ما وقع لها، وهي نفس التعويذة التي استعملها مع الأساتذة المنتحرين...

وصلت مريمة إلى فاس، وقد دفعها أبوها إلى مركز للطب النفسي بعد نصيحة طبيب المركز الصحي بأولوز، قضت بالمركز سنة كاملة صرفت خلالها أجرتها كاملة على مصاريف التطبيب النفسي، الأجرة التي حولتها الوزارة في حسابها بعد مضي سنة على تعيينها، ولم تتحسن حالتها كثيرا، فقد غادرت المركز دون أن تتوقف عن تناول حبوبها العلاجية، ولم تعد إلى عملها إلا بعد أن شاركت في الحركة الانتقالية وانتقلت إلى ضواحي مدينة الحسيمة، لم تتغير ظروف العمل كثيرا لكن المتغير الجديد هو مريمة وشخصيتها، فقد تحولت إلى فتاة لاهية لا تهتم بشيء، وانخرطت في حياة اللهو والمجون رفقة أباطرة المخدرات الذين كانوا يتنافسون على من ينال ودها، كانت لا تذهب للعمل إلا لماما، وقد كان رفقاؤها خير سند حتى لا تحال على المجلس التأديبي أو تطرد، بِجاهِهِم ونفوذهم كانت مريمة تحظى بكل ما تريد، المال والتسيّب والسهرات الفخمة، أدمنت الحشيش والمشروبات الكحولية غالية الثمن، وفي سنتها الثانية من عملها تغيّر مديرها، وأصبح يثير المشاكل لأنه لم يقبل رشى الأباطرة ولم تخفه تهديداتهم، واضطرت إلى القدوم إلى العمل أحيانا، وقد غيّرت مقر العمل من المركزية حيث المدير إلى فرعية بعيدة عنه، لكنها كانت تتردد عليه كثيرا لتقديم التبريرات نظير غيابها المتكرر ولاستئناف العمل. حضرت مريمة بوجهها الشاحب الجميل، وبشعرها الملون الذي أصبح يأخذ في كل أسبوع لونا، وجدت المدير في الإدارة ينتظرها لاستئناف العمل مرة أخرى، وقد قضت جل الوقت في المشاحنات والتنكيل بالسباب والشتم للمدير المسكين، لقد تغيرت مريمة تماما، واختفى حياؤها وحمرة الخجل التي كانت تميزها، وخرجت من الإدارة تسب

وتلعن، وجدت في طريقها شابا يحمل الحقائب ذكّرها منظره بنفسها قبل أزيد من ثلاث سنوات، ابتسمت في وجهه، وكأنها تقدم ابتسامة لنفسها التي اشتاقت إليها، وانصرفت تتعالى ضحكاتها الماجنة مع بعض زملائها من الأساتذة، قبل أن تغادر في سيارة دفع رباعي سوداء، طبعت قبلة على وجنة سائقها وانطلقا...

obeikandl.com

بؤس ونسيان

جلس هولاكو كعادته يحادث القطط الكثيرة التي اجتمعت حوله، يقدم لها جزءا كبيرا من الطعام الذي حصل عليه خلال هذا الصباح، لقد جمع كمية كبيرة فعلا، لكنه قدم أيضا مقابلا لذلك، في مثل هذا الحي المهمش البعيد عن مركز مدينة آسفي بأقل من كيلومترين، كان يقدم خدمات كثيرة للسكان، كلها تتعلق بأعمال السخرة، وعلى رأسها جلب الماء من الصنبور الوحيد في المنطقة، فالمنازل على مشارف القرن الحادي والعشرين لم تزود بعد بالماء الشروب، إذا اعتبرنا أن هذه الخرابات منازل صالحة للعيش الآدمي.

- اهدئي أيتها القطط هناك طعام يكفي الجميع (يقول هولاكو وهو يدبّ بيديه عن الطعام القطَطَ الجائعة)

- لكنني دائما أحظى بأقل حصة (يصيح القط الجديد الذي وفد على المجموعة منذ أقل من أسبوع معترضا)

- ذكرني باسمك (هولاكو بصوته الدائم التلعثم)

- ليس لدي أي اسم، لا أعرف أن للقطط أسماء، أنتم البشر فقط من يدّعي أن لنا أسماء، رائحة البول تكفينا (يقول القط الجديد بنبرة قوية)

- لكنني أتذكر أن القطة كريستالا التي أحضرتك ذكرت لي اسما لك، ميكي على ما أعتقد (يجيب هولاكو بهدوئه المعتاد)

- ميكي ! لقد ظننت أنكم تقصدون بها شيئا له علاقة بالأكل، كنت أستجيب لصاحبي كلما سمعت الكلمة لأنال أكلا، لكنه كان يخذلني أحيانا (يقول القط الجديد بنبرته القوية كأنه يريد أن ينقض على محدثه المسكين)

تستمر محادثة هولاكو والقطط المرابطة في خرابته المنفتحة على الزقاق الأوسع في الحي، وكلما مر عليه طائف يلتفت إليه غير مستغرب لهذه المحادثات،

فقد اعتادوا عليها منذ أن قدم في بداية التسعينات إلى الحي، إضافة إلى أن جلّ كلامه غير مفهوم، إنه معتوه كما يقول الجميع، كثير التلعثم ومبهم الكلمات، أصبح منذ مدة مستودع أسرار جلّ الحي، كان الكل يحبه لخدماته التي يقدمها، وأيضا لعدم الخشية من فضح السر من طرفه، لكن كان هناك استثناء واحد فقط، لقد كان الفقيه العياشي يكرهه كثيرا دون أن يعلم أحد لذلك سببا وجيها، كان يقول أنه مسكون تارة ويؤلف حكايات أخرى عنه تارات أخرى، لكن أحدا لم يكن يلتفت إلى كلامه، لقد وجد هولاكو لنفسه مكانا في قلوب كل سكان الحي، ببشاشته وتعاونه الكبير، وللخدمات التي يقدمها عن طيب خاطر بمقابل أو بدونه.

في دكانه التي تفوح منه رائحة الرطوبة يجلس العيّاشي باستمرار حاملا مصحفا أحمر من الحجم الكبير، بأوراقه الصفراء وحروفه البارزة لم يكن أحد ليخطئ السورة التي يقرأ فيها، لكن أحدا لم ينتبه أن هذا المصحف لا تقلب فيه الصفحات نهائيا، هي صفحة واحدة يقرؤها ويكرّر قراءتها، هذا إن افترضنا أنه يقرأ منها، هذا ما لاحظه الحاج بن شريفة منذ قدومه إلى منفاه في الحي المُبَدْوَن، فالحاج دقيق الملاحظة قويّ الذكاء، والكل يعلم أن دكان الفقيه العياشي ما هو إلا تعمية على أعماله الشيطانية، لا يبيع شيئا ولا تتغير سلع دكانه أبدا، إنه يتخذ الدكان مقرا لممارسة مهنة أخرى، كان ساحرا تصطف النساء على باب دكانه لتحظى بتميمة أو كتيب تفريق أو محبة أو شيء مما تؤمن به جل النساء وبعض الرجال، لكن كان للعياشي دور آخر أيضا، لقد كان عين الشرطة في المكان، ونظير ذلك كان يحظى بالحماية، رغم أنه ليس من سكان الحي الذي تهاب ولوجه الشرطة نفسها.

كان الحاج بن شريفة يملك دكانا أيضا، لكنه كان يمارس الإحسان بدل التجارة، كان جل زبائنه من الأرامل والمطلقات، وكان يقرضهن جل حاجياتهن من مواد البقالة إلى حين ميسرة، وغالبا ما كان يأخذ ربع ما يفترض بهن أن يدفعنه،

لقد كان ميسورا والدكان مجرد ستارة حتى لا يظهر ثراءه في حي كالذي اضطرته الظروف أن يعيش داخله، كان الحاج من أطلق لقب هولاكو على المعتوه الذي جاء إلى الحي وأصبح منذ عدة سنوات من علاماته المميزة، لقد استحق هذا اللقب من شبهه بسكان منغوليا ولقوّته العضلية الفائقة، والحاج أيضا من وطد أقدام هولاكو في الحي، فبعد أن قدم من المجهول أصبح هولاكو الخادم الأمين للحاج، ليتحول إلى خادم الحي كله، لقد كان الهاشمي يدعي أن الحاج وهولاكو لعنة حلت على الحي وغريبان يمرران أفكارهما الشريرة إلى السكان، ورغم أنه كان أيضا غريبا على الحي إلا أنه لم يخش توجيه تهمة البَرّاني للحاج ولهولاكو.

دائما هولاكو أول من يستيقظ، بعد الفجر بقليل، يجلب الماء لزبنائه في قنينات زيت فارغة من فئة خمسة لِترات، ثم يذهب إلى المزبلة الكبيرة المحاذية للحي ليجمع ما يحتاج إليه قبل أن يأتي نصف الحي من السكان الذين يعتاشون على هذه المزبلة، كان لكل واحد منهم اختصاصه، جامعوا ورق الكارتون، وجامعوا القنينات الزجاجية، وجامعوا البلاستيك...وكان هناك صنف آخر يجمع بقايا الخضر والفواكه لإطعامها لأنعامهم التي قد تأتي أيضا معهم لتبحث لها عن ما يسكت جوعها، يعود هولاكو من المزبلة ليقوم بجولة على كل البيوت لتقدّم ثمن خدماته، أكل أو دريهمات وأحيانا كلمة شكر، لكن هولاكو يفضل كثيرا بيت شاطيطا البلقا، امرأة شديدة بياض البشرة بشعرها الأشقر وملامحها الغريبة عن ملامح سكان المنطقة، كانت فاتنة بملامح أوربية، حتى عيونها العسلية كانتا كأنهما تميلان إلى الزرقة، يتداول سكان الحي أن جدتها كانت تدير دارا للدعارة في شمال المغرب إبان الاستعمار الاسباني، وقد تكون ملامحها الأوربية موروثة عن أسلافها، لكن هذه قد تكون مجرد قصة مفتراة فشطيطا تقول أنها تنحدر من قرية مجاورة للمدينة ولا علاقة لها بالشمال وأهله، كان بيتها آخر ما يذهب إليه هولاكو في جولته الصباحية، وذلك لأن شطيطا لا تبكر في الاستيقاظ، فهي مومس تسهر

الليالي مع من يدفع لها، اسمها فاطمة لكن ابنها الصغير كان دائما يناديها شاطيطا حتى لُقبت بذلك الاسم، لقد كان ابن زنى وقد فارق الطفولة الآن الى الشباب، لكنه كان مخنثا من كثرة صحبته للنساء زميلات أمه في المهنة، لقد كان هولاكو يقدم وعوده لشاطيطا أنه سيتزوجها ويخلّصها من المستنقع الذي تعيش فيه، كان يصارحها بحبه، فتتعالى ضحكاتها صيحات تلوم القدر على أن الزمن لم يبعث لها وعدا بالزواج منذ عقود إلا مع هذا المعتوه، تقدم له بعض الطعام الفاخر الذي لم يتعود هولاكوعلى أخذه من بقية سكان الحي، تحضر الطعام معها من بقايا سهراتها الليلية، فكان لا يقدم للقطط شيئا منه، يستأثر به لنفسه رغم أن القطط تحتل مكانة فلذات الكبد لديه.

كان دوبيرا يقضي بعض لياليه مع شطيطا إن لم يجد لوطيا يطفئ شبقه، وكان هولاكو يتوعده ويكيل له وابلا من السب والشتم وقذائف الحجارة والبيض الفاسد، لم يكن دوبيرا يلقي له بالا، رغم أن الكل كان يهاب هذا الكهل المكتنز باللحوم، كان يقضي سنة في السجن وشهرا أواثنين في الحي، وغالبا ما تكون التهمة بيع الحشيش، لكنه في المرة الأخيرة طال مقامه في الحي، إنه هنا منذ الصيف وقد اقترب فصل الشتاء على الانقضاء، لقد غير حرفته هذه المرة، لم يبتعد كثيرا عن الحشيش، أصبح يبيع المعجون، وهو عبارة عن خليط من أي شيء صالح للأكل وزيت طُبِخَ مع بذور نبتة الكيف وأجزاء منها، كان أغلب زبائنه من خارج الحي، من تلاميذ المدارس خاصة، كما كان يبيع بالجملة لبائعي سجائر التقسيط، الذين بدورهم يبيعونه للتلاميذ، إنه مخدّر خفيف غالبا ما يلج به الشباب عالم الإدمان والنشوة.

إذا كان هولاكو أول المستيقظين، فإن امي عايشة الشيظمية أول المغادرين، تقصد مرسى المدينة حاملة أكياسها البلاستيكية لتبيعها هناك، إنها الفترة الصباحية من العمل، قبل أن تقضي الفترة المسائية في سوق حي الجريفات ممتهنة

نفس الحرفة، تقطع المسافة من الحي إلى المرسى راجلة في أغلب الأوقات، وهي مسافة كبيرة جدا على أن تقطع يوميا، لكنها كانت توفر ثمن ركوب العربة المجرورة التي لا تقطع إلا نصف الطريق لحاجياتها المعيشية الأخرى، لقد غادر ابنها نحو مدينة بعيدة تنسى حتى اسمها، لقد أصبح معلما، إنه انجاز كبير تهنّأ عليه دائما، خاصة من طرف الحاج بن شريفة، لقد بدأت تشتاق إليه كثيرا، لكن لا وقت لديها للمشاعر، كما لم يكن لديها وقت لها في سابق الزمان، وربما في اللاحق منه أيضا، لكنها تشتاق أكثر لابنتها التي غادرتها بعد قسوة الأب السكّير، لقد طال فراقها ولا تعرف لها سبيلا.

بعيدا عن الحي ببضع كيلومترات، وفي مكان أكثر رقي من المدينة، حيث توجد على الأقل مجار للوادي الحار غير سطحية وأغلب المنازل مزودة بالكهرباء والماء الشروب، يجلس الحسين الشلح منتظرا نجاة الشيظمية، لقد وفر لها شغلا جديدا بمنزل بعض الأجانب الذين يرتادون مدينة آسفي بشكل مستمر، هذه المرة أغلبهم أمريكيين، قال لها أنهم أساتذة بالمدرسة التكنولوجية، لكنها لم تكن تهتم بمعرفة مهنتهم، ما يهمها هي الأجرة الأعلى نسبيا من أجرة الأسر المحلية، كان الحسين يختار خادمات الأجانب بعناية، فهو لا يريد أحدا يتقن اللغات ولا يريد حوارا للأجانب مع غيره، كما أن الجهل باللغات يجعله يقدم ما يشاء من أجرة دون أن يحاسب من الجهة المقدمة ولا الجهة الآخذة، لكن نجاة تأخرت هذه المرة فزوجها أصبح مريضا والنعاج التي تعيش معهم في المنزل القصديري جائعة، وتحتاج من يحضر لها طعاما، وقد اضطرت لسحب عربة اليد والقيام بجولة على نفايات الأحياء المجاورة لجمع بقايا الخضر والفواكه، وهو العمل الذي اعتاد أن يقوم به الزوج...

"تقف مدينة آسفي في زخم الحياة اليومية لسكانها شامخة في التاريخ فقط، لكن واقعها اليوم ينذر باستمرار سياسة البدونة المنتهجة في حقها منذ عقود، يلف التهميش جل أحيائها، حتى تلك التي تعتبر راقية ويسكنها ذوو النفوذ والأعيان"

كانت هذه مقدمة للمقالة التي كتبتُها للجريدة الوطنية التي أصبحتُ مراسلا لها، وهي جريدة ممولة من حزب عريق، لقد كنت شابا واعدا في ذلك الوقت، وكانت مقالاتي متميزة جدا كما يقول عنها الجميع، ولكن غالبا ما كانت تحمل هذه المقالات المتميزة اسم أحد رموز الحزب، وكان اسمي يظهر بين الفينة والأخرى في التحقيقات الصحفية التي لا يقرؤها أحد، لقد كانت مقالاتي الأكثر تميزا تتحول إلى افتتاحيات لرئيس الحزب الذي لا يحسن تركيب جملة مفيدة، لكن لا مفر، أقدم هذه التنازلات منذ سنتين أملا أن أصنع لنفسي اسما أفرض من خلاله وجودي وقلمي على رؤسائي، أوأحظى بمنصب في جريدة أخرى.

على المرفأ في مرسى المدينة يقف عشرات الشبان لالتقاط سلال سمك السردين بعد أن توافدت مراكب صيد تقليدية تتثاقل من وطأة حمولتها، ينقلونها إلى شاحنات مصانع التصبير، وما سقط من سلالهم تلتقطه أيد أخرى تعتاش منه بإعادة بيعه، بينما تتجول نساء بأكياسهن البلاستيكية على الصيادين والبائعين الذين يرمون لهن بضع سردينات يُعِدن بيعها أيضا، أغلب هؤلاء النسوة أرامل صيادين جارَ عليهم الزمن أو توفاهم الله، وحتى هؤلاء النسوة لا ترحمهن أيدي شباب حرفتهم النشل من جيوب المارة، غيرأن رواد المرسى الدائمين قد تعودوا على تحصين الجيوب من خفة الأيادي وضربات الشفرات، وعلى الطرف الآخر من المرفأ وقف صفوف من بائعي السمك ينتظرون قدوم قوارب الصيد التقليدية ليحصلوا على حصتهم قبل أن يدخل محصول البحر سوق " الدلالة" ويتضاعف ثمنه، وعلى الأطراف تصطف المجامر الحديدية الطويلة فوقها مشاو سلكية تُملأ باستمرار بالسردين الذي يكثرعليه الإقبال في كل الفصول، وخاصة في الصيف حينما يكتنز شحما يذوب مخلفا لذة لا تقاوم فوق اللحم المدخّن من أثَر الشي، كما تجد ألوانا من بائعي السجائر والمسكرات والحلويات، وملّاك العربات المدفوعة ومنظفوا الأسماك، وترسانة كبيرة من بائعي وبائعات الأكياس البلاستيكية الذين تصل بهم

المنافسة إلى حرب لفظية لا تبقي ولا تذر من أعراضهم وأعراض أسلافهم شيئا، وقد تتطور إذا قلّ الإقبال عليهم إلى حرب تتطاول فيها الأيادي والسكاكين، وبين كل هؤلاء نجد امي عايشة الشيظمية متأبطة وحاملة لأكياسها رافعة صوتها " ميكا ميكا...ميكا شاكوش"، كانت تحظى بحماية ابنها الشاب عزيز، فهو من جملة منظفي الأسماك الذين يتقنون فن الرقص بالسكاكين على الأجساد، هرج ومرج يعمّ المرسى من طلوع الفجر إلى منتصف النهار، ولا تعود امي عايشة إلا بعد أن تخور قواها وتعاودها "الشقيقة" التي فتكت برأسها لكنها لم تعد تكترث لها، تصل الغرفة وتتغذى كما اعتادت مع جارتها للا خدّوج، لقاء ما تجود به عليها من سردينات في المساء، فهي الآن وحيدة، رشيد إلى حيث نفته وزارة التربية والتعليم، وعبد البر لا تراه إلا في المصائب أو مصادفة في أرجاء الحي، ونورة غارقة في عملها في المقهى، وعزيز خلفته وراءها في المرسى، وأما فقيدتها فلا تعلم لها مستقرا ولا مستودعا.

لا تتوقف للا خدّوج عن الثرثرة كعادتها، عن الأيام الخوالي وعن أيام السردين الوافر، وعن عملها في معامل التصبير المختلفة إلى أن تقاعدت منذ خمس سنوات، مقابل راتب تقاعد هزيل تحصل عليه كل ثلاثة أشهر يكفي بالكاد لسداد ثمن الغرفة، لقد قضت للا خدّوج عمرها مع زوج لا يزورها إلا مرة أو مرتين في الشهر، فهو متزوج من أخرى وله منها أبناء، أما هي فلا تلد، ولما مات في حادثة سير اكتشف الحي أنها لم ترث منه شيئا مما خلّف من عقارات، لم يكن لها عقد نكاح شرعي معه، لقد كان زواجهما سفاحا، تدعيه حتى لا يتحدث أحد، وها هي الحقيقة قد انكشفت، لكن أحدا لم يبالي بها ولم يغير تعامله مع للا خدّوج المنسية في غرفتها.

رائحة الطباشير ودخان القدر

على زاوية القاعة الكبيرة وضع رشيد طاولات فوق بعضها، وبنفس الطريقة التي شاهدها عند زميله في المركزية أصبح لديه سرير ممتاز، مرتفع بالقدر الذي سيمنعه من برودة الأرضية، كما لم يكن لديه من قبل، فقد تعود النوم على الأرض دائما، لكن جو آسفي يختلف تماما عن جو جبال الريف، وضعَ مجموعة من الأغطية التي وجدها في أرجاء هذه الفرعية، واستلقى أخيرا بعد طول عناء يلتقط أنفاسه التي لا يذكر أنه التقطها منذ خروجه، ربما منذ وعيه بالحياة، لقد كانت مريمة منتهى الكرم معه، أمدته بمجموعة من الأواني ليستخدمها في الطهو وبما يكفيه من الطعام لأزيد من الأسبوع بقليل، كما أمدته بمسجلة وبعض أشرطة الكاسيت المختلفة، لقد عرضت عليه قبل كل هذا أن يسكن معها في المسكن الوظيفي، لكنه رفض بلباقة، كيف يمكن أن يجمعه سقف وجدران بهذه القنبلة العنقودية من الجمال، القابلة للانفجار في وجه كبته المتراكم منذ مراهقته في أي لحظة وتتبع دفئه أينما اختبأ وحرق سنين العفاف التي تعتبر رأسماله الوحيد الذي مكنه أن يفتخر به.

لم يكن رشيد يظن أن علاقة من أي نوع ستجمعه بالفتاة التي بدت ماجنة وهي تخرج من الإدارة، لكن ها هي الأقدار تسوقه إليها، وفي داخله يتمنى أن تتطور بينهما علاقة من نوع العلاقات التي تجمع بين ذكر وأنثى، لكنه في الوقت نفسه يحاول أن يصنع جدران قوية حتى لا ينزلق في مثل هذه العلاقة، حينما خرج من الإدارة وعرف أنه سيذهب إلى الفرعية الأبعد لأنه آخر من التحق بالمجموعة المدرسية تسرب الخوف إلى قلبه ولم يعرف كيف سيتصرف، لكن معلما إلتقفه وبات الليلة التي عرض عليه أن يقضيها عنده يطمئنه، كما اتصل بمريمة وطلب

منها أن ترسل أحدا من معارفها ليقله إلى الفرعية، لقد كان المعلم كريما ومريمة أكرم، تيسرت الأمور كما لم يحلم رشيد من قبل، وتبددت بعض من مخاوفه التي اقتحمته وهو يعبر الجبال والوديان في طريق وعر على سقف سيارة ليصل إلى المركزية التي أخبره موظف نيابة التعليم أنه عين بها، تبددت أيضا الهالات السود التي بناها بطوب وحجارة الحكايات التي سمعها عن متاعب المهنة من رفقائه في مركز تكوين الاساتذة، الذين بدورهم جمعوا حلقاتها من حكايات معلمين سابقين لهم في المحنة.

على أنغام أغنية دافئة لكاظم الساهر بدأت الأحلام الوردية تساور رشيد، أحلام كانت جلها عن الجنس الناعم والعلاقات المرتجاة، علاقات ما كان ليفكر بها في مثل هذه الظروف لولا أنه وجد فتاة كبدر التمام أمامه، هذا الوصف نفسه الذي انتاب رشيد وهو يرى مريمة بعد وصوله إلى الفرعية، وصف تقليدي مكرر قال في نفسه، لكنه التعبير الوحيد الذي يليق في مثل هذه الحالات، فهناك أنواع كثيرة من الجمال، ولكن جمال مريمة من النوع الذي يتسلل نوره الى قلبك ليضيء العتمة الساكنة في روح الإنسان، كما ينير القمر البدر ظلمة الليل الساكن، ترتسم عوالم كثيرة في ذهن رشيد، لكن سرعان ما تشده الأغنية الجميلة إلى عالمٍ برزخ بين الحلم واليقظة، بين الخيال والواقع،

- كلام جميل ولحن أجمل، لقد أعادنا هذا الرجل إلى الفن الجميل، لقد أعادنا إلى الذوق الرائع بعدما اغتيل الحس المرهف (يقول رشيد لنفسه)

- لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار (يقول شيطان نزار قباني على لسان كاظم الساهر)

- (تشد الكلمات رشيد ويردد) صدق من قال أن للشعر شيطان يبثه في النفوس، شيطان متعدد اللغات هو من ينسج خيوط اللغة ليخيط المفردات ببعضها ويقدم لنا ثوبا يستر الواقع الذي نعيشه ويجعلنا نعيش في الخيال، الخيال

الصرف (يقول رشيد، ويعيش ليلة حالمة لم يعش مثيلا لها من قبل، دون أن يدري سببا لذلك، هل هو لقاء مريمة أم كلمات شيطان نزار أو هو لحن كاظم أم إحساس رشيد)

استيقظ رشيد قبل الثامنة بقليل، كان الهدوء لا يزال يطبق على المكان، والطيور تزقزق في السطح القصديري للقسم المفكك، أشاح الستارة التي تفصل بين سريره والطاولات، دقق النظر في الجدار المقابل حيث السبورة السوداء تعلوها صورة للملك يجلس على كرسيه مزهوا بعرشه، ترجل من سريره وتأكد من إحكام إغلاق قنينة الغاز الصغيرة جانبه " وكأنني سأبقى حيا لو لم تكن محكمة الإغلاق" (يقول رشيد لنفسه مبتسما)، يغادر القاعة ويُدخل كمية كبيرة من الهواء الجبلي البارد، لاحظ أن القاعة على حافة الجبل، وهناك جبل في المقابل، بناية مختلفة عن شكل الدور تظهر في الحافة المقابلة، ربما تكون المركزية التي جاء منها بالأمس، يلتفت يمينا فإذا بالمسكن يظهر له كأنه جنة مُسوّرة، نعم هناك فتاة جميلة ترقد هناك، لقد فوّت الفرصة بغبائه الموروث أن يقضي الليل ينصت إلى أنفاسها ونغمات قلبها، لقد ندم على عدم قبول العرض، لكنه لم يستطع حتى مصارحة نفسه بالأمر، وقف لأزيد من نصف ساعة يفكر في مريمة وهو يحملق بالمسكن، لديه جوع أزلي للجنس الآخر وخاصة إذا كان بجمالها، لكن هذا الجوع مقموع بأسوار من الطابوهات التي كان يقنع نفسه أنها بالنسبة إليه من المحرمات الشرعية، لم يصبح مداوما على الصلاة إلا بعد أن أصبح رفيق الحاج بن شريفة، لقد صلى استحياء من سؤال قد يوجهه له يوما ما وهما يتحدثان، " هل تصلي؟" لقد أعد الإجابة قبل أن يطرح هذا السؤال المتوقع من رجل كالحاج، لكن السؤال لم يطرح أبدا، وعدا عدم المواظبة على الصلاة لم يكن رشيد يقترف محرما بيّنا أبدا، بعض النيات السيئة لا غير، كانت أحلاما يعوض بها عن اعتزاله للمحرمات التي انخرط فيها كل المجتمع، حتى الإيمان بقدرات الأولياء والصالحين من دفناء

المواسم التي اعتاد أن يزورها وأمه منذ الطفولة لم يكن قد تسلل إلى قلبه، وكان ينظر إلى الأمر بمجمله أنه تخاريف أُميّين.

همّ رشيد أن ينطلق في رحلة قصيرة جدا وسط أشجار جزء الغابة المجاور للفرعية المدرسية، لكن باب المسكن الوظيفي فتح، فانخلع قلب رشيد من مكانه وارتبك، خرجت مريمة بلباس يكشف نصف عورتها، أو ما كان يعتبره رشيد عورة، احمرّ وجهه خجلا وحاول أن يبتعد حتى لا يحرج الفتاة وهي لا تدري وجوده، لكن يبدو أن حساباته لم تكن من حسابات مريمة، أو لنقل بالأحرى لم تعد من حساباتها.

- صباح الخير، كيف مرت ليلتك (تقول مريمة بابتسامة أضحكت الدنيا كما بدا لرشيد)

- (بإيماءة لطيفة) جيدة

- سأهيئ طعاما للإفطار وأتمنى أن تتناوله معي (تبارده مريمة قبل أن يتم الإيماءة)

لم يُجب رشيد ولم يرفض بالطبع، واكتفى بتطبيق مثَل "السكوت علامة الرضى"، وبعد أقل من ربع ساعة وجد مريمة في القاعة أمامه تدعوه للإفطار مرة أخرى، يذهب خلفها وبداخله إحساس غريب بالسعادة مع ضيق بسيط في صدره، إيقاع ضربات قلبه يرتفع، والدم يتدفق إلى أجزاء من جسمه لا يبدو منها غير الوجه، أجلسته مريمة في غرفة صغيرة قد زينت جدرانها بصور كثيرة للمغنيين والراقصات وأشخاص لم يتعرف عليهم، كانت إحدى الصور مثيرة جدا، فتاة شقراء ترتدي لباس رقص شرقي فاضح، يبدو أن الربع ساعة التي وعدت بها مريمة الشاب قضتها في ترتيب الغرفة لا غير أما الإفطار فقد انشغلت في تحضيره وهي تردد كلمات أغنية شرقية على المذياع، لم يتبن رشيد صوت المغنية، بالأحرى لم يسمع بها قط، فهو ليس ضالعا بالمجال الغنائي، يعرف القليل فقط حول هذا العالم،

يعرف فقط كاظم الساهر وشعر نزار الحالم في ألحان كاظم، لقد استهواه غناء كاظم منذ أن اكتشف صدفة شريطا له في منزل خالته، أُعجب به كثيرا وأصبح يغتنم كل فرصة للاستزادة من ألحانه وكلمات قباني، كان يستهويه أيضا الإنصات رفقة الشباب في الحي إلى الشاب حسني أو الشاب نصرو، أما في منزله الغرفة فقلّ أن يُسمع صوت غناء، كان فقط يسمع صوت الموسيقى الشعبية من غرفة للا خدّوج الجارة أو موسيقى شرقية وراي من غرفة نوال جارته الفاتنة الأخرى.

وضعت مريمة براد الشاي أمامه وبعض البيض المقلي وزيت الزيتون وقليل من الزبدة، قضت الإفطار كله تحدثه عن قساوة المكان والمهنة وتلعن بين الجملة والأخرى كل من يمر في طرق حديثها، القرويون المدير المعلمون الوزير والنظام بأكمله، قدمت له نصائح كثيرة حول كل شيء، نصحته بالأخص أن يتمتع بحياته وأن لا يدفن نفسه في مكان نائي كهذا، كان يجيب دائما بكلمات قليلة، وأحيانا إيماءات وتعابير وجه قليلة، بدا لها مختلفا عن كل من عرفتهم من الرجال الكثر الذين أصبحت لها علاقات متعددة معهم، كان بكلامه القليل يبدو كأنه حكيم قادم من حكايات معابد بوذا أومن خلوة صوفية، لقد ارتاحت له كثيرا، وطبعا هو أيضا، كأنها بداية علاقة رومانسية قد ظهرت مؤشراتها.

بدأ صوت التلاميذ يقوى شيئا فشيئا، وما إن شارفا على إنهاء وجبتهما حتى أصبح الصوت مسيطرا على هدوء المكان، نهضت مريمة من مكانها وبدأت تخرج بعض الملابس من حقيبة قرب سريرها، فلا دولاب لديها، أراد رشيد أن يخرج ليترك لها الحرية في تغيير ملابسها، لكنها باغتته وارتدت بسرعة قطعتين فوق ملابسها التي كانت ترتديها، لبست وزرة بيضاء ولوت شعرها بيديها برشاقة وثبتته بقطعة وردية جذابة لم يميز رشيد إن كانت إكسسوارا خاصا أم قطعة قماش عادي يفي بالغرض.

- استرح ان شئت وسأتكفل أنا بالتلاميذ (تقول مريمة بلطف ومحبة، أو هكذا بدا لرشيد المعجب بهذا الكيان الجسدي الذي لم يعرف مثله من قبل، كما لم يقترب إلى هذه المسافة من فتاة قبلها)

- لا.. لا بأس أريد أن أتعرف على التلاميذ (يجيب رشيد متلعثما)

- كما تريد، لكن رويدك فأمامك ماراثون طويل شاق لا تسرع منذ البداية فتنهار مبكرا (مريمة منبهة بإصرار)

دخل رشيد إلى القسم ومريمة لا تزال تسكن عقله وروحه، كأنها نصفه الذي قسمته الآلهة المزعومة ودفعته ليهيم على الأرض باحثا عنه، كأنه نسي محبوبة مركز التكوين، لم تخطر بباله فداعي الشهوة أقوى من كل شيء، شهوة لا تقتصر على الجانب الحسي فقط، فللروح شهوتها الطافحة التي لا تطفئها غرائز الأجساد، كان القسم يتكون من عدد هائل من التلاميذ، أزيد من عشرين تلميذا بأعمار وأشكال مختلفة، هدأهم قليلا وتذكر أنه نسي أن يسأل المدير والمعلمة عن القسم خاصته، استفسر التلاميذ عن مستواهم الدراسي، وكم كانت دهشته كبيرة حينما اكتشف أنهم أربعة مستويات دراسية، وخاصة حينما أكدت له مريمة الأمر، وأن عليه أن يدرسهم في نفس الفصل وفي نفس الوقت كل المواد، لم يسمع عن شيء كهذا " لقد خدعونا في مركز التكوين " (يقول رشيد لنفسه)

بعد أقل من ساعتين وجد رشيد مريمة واقفة أمام قاعته وصوت التلاميذ خارجين قد سبقها، لم يحن وقت الخروج على ما يبدو، لكنها أقنعته أن هذا هو المعمول به هنا، يكفيه نصف الوقت المقرر، تكلمت مريمة كثيرا وفي مواضيع متعددة، كان الوقت يمر سريعا ورشيد مستمتع بالوضع القائم، لم يكن يدرك تماما الإحساس الذي ينتابه في تلك الأثناء، لكنه مقتنع بشيء واحد على الأقل، يتمنى أن يبقى معها لأطول وقت ممكن، إنه مستمتع جدا، لا بل سعيد جدا.

غادرت مريمة الفرعية قبل شهر رمضان بيومين، هي لا تطيق الصيام بعيدا عن الأسرة كما قالت له، كان يظن أنّ تفرغه للعبادة والعمل سيؤنسان وحدته بعيدا عن البحر الهادر الذي اجتاح قلبه، يقضي نهاره متراقصا بين قسمه وقسم مريمة التي خلفت وراءها تلاميذ تكفل بتعليمهم مقتطعا بعض الوقت من حصص تلاميذه، بينما يقضي الليل في التراويح التي كانت ثقيلة متعبة خلف إمام المسجد المجاور الذي لا يكاد يقيم لأبسط قواعد القراءة وزنا، كما كان يقضي فترة قبل النوم يكتب أجزاء من روايته التي تحولت إلى سيرة ذاتية يحكي فيها تفاصيل حياته وأحلامه المستقبلية، لقد قتل فيها الرواية وحولها إلى مذكرات رتيبة...

انشغل رشيد برواية تيغالين أيضا، يفكك شفراتها ويحاول جاهدا أن يجد الخيط الناظم بين الشخصيات والأحداث، بين الأسماء والأدوار، بين واقعها الروائي وخيالها التاريخي وواقعه المادي، لا جديد يذكر سوى القلق الذي تورثه كتابات مخاتلة لا تضع فصلا بين الواقع المباشر والتخييل المنساب...

obeikandl.com

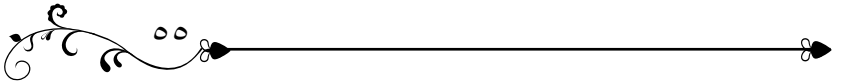

اغتصاب

وصلت حنان وحيدة إلى مدينة بن جرير، فوالدتها منشغلة برضيعها ولا تستطيع أن تخلفه وراءها لغيرها، كما أن اللباس الأبيض لم تنزعه بعد حدادا على زوجها المتوفى، سعيدة بتعيينها الذي يعتبر ممتازا مقارنة مع تعيينات زملائها وزميلاتها، فالإقليم ليس بعيدا جدا عن مدينة آسفي، وجدت خالها ينتظرها عند محطة القطار، ذهبا مباشرة إلى نيابة وزارة التربية الوطنية ليتعرفا على المجموعة المدرسية التي ستتعين فيها، لم تكن بعيدة جدا، ساعة واحدة عن مدينة بن جرير، خالها سبق أن زار المكان، لقد عمل هناك لفترة قصيرة منذ زمن غير بعيد، قضت اليوم في منزله، لم تلتفت كثيرا إلى زوجته التي كانت معاملتها لها على غير العادة، لقد كانت تخشى أن تقطن حنان معهم بعد أن علمت بتعيينها القريب، وقد حاولت حنان أن تبدد مخاوفها بطرق شتى، لكن الزوجة ظلت متوجسة.

قضت حنان ليلتها تنتظر إطلالة الفجر موعد الانطلاق نحو وجهتها، وتذكرت رسالة رشيد الرقيقة، صحيح أنها كانت ترى فيه قبل هذه الرسالة الشاب الممتاز الذي تحلم به أي فتاة، لكنها بعد أن قرأت رسالته لعشرات المرات أصبحت ترى فيه مشروع حبيب، لقد دقّ قلبُها من أجله فعلا، فتحت الرسالة باب قلبها الموصد، لم تفتحه من قبل، لقد كانت تجربة أمها المطلقة مرتين قبل وفاة الزوج الأخير تسيطر عليها، ووالدها الذي تركها طفلة غريرة وفرّ إلى المجهول قد جعلتها تتوجس من جنس الرجال مطلقا، رغم أن زوج أمها المتوفى قريبا كان دائما لطيفا معها، لكن ثقافة المظلومية التي زرعتها أمها في قلبها منذ نعومة أظفارها خلقت ارتباكا واضحا في مشاعرها، وبنت حائط صد منيع أمام جنس الذكورة.

وصلت حنان إلى فرعيتها ولم تكن رحلتها سهلة كما صوّرها لها خالها، لم تكن سهلة له أيضا، فقد زار سابقا البلدة حيث مركزية المجموعة المدرسية، لكن طريق الفرعية كان عالما آخر مختلفا، لا تتوفر الفرعية على سكن، قاعتان فقط في قارعة طريق حجري هو كل ما يوجد في هذه الفرعية، أخذهم المدير الذي رافقهم إلى مقدم الدوار حيث تناولوا إفطارا دسما، وهناك التقوا بأحد القرويين الذي قدم المساعدة، ستقطن حنان في منزل أخيه المهاجر إلى أوربا خلال الموسم الدراسي، كان المسكن ممتازا يتوفر على كل مستلزمات الحياة العصرية، مجهز بأدق تفاصيل الرفاهية التي لا تتوفر حتى في منازل المدن، ستستغل غرفة واسعة ورواقا كبيرا ومطبخا فخما، بينما ستظل بقية الغرف مقفلة انتظارا للصيف حيث سيعود الأخ المهاجر، كل هذا ولم يقبل الرجل درهما أجرا على منزل أخيه، إنها وصية الأخ المهاجر ينفذها لا غير.

وضعت حنان ملابسها في درج فارغ من خزانة وجدتها هناك، كانت الخزانة مقفلة عدا ذلك الدرج، استراح الخال قليلا وغادر على وقع أغنية خليجية في التلفاز الكبير فوق خزانة على الرواق، قضت حنان ساعات متأملة في المنزل وجماله، وقد استخسرت أن يوجد مثله في هذا المكان القاحل البعيد، شكرت الله أن هيأ لها من ييسر لها تعيينا كان سيكون قاسيا بدونهم، تمنت لوأن جدران البيت الذي حصلت عليه جمعتها برشيد وبعض الأطفال من صلبهما يلعبان حولهما، لقد سكنها التفكير بهذا الشاب البشوش الخجلان دائما، لم تكن تفكر للحظة أن مثله قد يفاتح فتاة في موضوع حب وهيام...

مدينة الدار البيضاء عامرة بأهلها، سكانا وزوارا وعابري سبيل، عمارات تطاول عنان السماء مدجّجة بالأطباق اللاقطة، أحياء فيلات فاخرة يفصلها سور عن أخرى لبراريك قصديرية بائسة، تضج المدينة بكل أنواع المتناقضات، وفي كريان سنترال أحد أكبر تجمعات بيوت الصفيح في المغرب، حي المقاومة والعمال

والمبدعين، تقبع نزهة شقيقة رشيد في "برّاكة" أحد صديقاتها، منذ أن غادرت منزلها الغرفة على وقع اعتداء والدها وهي هائمة على وجهها من صديقة إلى أخرى، تتجنب السقوط في براثن الفواحش الأخلاقية ما ظهر منها وما بطن، تلوذ بمهن حقيرة لا تلبي ثمن المأكل والملبس والمسكن، وقد انتهى بها المقام عاملة نظافة في مصحة خاصة في البيضاء، تتناوب مع صديقتها على العمل والمسكن، كانت المصحة تضخ الملايين لأصحابها، وتشح بدريهمات قليلة على نزهة ومثيلاتها، تدفع نصف ما تجنيه لصديقتها للإقامة معها، وتصرف الباقي على ضروريات الحياة اليومية، كانت "البرّاكة" في الأصل جزءا من منزل صفيحي أكبر، لكن وفاة صاحبها أب الصديقة عجّل بتقسيم "البرّاكة" الكبيرة الى "برّاكات" أصغر، وأصغرها تلك التي تقيم بها وصديقتها.

كانت صديقة نزهة تعمل معها في المصحة الخاصة، لكنها كانت تعمل أيضا في ملهى ليلي، وكانت دائما تحاول أن تقنع نزهة أن تشاركها العمل، لكن الأخيرة كانت ترفض دائما، (بقا لبوك غير لحلال والحرام) هذا ما كانت تسمعه نزهة من صديقتها دائما كلما رفضت لها عرضا مغريا، كانت عروضها تعج بالجنس والخمر، ولم تكن نزهة ممن يطيقون سيرة للأول ولا رائحة للثاني، يكفي أن الأول سبب زواج والدها من امرأة غير أمها، والثاني سبب خروجها هائمة في الأرض تترقب حتفها.

اليوم رفضت نزهة عرضا جديدا ومغريا، تاجر مخدرات بارز في الحي يطلب ليلة مقابل ثلاثة آلاف درهم، لقد أسال المبلغ لعاب صديقتها الوسيطة، لكنه لم يحرك فيها ساكنا، ولم تستسلم لوابل الإقناع الذي انهال عليها، لكن الصديقة أيضا لم تستسلم...

حلّ الليل مظلما في الدوار مع أول ليلة تبيتها حنان في المسكن الجديد، وغطّت الفتاة في نوم هادئ لم يَشُبْهُ إلا بعض النباح والصرير الذي بدا لها كأنه موسيقى تزين المكان... بعيدا وفي كريان سنترال تقضي نزهة ليلة أخرى من الليالي

التي تضج بأصوات شباب الحي القصديري الذي يقضي الليلة في الصراع والنازعات، تتعالى أصواتهم تارة وتنخفض تارة أخرى، مشهرين أسلحة بيضاء وألسنة حداد تقذف بكلمات نابية في كل مكان... انتصف الليل واستغرقت حنان في نوم لا تكاد تشوبه شائبة... نزهة كذلك انتصر نومها أخيرا على أرقها الملازم لها منذ غادرت منزل الأسرة... صوت مفتاح تحاول اليد التي تحمله أن تفتح به الباب، وبهدوء ينفتح الباب، وقع أقدام طفيف تتقدم نحو السرير، تنطفئ الأضواء في الخارج أيضا، يبدو أنه انقطاع في الكهرباء، تزداد الظلمة، مصباح محمول يتخبط ضوءه في الجدران، تستيقظ الفتاة مختلطة أحلامها بتفاصيل الواقع الأسود، لا تكاد تتبن شيئا، تثيرها حركات المصباح اليدوي على الجدران فتتلمس مفتاح تشغيل المصباح، لكنه لا يضيء رغم ضغطه، تزيد درجة الاستيقاظ لديها وتهمّ أن تقوم من مكانها، لكنها قبل أن تحاول تمسكها يدان قويتان وتضمها إلى صدر خال من المشاعر ضمّا، تحاول أن تصرخ لكن شفتين غليظتين تضغطان بقوة على شفتها وتمنع أي هواء من الخروج، ولولا الأنف لماتت من قلة زادها من الهواء، تحاول أن تتملص، تحرك أطرافها في كل الاتجاهات دون جدوى، لقد أصبح ثقل جسمٍ ما مسيطرا على جسمها الصغير، يخلع عنها ملابسها القطعة تلو الأخرى، ينتهي من فعلته سريعا بأشنع من الوحشية بمراحل، يترك الفتاة ملقاة على الأرض تسبح في بحر دماء الخارج والداخل، ويغادر الوحش دون أن تتبين منه ملمحا، ثم يعود الكهرباء وتشتعل أنوار المصابيح كأن الظلمة كانت تشارك أيضا في الجريمة متحالفة مع الوحوش الآدمية.

على حواشي الزمن

لقد استطاع الأستاذ أحمد كما كان يناديه الصغير والكبير أن ينال احترام الناس جميعا، إلا نفسه، فهو يعلم جيدا أن كل ما وصل إليه اليوم لم يكن نتيجة مجهوده الشخصي فقط، بل كان بتقديم تنازلات كبيرة من مبادئه وقناعاته، وبهضم مجهود أناس كثر، لقد اختار الطريق القصير، ولم يحترم أسس المنافسة، فبعد أن قضى سنوات قليلة كمعلم في مدرسة ابتدائية ضواحي المدينة، ها هو اليوم وبدعم من الإطار الحزبي الذي ينتمي إليه يصل إلى مركز المدينة، المنصب الذي يحتاج أقدمية مهنية أكبر من التي يتوفر عليها، ليس هذا فقط فقد أصبح مسؤولا إقليميا على رأس إطار نقابي مرموق، واستطاع أن يحصل على تفرغ من المنصب بعد مدة قليلة.

منذ الوهلة الأولى التي رأى فيها الكاتب العام للحزب الأستاذ أحمد وهو يدرك أن فصاحةً وحسن إقناع كالتي يتوفر عليها هذا الشاب، من شأنها أن تجلب آلاف الأصوات المتعاطفة للحزب، لهذا مدّ يديه إليه وأغراه بكل المغريات المتوافرة ليضمه إلى صفوف رجاله الأقوياء، فالحزب يحتاج الآن وأكثر من أي يوم إلى رجال قادرين على حشد الجماهير، بدل الأوراق المحروقة التي انتهت مدة صلاحيتها لدى الناخبين، فالمنافسة قوية ويد النظام تسحق كل من ضعفت شعبيته وقل مريدوه، ولم يعد حزبهم كما مضى الوحيد الذي ينشد البراغماتية، فأحزاب كثيرة توالدت ولديها الاستعداد لتقديم ما لا يستطيع أن يقدمه حزبهم للنظام، فالأيديولوجيا التي يتستر خلفها بدأت تشيخ ويقل معتنقوها، وهو يدرك جيدا أن حزبا ذا شعبية يخدم النظام أفضل له من حزب مطيع دون شعبية تذكر.

استغل أحمد ثقة الكاتب العام للحزب وتدرج في مختلف فئاته السياسية حتى وصل للمكتب السياسي، وأصبح رئيس لجنة فرعية ومسؤولا عن الإعلام في الحزب، استطاع أن يضع تصورا جديدا لتسيير الحزب لم تعتد عليه الأحزاب التقليدية، انتقل في مساره المهني من معلم في السلك الابتدائي إلى أستاذ جامعي في سنوات قليلة، وهويدرك تمام الإدراك أن الشواهد التي حصل عليها كانت إرضاء وإغراء وليس استحقاقا، لم تكن تنقصه الكفاءة، لكن اختصارا للوقت والجهد كان يقبل كل شيء...

الفاطمي قدورة لم يكن رجلا سهلا أبدا، لقد كان داهية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، لقد قضى سنوات في المخابرات العامة وها هو يصل إلى رتبة كبيرة جدا داخل هذا الجهاز، لقد عُين رئيسا لهيئة الاستقصاء وجمع المعلومات، وهي هيئة سرية مستحدثة تقوم بمراقبة نشاطات كل شخصية يحتمل أن تصل إلى القيادة في دواليب الدولة أو الإطارات الناشطة من أحزاب وجماعات وتجمعات، كانت مهمتها الحقيقية استباق كل خطر على النظام، خاصة بعد توالي الانقلابات الفاشلة والجرأة على النظام، أمام الناس الفاطمي مجرد باحث جامعي في الشؤون القانونية والسياسية، ولا أحد كان يعرف طبيعة نشاطه المخابراتي إلا القيادات الكبرى في بعض أجهزة الدولة، كانت ملفات الجميع بين يديه، رؤساء الأحزاب والقيادات الشبابية ومرشدو الجماعات الإسلامية وأمراؤها وقادتها والشخصيات البارزة في الميادين السياسية والاقتصادية والفكرية حتى وإن لم يكن لها انتماء لإطار بعينه.

كان الكل يرى في الفاطمي شخصا مجنونا، كان يدّعي أن له قدرات خارقة، لطالما ردد على مسامع مرؤوسيه أنه قادر على إشفاء الأمراض بلمسة من يديه وأنه قادر على الحديث مع أناس عن بعد وأنه يحدّث أصنافا من الحيوانات، ولم يكن أحد منهم يصدق كلامه، لكنهم لم يتجرؤوا على الإبداء برأيهم في جهاز لا يؤمن إلا

بالسمع والطاعة، لكن هذا لم يمنعهم من تصديق بعض ما يتعلق بالسحر والدجل، خاصة أن مكتبه كان يتردد عليه سحرة وأصحاب قوى خارقة كما يدّعون وأصناف من الغرباء لا حصر لهم ولأشكالهم.

جلس الفاطمي يوما يقرأ بإمعان ملف أحد الأساتذة الجامعيين، قرأ مساره وآراءه وحتى خواطره التي يكتبها لنفسه ولا يبديها لأحد " إنه شخص متناقض تماما" (قال الفاطمي لنفسه)، ظل يقرأ الملف كل يوم في مكتبه، ويدوّن الملاحظات ويطلب معلومات أكثر، ودائما يردد " قد يفعل العجب العجاب لو تُرك "

كان الأستاذ أحمد مرموقا ومحترما بين النخبة التي بدأت الجماهير تفقد الثقة فيها شيئا فشيئا، لكنه كان دائما فاقد الثقة في نفسه، لقد همّ أن ينسحب في صمت مرات عديدة، لكن رِزأ الزمن كان يمنعه، لقد غرق في بحر لجي لا عمقه ولا ظلامه يسمحان له بالخروج منه، انخرط في عالم الداخل فيه مفقود والخارج منه مقتول، لقد وصل لكل ما يمكن أن يحلم به الإنسان من مال وجاه، لكنه ظل وحيدا تحفه الخطيئة من كل الجوانب، خطيئة خيانة المبادئ والقناعات التي آمن بها، لم يكن يؤمن بالبهرجة التي تلفه وأمثاله ويصدقها الكثيرون، الأستاذ الباحث الدكتور المثقف المناضل المحترم، كلمات يسمعها في كل لقاء عن نفسه، وما كان منخدعا بها البتة، هناك كثيرون غيره صدقوا المسرحية وانخرطوا فيها، لكنه لم يكن ليصدقها، لكن يبدو أن الموعد قد اقترب، سيرمي كل شيء وراءه، وكان يدعوا الله أن يكون هناك حتى يرى كيف ستسير الأمور بعد الرمي، حتى روايته التي سيوزعها على أهدافه قد أنهاها منذ أيام ولم يعد ينقص سوى أن يحدد الأهداف بدقة ويضع لها حلا للشيفرة حتى تفهم روايته...

لقد وصل الفاطمي لمعلومات كثيرة جعلته وهيئته يحظيان بثقة مفاتيح النظام، وأصبحوا يعتبرونه السور المنيع لحكمهم، لم يكن يحمي النظام السياسي القائم فقط، كان يحمي كذلك شخصيات بعينها، طلاب سلطة ومال، كانت

ملفاتهم أمامه دائما، لكنه كان يفهم أن هذه الملفات لا تجلب حكما قضائيا ولا اعتقالا تعسفيا لمثل هؤلاء، كانوا جزءا من النظام فوق النظام، كان يحميهم ليحمي نفسه، اليوم أمام الملف الذي بين يديه يقف عاجزا على تحديد ماهية الشخصية الماثلة أمامه، لقد وصلت هذه الشخصية إلى شعبية كبيرة ولها نشاطات أكبر وتأثير هائل، كان ظاهرها كجُلّ النخب التي تسمع منهم جعجعة ولا ينتجون طحينا، لكن باطنها ريح قد تهز الأركان، خاصة أنها بدأت تربط علاقات بشخصيات عسكرية ليس من المعقول أن تنسج معها علاقات، شخصيات حساسة ولم تحسم بعد موقفها وولاءها للنظام، وللنظام الذي يقف فوق النظام.

كان الفاطمي كلما تعمق في شخصية الأستاذ أحمد إلا وزاد شوقه ليلتقيه، الأمر هيّن فكلاهما أساتذة جامعيون ويمكنه أن يلتقيه في محاضرة أوندوة أو لقاء، لكنه كان يريد لقاء خاصا، فما يريد معرفته أكبر من أن يقال تصريحا وعلى رؤوس الأشهاد، كما أنه يريد أن يحسم الأمر بسرعة ولا يريد الإنتظار كثيرا، فلم يكن من النوع الذي يتحلى بالصبر، حسم أمره وقرر أن يحضره في سيارة من سيارات الهيئة السوداء المصفحة " اختطاف ودّي لا أقل ولا أكثر" (قال الفاطمي لنفسه).

جلس الأستاذ أحمد يتناول طعام العشاء في هدوء بعد أن غادرت الخادمة المنزل، لقد كان يعيش وحيدا فلا زوجة تؤنسه ولا عيال يزرعون حياة في البيت، كان يؤمن أن زواجه قد يزيد الخطيئة استفحالا، فهو يعلم أن يوما ما ستقلب فيه حياته رأسا على عقب، ولا داعي ليورّط أناسا آخرين، كاد ينهي طعامه على صوت المذياع الذي يبث أغنية لشاب واعد يدعى محمد الحياني، "لمن تغني يا قلبي.. إلا ما غنيتي اليوم.." سمع الباب يفتح بالمفتاح، لم يكد ينهض من مكانه حتى وجد رجلا شديد سواد الشعر وأصفر البشرة عليه ملامح آسيوية صرفة، لم يعتد المغاربة على رؤية مثله، فارع الطول قوي البنية لا يكاد يسمع له وقع قدم على البلاط الخشبي، وبرباطة جأش بادره الأستاذ أحمد:

- من أنت حتى تقتحم علي بيتي؟

- أنت البادئ والبادئ أظلم (ببرودة أجابه الفاطمي)

- ماذا تقصد يا هذا (يقول الأستاذ متمتما)

- كنت في مكتبي منشغلا في قضاياي حتى اقتحمت خلوة نفسي وحركت دواخلي واستثرتني وحملتني على البحث عنك، وقضيت وقتا من وقتي الثمين أبحث عن من تكون وماذا تريد وفي الأخير لم أصل لشيء على غير عادتي، وجئت لنصل أو أوقفك حيث وصلت (يجيب الفاطمي غاديا ورائحا)

- لم أفهم من كلامك شيئا، وأرجوا أن تغادر فورا وإلا اتصلت بالشرطة (بكل حزم)

- (الفاطمي ضاحكا) آه الشرطة..والهاتف، هل تعرف أنك من بين الألف وتسعمائة وثمانية وستون فردا في الإقليم الذين يتوفرون على هاتف شخصي؟

- (يومئ الأستاذ أحمد صامتا باستغراب)

- اسمع.. أنا أعرف كل شيء عنك، وقائعك أحلامك وأوهامك ، كل شيء هنا (يشير الفاطمي الى رأسه)

- وماذا تريد يا بهبوذ (الأستاذ أحمد بسخرية ومتراجعا للوراء ملتقطا كأس ماء من المائدة)

- اشرب فقد انكشف أمرك (يردف الفاطمي قائلا)

- هيا هات ما عندك ولننه الأمر سريعا، هل أنت من المخابرات؟ (يقول الأستاذ أحمد متظاهرا بالهدوء)

- تقريبا وليس من قبيل المؤكد (الفاطمي مستهزئا بتنبؤ الأستاذ أحمد)

- كان بإمكانك إرسال سيارتكم الغير المرقمة لحملي إلى سيادتكم دون أن تزعجوا أنفسكم بالحضور إلي، مقامكم أعلى من هذا (محاولا إثارة الفاطمي)

- (الفاطمي ببرودة) كنت أنوي القيام بذلك، لكنك مختلف وطريقتي معك أيضا أريدها أن تكون مختلفة
- طوع أمرك ماذا تريد؟ (الأستاذ أحمد وكأنه تخلص من حمل فوق كتفيه)
- متى قررت؟ (الفاطمي مباغتا بالسؤال)
- لم أحدد لذلك موعدا (يجيب الأستاذ احمد متثاقلا)
- هل هناك من يعرف بمخططك؟
- لا، لا أحد كنت أعول على عنصر المفاجأة والتمست الكتمان
- ما الطريقة التي كنت تريد أن تنتهجها؟
- المظاهرات
- لكنها غير فعالة
- قد تكون فعالة إذا كانت مفاجئة
- لكن النظام الأمني قوي
- والانشغال بالمظاهرات يفتح جبهات أخرى يمكن ولوجها
- إذن المظاهرات للتعمية فقط
- تماما
- ماذا كنت تقصد بالجبهات الأخرى؟
- الأحزاب وقادة العسكر
- هل جندت أحدا
- مهدت ومرحلة التجنيد أسهل مرحلة
- ما هو تصورك للنظام البديل؟
- واحة من الاختلافات البناءة
- هل كنت تظن أنك قادر على النجاح؟
- شرف المحاولة يكفيني

obeikandl.com

- روايتك، هل طبعتها أم لا تزال لديك؟

- (الأستاذ احمد صعقا) في..الدرج المقابل، وشيفرتها في الصفحة الثالثة والسابعة من كل فصل

فتح الفاطمي درج المكتب وتناول الرواية، تصفحها سريعا وأخذ منها بعض الأوراق وانسحب مخلفا وراءه الأستاذ أحمد يحس براحة لم يحض بها منذ سنوات، كانت الأسئلة سريعة من الفاطمي، ولم تقلّ أجابات الأستاذ أحمد سرعة، كأنه قد هيأها قبل المقابة، لبث في منزله أسبوعا ينتظر الاعتقال، لكن أحدا لم يزره غير عدد هائل من أصحاب المصالح الذين كانت تنكر الخادمة عنهم وجوده، أسبوع الانتظار تحول شهورا، لكن أحدا لم يعتقله، ظل مرابطا في منزله كأنه ينتظر الموت.

ظل الفاطمي لنحو ساعة يحادث قطته السمينة التي تجلس دائما معه في مكتبه، اقتنع أخيرا أن اعتقال الأستاذ أحمد سيكون خطيئة في حقه، فقد نفذ حكم الاعتقال فعلا، لكن بأيد غير أيدي هيئته المخابراتية، لقد اعتقل الأستاذ أحمد نفسه بنفسه " لن يتجرأ مرة أخرى أن يلج إلى نفسي التي بين جنبي" (يقول الفاطمي لقطته).

لقد بدأ الفاطمي ينسى الأستاذ أحمد الذي لا ينكر أنه تأثر به وبأفكاره الرائدة التي كان من شأنها بناء تصور واقعي لبناء دولة حقيقية، كانت الرواية وشيفرتها طريقة جديدة في التغيير، التغيير الذي كان من الممكن للفاطمي أن يساهم فيه لكن ميراثه الوظيفي كان يمنعه من الاعتراف بهذا حتى مناجاة لنفسه، الآن يحقق في قضية خطيرة جدا تتجاوز قدرات الأستاذ أحمد ومن على شاكلته، لقد بدأت مجموعة كبيرة من القادة الصغار في الجيش تتحرك على غير عادتها داخل وخارج الثكنات، وكأن شيئا ما يدبر، وعلى الفاطمي طبعا أن يعرف وجهتها وطبيعة تحركاتها، لقد توصل إلى شيء غريب جدا، القادة يتحركون في أوقات

محددة ولا يتذكرون أنهم ذهبوا إلى حيث تم رصدهم، ربما يتظاهرون بعدم تذكرهم، قرر الفاطمي أن يُخضع بعضهم إلى التنويم المغناطيسي ويحقق معه.

- ما اسمك؟ (يقول الفاطمي لأحد الضباط)
- شهاب البعناوي (يجيب الضابط بآلية كأنه يستظهر المعلومات)
- مقر عملك؟
- الثكنة العسكرية في القطاع الثاني للقوات المسلحة الملكية فرع الطيران
- أين تقضي يومك؟
- نهارا بالثكنة وإلى حدود الساعة الرابعة حيث انهي عملي وأستريح في غرفتي، ثم انطلق إلى المجمع الطلاميسي
- وما هو المجمع الطلاميسي؟
- مقر القيادة الثانية
- تابع للجيش؟
- لا
- لمن إذن؟
- لسيدنا المخلّص
- ومن هو هذا المخلّص؟ (باستغراب كبير يقول الفاطمي)
- إنه من سيملأ المغرب عدلا
- ما اسمه؟
- لا علم لنا
- ماذا تفعلون في المجمع الطلاميسي؟
- نتعلم خطة العمل
- عمل ماذا؟

obeikandl.com

- تنفيذ الانقلاب (يقول الضابط أمام صدمة الفاطمي الذي يبدوكأنه يقول: آه ليس مرة أخرى)

- وكيف ستنفذون انقلابكم؟

لم يجد الفاطمي إجابة على سؤاله الأخير فقد أصيب الضابط بنوبة من الصرع المفاجئ وكادت عيناه تخرجان من محجريها، مما استدعاه لطلب الإسعاف فورا، لكن الضابط توفي في الطريق إلى المستشفى العسكري، وهذا كان مصير عشر ضباط آخرين حاول استجوابهم بطريقة التنويم المغناطيسي، بينما لم يجد إلا الإنكار لدى كل من استجوبهم دون تنويم رغم أنه جرب معهم تعذيبا لا يصمد أمامه أحد.

ركب الفاطمي قدورة سيارته واتجه من العاصمة إلى مدينة أزمور المحاذية لمدينة الجديدة، توقف قرب منزل ودون أن يطرق الباب دلف إلى داخل الدار، تبدو خالية لا سكان فيها، كرسي متهالك وسط صحن البيت الواسع وعلى جوانب الصحن غرف أغلبها بأبواب مفتوحة تتدلى أشعاع العناكب منها، جلس الفاطمي على الكرسي وبدا وهو ينظر الى أرجاء المنزل كأنه يحاول تذكر ماض بعيد، لم يطل انتظاره حتى طلع عليه رجل طاعن في السن لكن علامات القوة لا تزال بادية على محياه، ما إن رآه الفاطمي حتى تقدم سريعا نحوه، قبّل يده وتبعه عائدين إلى الكرسي، جلس الرجل وجلس الفاطمي عند أقدامه.

- لماذا قدمت اليوم، ألم تقل أنك تعلمت ولم تعد بحاجة إلي (يقول الرجل بصوت مبحوح وخافت كأنه صادر من زمن آخر)

- لا يمكن أن يكبر الابن عن والده (باحترام يقول الفاطمي)

- لكن لم يكن هذا هو كلامك حينما عيّنت في المخابرات

- إنه وقع المنصب وقد استسمحتك مرات كثيرة

- لا عليك، لن تعيد مغفرتي الزمن الذي أنفقته من أجل تلقينك معارف الأسرة الثمينة التي انتقلت عبر الاجيال ولم يكن من المتخيل أن واحدا ليس من صلبي سيرثها (يقول الرجل بحسرة كبيرة)

- لكنك كنت دائما لي كالوالد (الفاطمي معاتبا)

- نعم لكنك لم تكن لي كإبن قط (يجيب الرجل بقسوة وغلظة)

- لقد أردت أن تكون لي شخصيتي الخاصة، لم أكن أريد أن أكون نسخة عنك

- لكنك في الأخير أصبحت نسخة مني، (مستهزئا) نسخة مشوهة (يضيف الرجل)

- أنا لست ناكرا للجميل، لولاي لكنت الآن مسجونا بتهمة تدبير انقلاب على الحكم

- مِنّتك التي تذكرني بها كل يوم، لكنك واهم، فقد أخرجت منذ مدة قليلة رجلا لا علاقة لك به من تهمة مشابهة، أم تراك اقتنعت بأهدافه النبيلة وتعاطفت مع فعلته وتمنيت أن تساعده فيها، يمكنني اليوم أن أدخلك المعتقل، بل و المشنقة، لكنني أعفو عنك، واحدة بواحدة.

- (الفاطمي مندهشا يقف أمام الرجل) يبدو أن قدراتك لا تزال قوية، كيف استطعت أن تتصل بدماغي وتقرأ أفكاري

- (الرجل مستهزئا) دماغك، وهل أنا أحمق حتى أغامر بولوج دماغ موبوءة، إنها دماغ قطك السمين

- آه، من حمقي أحكي له كل شيء ونسيت أن أيسر الأدمغة دماغ الحيوان

- دعنا من كل هذا، لماذا ضربت في الأرض وقطعت أعمالك لتأتي إلي؟

- (الفاطمي مبتسما) صلة رحم

- أمستهزئ أنت؟

obeikandl.com

- كاستهزائك بادعائك عدم المعرفة، أم أن القط لم يخبرك؟

- هل تقصد المحاولة الانقلابية الجديدة للضباط؟

- هي تلك

- وماذا تريد مني؟

- هل لديك احتمالات؟

- كنت قد قرأت عن قدرة تحريك البشر دون إرادتهم لفعل ما تريد، لكنني لم أتوصل لآلياتها

- (الفاطمي صعقا) وهل هذا ممكن؟

- قلت لم أصل إلى آلية، أما الإمكان فممكن

- هل تعرف أحدا ينفعنا

- من الأحياء لا أعرف أحدا

- ومن الأموات؟

- وما يجدي الأموات، أم تراك تريد فتح نافذة الزمن التي وعدت بها

- هي أيضا إمكانية لكن لا آلية يا والدي العزيز

- الحل الوحيد أن تربط الاتصال بمن يحرك الضباط أثناء تحريكهم، لكن احذر قد تصل إلى حتفك (يقول الرجل قاصدا الدرج الذي ظهر منه بادئ الأمر)...

غادر الفاطمي رجوعا الى العاصمة ودون أخذ راحة توجه الى المكتب وعقد اجتماعا طارئا وأرسل من يرصد له تحركات مجموعة من الضباط الذين كانت تحركاتهم مشبوهة، وبعد أسبوع أستطاع أخيرا رصد ضابط يقوم بمغادرة الثكنة كل يوم مساء متوجها إلى ضريح قديم قرب البحر يختلي فيه عدة ساعات قبل أن يعود الى الثكنة.

دخل الضابط الى الضريح كأن على أذنيه وقرا، عيناه نصف مفتوحتين، جلس قرب حجر كبير يبدو كأنه رمس قديم، وبدأ يومئ بوجهه دون كلام، وقف

obeikandl.com

الفاطمي خلفه، حاول أن ينومه مغناطيسيا لكنه لم يظفر بذلك إلا بعد عناء طويل، ليربط الاتصال بشخص يبدو أنه من يحرك الضابط

- (الفاطمي كأنه اكتشف كنزا) آه، إذن اسمك الهاشمي

- وكيف عرفت أيها الضابط (يقول الصوت المنبعث من المجهول)

- انا لست الضابط يا عزيزي، (يقول الفاطمي) وقد سمعت أحدا بجانبك يناديك بهذا الاسم (يضيف الفاطمي بنبرة المنتشي بانتصار ما)

- من أنت؟ هيا تكلم وألا قتلتك (يقول الهاشمي من خلال الصوت المنبعث من المجهول)

- لقد اكتشفتك أيها الوغد، تريدون قيادة انقلاب على الحكم، اعدامكم سيكون على يدي

- (الهاشمي مرتبكا) لا تتسرع قل لي من أنت وأقول لك الموضوع

- أنا رجل مخابرات وقد تتبعت ضابطكم حتى أوقعتكم في الفخ وعرفتك أنت، وستقودني الى بقية المجموعة

- لن تستطيع فعل شيء، أنا مجرد تلميذ في هذه المجموعة مهمتي تنويم الضباط وإحضارهم، وكبيرنا يقوم بتزويدهم بالتعليمات التي يجب أن يقوموا بتنفيذها في ثكناتهم ويوم الانقلاب، وإن وقفت في وجههم سيدمرونك.

الفاطمي يصرخ كاد دماغه أن ينفجر.

لم يُرَ الفاطمي بعد تلك الحادثة أبدا، ولم يعثر جهاز المخابرات على دليل على وجوده حيا أو ميتا.

obeikandl.com

معاناة برائحة سمك وبحر

قررت امي عايشة أن تصاحب ابنها عزيز لعيادة زوجها طريح الفراش، لقد تشمعت كبده من جراء الكحول التي أدمن عليها منذ شبابه، ولم يعد يحرك ساكنا منذ أسبوع، ليس له أولاد من زوجته الثانية، ولهذا قررت ببساطة أن تتخلى عن واجبها تجاه رقدته، وقد أرسلت في طلب عزيز ليخلصها من حِمل الجثة الهامدة القابعة في ركن بيتها، لم تعد تطيق تحمّله، ولم يكن لامي عايشة إلا أن تُظهر معدنها النفيس وتتحمل زوجا قد تشمعت كبده في نظرها منذ زمن بعيد.

بدأت مخططات عزيز تنهار في مغادرة البلاد، لقد كان يستعد لجمع مبلغ يدفعه لمهرِّب يعبر به إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط في قارب من قواربه، لم يعد يتحمل البقاء في وطن يرفضه ولم يقدم له أبسط الشروط الآدمية للعيش، وطن يحس فيه بالغربة والجوع أراد أن يعوضه بغربة دون جوع، الآن قد يصبح تواجد الوالد عبئا ماديا جديدا يقف أمام طموحاته، كيف له أن يجمع العشرة آلاف درهم التي طلبها المهرب.

أمضت نورة يومها كله واقفة، فبعد تجهيز كويرات السردين وسائل عصير الطماطم والبصل وبعض الأرز المسلوق صباحا لزوم الوجبات السريعة التي تقدم في المقهى، قضت المساء تتراقص بين الموائد تلبي طلبات الزبائن، بين تلبية طلبات الحريرة وطالبي وجبات كرات السردين والأكلات السريعة ذات الأساس السرديني وبين صدّ طالبي النظرة واللمسة والابتسامة، تعود في المساء إلى البيت الغرفة لتجد والدها، التي لا تذكر آخر مرة رأته فيها، مستلق كجثة هامدة في الركن الذي تعوّدت أن تشغله، عرفت أنه مريض وأن مقامه سيطول عندهم، لم تعلق على

الأمر بشيء واكتفت بالتكوّم في ركن آخر طالبة النوم والراحة استعدادا ليوم جديد.

لم يغادر عبد البر البيت الذي احتضنه منذ التحاقه بالجماعة منذ وقت طويل، لا يزال في مرحلة التعلم والتفقه كما أخبره شيخه، لم يصبح مؤهلا بعد حتى للخروج وحده حتى لا تعصف به حياة الرذيلة والفجور مرة أخرى، ورغم انبهاره بشيوخه الذين يدرّسوه قواعد عقيدتهم وفقههم وشريعتهم، إلا أن التساؤلات زادت مع كل حرف جديد يتلقاه، العلم يجلب نهما للعلم، هذا ما قاله شيخه.

مرّ الوقت سريعا على الجميع وزاد الشوق إلى الابن الصغير الذي كان الوحيد الذي يملأ البيت الموات ببعض الحياة، واليوم مفاجأة كبيرة في الانتظار، لقد عاد رشيد، لم يجد في البيت إلا والده طريح الفراش، ظنه نائما، حاول إيقاظه دون جدوى، علم أن هناك أمرا على غير ما يرام، لكنه لم يتوجس لأمر الأب، فمشاعره تجاهه تعطلت منذ أن وعى الحياة، كان المنزل فارغا رغم أن الوقت مبكر، لكن الكل ينطلق للتنقيب عن لقمة العيش، غرف الجيران أيضا موصدة، تمنى أن يرى نوال الجارة التي لم يتذكرها في غيبته، لكنه أحس بشوق لها بمجرد أن وقعت عيناه على باب غرفتها، وضع حقائبه ووضع معها معاناة استمرت لأزيد من ستة أشهر كان يفتقد خلالها القوت أحيانا، فالأجرة متوقفة عنه ككل المعلمين في بداية مسارهم المهني، ولولا مساعدة مريمة التي كان يخجل أن يطلبها منها، والتي كانت تقدمها دون طلب وبإصرار كبير، لما استطاع أن يستمر لوقت أطول من شهرين، لقد تعلق بها في الفترة التي قضاها معها، رغم أنها كانت دائمة الغياب، كان جميع الأساتذة يعتبرونها تستغله، فقد كان يملأ فراغها في العمل أثناء غيابها، لكنه كان يقوم بذلك على أمل الرضى، أن ترضى عنه وعن المشاعر التي بدأت تنمو سريعا في تربة قلبه الخصبة، وقد كانت تبدو له راضية كل الرضى، فقد أصبح

بالنسبة لها بئر أسرارها، حكت له كيف تحولت حياتها من فتاة ساذجة سحقتها الظروف، حسب تعبيرها، إلى فتاة تسحق كل من يقف في طريق وصولها الى ما تريد من متاع الدنيا التي حرمت منه وأسرتها منذ نعومة أظفارها، حكت له كيف كانت تستغل ذكور المنطقة من أباطرة مزارعي الحشيش، كيف كونت ثروة لا بأس بها من ذلك، وحكت له عن مخططاتها بالمكوث لسنوات في منطقة كتامة حتى تروي عطشها من المال ثم تختفي عن الأنظار في لحظة واحدة دون أن تخلف أثرا للعيان أوالسامعين " كأني من المهاجرين الذي يسافرون الى أوربا لسنوات قليلة لتحقيق ثروة ثم يعودون" (كانت تردد مريمة دائما)

في يومه الأول وزع رشيد المبلغ الذي تحصّل عليه أجرة عن سنته الاولى في العمل، ستشتري والدته كشكا قرب سوق السمك لتطوير تجارتها من أكياس البلاستيك، هذا كان حلمها منذ مدة طويلة، وربما تضيف الى الأكياس أشياء أخرى ستفكر فيها مع الوقت، أعطى لإخوته بعضا من المال، وردّ أجزاء من ديونه المتراكمة منذ مغادرته، لكن الحاج بن شريفة رفض استرجاع دينه " لم يكن دينا لي عندك، إنه دين علي رددته يا بني" (قال الحاج لرشيد مشعرا إياه أنه أب حقيقي له)، لم يدرك رشيد معنى الدين الذي له عند الحاج، لكنه فهم أنه يرد دينا للزمن، للماضي الذي لا يعرف عنه الشيء الكثير.

في المساء فكر رشيد مرة أخرى في نوال، اعترته رغبة جامحة في السؤال عنها وعن غيابها، لكنه فوجئ بها تدخل الغرفة وتسلّم عليه، قبلتان في الخذين عادة التحية، لكنهما كانتا بالنسبة إليه أكبر من تحية، أصرّ عليها أن تبقى معهم حتى يُحْضر بعض الحلوى والمشروب احتفالا بعودته وبأجرته التي لم يبق منها شيء كثير، أقام حفلة صغيرة ظن الجميع أنها على شرفه واحتفاء بعودته، لكنها كانت بالنسبة له احتفاء بتكحيل عينيه بنوال، التي أنسته مؤقتا مريمة كما أنسته الأخيرة حنان التي لم تخطر على باله منذ غادر آسفي، يا لها من مشاعر كذاكرة

السمكة التي يقولون أنها تنسى كل شيء بمجرد تحريك رأسها الى جهة أخرى، وأنها لا تذكر إلا ما يقع عليه بصرها، أكل الجميع في البيت الغرفة الحلوى الرديئة التي لا يوجد غيرها في الحي ولا يعرف أغلب سكان غرف البيت إلا شكلها وطعمها، أكلت خدوج الجارة داعية الله التوفيق للشاب وأكلت والدة نوال وشكرت على غير عادتها، وأكلت والدته مغتبطة بعودة وليدها مظفرا، وأكل الأخ عزيز والأخت نورة فرحين بعودة فرد هام من الأسرة كانوا يعتبرونه ابنا أكثر منه أخا، وفجأة ووسط هرج الضحك ومرج الغبطة دخل الغرفة عبد البر، بدا مختلفا، أو بالاحرى لقد عاد الى هيئته الأولى، حالقا لحيته الكثة التي اكتنزها وسط جماعته، يبدو أن تساؤلاته قد قادته إلى الانفصال عن الجماعة.

أحضر رشيد للمنزل طبيبا للقيام بالواجب تجاه الوالد، دون أن يجد في نفسه رغبة كبيرة لفعل ذلك، لكن الحمولة الأخلاقية التي كان يحملها دفعته الى القيام بما يتوجب عليه أن يقوم به، الطبيب أخبره أن ايام الرجل في الدنيا أصبحت معدودة وأنهم سيضيعون المال في تطبيبه لا أقل ولا أكثر، وهذا ما كان، لم يمض وقت طويل حتى قضى الوالد نحبه، لم يستطع رشيد العودة الى مجموعته المدرسية القابعة وسط جبال الريف في قبيلة كتامة لتوقيع محضر الخروج، المحضر المشؤوم الذي يوقعه الأساتذة بعد مدة من انتهاء عملهم لابراء ذمتهم من المسؤولية تجاه القسم، لم يجد إلا مريمة ليتصل بها راجيا أن تقنع المدير بالتوقيع نيابة عنه، ولم يكن متاحا أن يتصل بغيرها، فهي الوحيدة التي تتوفر على هاتف محمول نادر الوجود بين المعلمين في ذلك الزمان، لم تعدم مريمة وسيلة اقناع بعد أن طمأنت رشيد وعزته وأشعرته بكلماتها الرقيقة أنه بين حضنها، ظنت أنه محتاج إليه، لم تكن تفهم طبيعة العلاقة التي تربط إبنا عاش يتيما حي الأب والأم، ووالد ليس له به علاقة إلا العلاقة البيولوجية.

بدأ رشيد يبحث عن منزل لينقل الأسرة المكونة من أربعة أفراد غيره ونزهة المفقودة، لم يعد يطيق الغرفة ولا الحي الذي ولد ونشأ بين قسوة ظروفه كجل ساكنيه، وجد بيتا بعد مشقة كبرى في حي الجريفات، استأجره بخمسمائة درهم للشهر، كان المبلغ يعادل خُمس أجرته الشهرية، سيتدبر أمر أجر المنزل على أن يتدبر بقية أفراد الأسرة متضافرين مصاريف المعيش اليومي، اشترى رشيد أيضا تلفازا جديدا ظلت الأسرة منتشية به لوقت طويل، في المساء وبينما يشاهد وأخوه سلسلة الرسوم المتحركة اليابانية المدبلجة " كونان المتحري الصغير" على القناة الأولى، اذا بالبث ينقطع وتذاع آيات بيّنات من الذكر الحكيم كما عُنْوِن على الشاشة قبل الشروع في التلاوة، لم يكن هذا وقت إذاعة القرآن المعتاد، خرج من الغرفة بينما أمه تنظف أطرافها من عفن الأسماك من عوالق بيعها وشرائها.

- الملك مات (يقول رشيد خالطا الجد بالهزل)

- اسكت الله امسخك علاه الملك كيموت (أمه صارخة في وجهه بكل صرامة)

- مالو ماشي بشر (يرد رشيد بجدية)

- الا مات ادخلو علينا بنهار (تقول الأم وقد بدت عليها علامات الامتعاض من كلام رشيد)

- الله يهديك يا امي مالو لا مات راه كاين ليجي في بلاصتو (رشيد بصوت قوي)

- غادي اديروك انتَ (الأم مستهزئة)

لم يمض إلا وقت يسير وتُؤكِد أن الملك الحسن الثاني قد توفى بالفعل، وكانت توقعات رشيد الساخرة صائبة بالفعل، خلت المدينة من الناس فأصبحت كأنها مدينة للأشباح، وأصبحت دكاكين البقالة تبيع الطحين والسكر والشاي كأنها تبيع المخدرات، بأبواب نصف مفتوحة ومراقبة متوجسة لكل الطرقات، فقد مُنعت الحركة والتجوال في كل المدن، ولم يعرف الناس هل حظر التجوال قرار رسمي أو مجرد اجتهاد شعبي، كانت جنازة الملك مهيبة بالفعل، لم يشعر رشيد بنفسه إلا

وهو يستسلم للبكاء رفقة أمه وأخته نورة أمام التلفاز، بدأ يغالب الدموع التي تسربت من مقائيه إلى وجنتيه، لم يكن أبدا يشعر بالود تجاه الراحل، لكن أجواء الجنائز دائما تعاود في قلبه نفس المشاعر، إلا في جنازة والده، على الشاشات وفي الواقع كانت مظاهر الحزن الحقيقية والمصطنعة تطفوا على سطح كل الأحداث، لقد تعطلت الحياة لوقت طويل حتى بعد أن نُصِّب ولي العهد محمد السادس عاهلا على المملكة.

نورة اختلت برشيد وأخبرته أن شابا قد أخبرها أنه يريد خطبتها، إنه زبون من رواد المقهى الذي تشتغل فيه، لكنها لم تعطه ردا شافيا، كانت تؤجل كل شيء حتى يعود رشيد، فهو وإن كان أصغرهم فهو أعلاهم مقاما وأعقلهم فؤادا، وقد زادت من تأجيلها مع وفاة الوالد، عرف رشيد أن الشاب بحّار، وأدرك أن لعنة السمك والبحر تطاردهم، وكم كان يخشى أن تدمرهم كما دمرت أمواجه حضارة تيغالين الاسطورية وتهدد المدينة الحالية وإن لم تتوفر فيها حضارة، أبدى موافقة وتشجيعا لهذا الزواج، كان يضمر مشاعر التخلص من فرد جديد في الأسرة يشكل عبئا على كاهله، خاصة أنه ينوي أن يفكر في مشروع زواج خاص به، وما يؤجله إلا لبعده عن المدينة التي ينوي العودة أليها في أقرب فرصة تتاح له.

غادر رشيد إذن حيه، لكن علاقته به لم تنقطع قط، لا زال يزور بشكل دائم الحاج بن شريفة وينهل من عطفه ومعرفته، يستمتع بمحادثة هولاكو وحكاياه المتلعثمة عن قططه ومحبوبته شطيطا، وعن وعيده لدوبيرا الذي أصبح يرافقها كثيرا في الشهور الأخيرة، يزور أيضا الهاشمي الذي لم يكن أحد يكنّ له مشاعر إيجابية، وكان شبه منقطع عن الحي باستثناء رشيد، كان يلاعبه "الضاما" ويحكي له عن حواديته عن النساء غالبا، من تريد رجوع محبوب ومن تود إحكام السيطرة على الزوج وأخرى تريد أن تحظى ابنتها بعريس ثري وغير هذا من أحلام النساء التي يعتاش عليها الهاشمي، لكن رشيد كان يحس بشيء غامض لدى الهاشمي، بشعور

نبيل مخبّأ وسط الدجل الذي يمارسه منذ سنوات في هذا الحي، كان يعزز هذا الشعور أن الحاج بن شريفة رغم علاقته الغير جيدة مع الهاشمي إلا أنه لم يطلب منه يوما الابتعاد عنه، صحيح أن الحاج يؤمن بالاختلاف، لكنه غالبا ما يحذر رشيد من نماذج بشرية لا يجوز حتى الاقتراب منها اتقاء لشرها.

قرر رشيد أن يترك رواية تيغالين في بيت الأسرة و ان يتوقف عن قراءتها، أحس أن لعنة تختبئ خلفها لمن لم يفلح في فك رموزها، كما أن انخراطه في الحياة لم يترك له رغبة في الأدب وأحلام الكتابة التي أجلها إلى أجل غير معلوم...

obeikandl.com

خلف الألم بقليل

قضت حنان سنتين كاملتين قبل أن تستوعب ما حدث لها في تلك الليلة المشؤومة، لقد ألقت الشرطة القبض على الشاب المغتصب، إنه ابن الرجل القروي نفسه الذي قدّم لها المنزل لتقطن فيه، لكن إلقاء القبض عليه لم يفدها في شيء، لقد توقفت عن العمل، كانت الصدمة في لحظتها أقوى من أن تستوعبها فتاة بمثل سنها وتجربتها، ورغم محاولات أمها وخالها وبعض الأقارب الضغط عليها حتى تعود الى مسار حياتها العملي والطبيعي، إلا أنها لم تستطع أن تعود إلى المكان الذي اغتال احلامها وبراءتها، أصبحت تقضي الوقت كله في المنزل، لم تعد تطيق حتى النزول الى الشارع، تحس أن الجميع ينظر إليها ويحكي فاجعتها.

نزهة استطاعت أن تنخرط في عالم جديد، لقد تعرفت على شاب من المغاربة المقيمين بالخارج، يدير جمعية للتكفل بالأطفال المتخلى عنهم وأبناء الأمهات العازبات، وقد أصبحت هي أيضا أمًّا عازبة، فقد أنتج اغتصابها طفلة وجدت لها منزلا وأسرة تعيش بينها، لقد عرض عليها الشاب أن تعمل معه، أجرٌ مغرٍ جدا، ستتكفل بتسيير بيت من ابنتها وثلاثة أطفال آخرين، لم يكن لها خيار آخر، هذا العمل أحسن بكثير من تنقلها بين الحانات والنوادي الليلية التي اشتغلت فيها خلال أشهر معدودة قبل انجابها، اكتشفت نزهة بعد مدة قليلة أن الجمعية تقوم بتربية الأطفال على الدين المسيحي، وأن عملها تبشيري بالأساس، فالأطفال لهم برنامج يجب أن تسهر على تطبيقه في المنزل، يمنع تعرفهم على أي ديانة أو أيديولوجية، بينما تتكلف المؤسسة الأمريكية التي تسهر على دراستهم ببناء كيانهم العقدي التثليثي، وما عساها تفعل، إنها أَمَةٌ للدولار المدفوع الآن، وليس عليها أن تدافع عن عقيدة لا تعرف عنها شيئا إلا أنها تنتمي إليها بالوراثة، ثم أليست هذه

الجمعية قانونية ولها ترخيص، فالإثم على من منحه لها، فهي جمعية معروفة يدعمها أكبر مسؤولي البلاد وليست جمعية سرية، كانت الجمعية تقوم بدورات تكوينية لنزهة ومثيلاتها، ولم يمر وقت طويل حتى أصبحت سيدة مجتمع تُحسن صياغة الجمل المنمّقة، تحسن أيضا التفاعل ضمن الاطارات الجمعوية النسوية الساعية الى المساواة بين الذكور والإناث من أمثالها وأمثال من يدعمها، في الوقت الذي لم يدافع عنها أحد حينما كانت نزهة المنتهكة من طرف والد سكير أو نزهة المغتصبة من طرف مجرم خسيس.

في الحي الهامشي أصبح دوبيرا يقضي جل وقته في بيت شطيطا، لقد أصبحت خليلته الدائمة وشريكة تجارته في المعجون المخدر، لقد توقفت عن ممارسة الدعارة وسلمت نفسها لرجل كدوبيرا، أيّ رجل والسلام، فلم تعد تطيق حِمل المهنة المختلط روادها، ثم إلى متى ستحافظ على نضارتها وبهائها لإستقطاب الزبائن، العمر يجري كلمح العيون وتوصد باب إثارتها السنون، ولها شاب تزداد مصاريفه كل يوم... في إحدى الليالي الممطرة اختلى بها دوبيرا، وهو زوجها ليلتئذ، ليقضي ليلة من لياليه الحمراء بعد أن حُرم من المثليين الذين اعتاد أن يشبع غرائزه بهم، فإذا بشبح رجل يدخل عليه فيرديه طعنا، لقد تبينت شطيطا خيال الرجل، وبدا لها كأنه هولاكو ينفّذ وعده لها بتخليصها من منافسه اللذوذ عليها، لكن خوفها ورعبها وسط الدماء لم يترك لها مجالا لتتبيّن شكوكها، وقُيّدت القضية ضد مجهول بعد تحقيق سريع جدا، وكأن الشرطة نفسها تخلصت من شخص دماؤه رخيصة ومستباحة لا يستحق أن يُبدل مجهود مضن لإيجاد مريقها.

رشيد بعيدا بمئات الكيلومترات عن أمه التي خلفها وراءه وقد بدأ البيت يخلو عليها بعد أن تزوجت نورة زواجا فاشلا، لقد توقف زوجها عن العمل واضطرت للعمل من أجل أن تعيل نفسها ورضيعها، ولم تكن تتجرأ على العودة الى بيت الأسرة الذي لا يتحمّل ثقلها، خاصة بعد أن أحست أنها غير مرغوب فيها،

أحست ذلك في كل زيارة لها للمنزل من رشيد الذي لم يكن يتقبل شكواها، وكانت تسمع في نصائحه لها بالصبر أن قد زوجناك ليخف حِمل واحدةٍ فلا تثقلينا بحمل مضاعف، لقد قرر رشيد أن يتزوج مريمة رغم كل ما يعرفه عنها، مما حكته له ومما سمعه من زملائه في العمل، لقد قرر أن يغفر وينسى لها من أجل حبه، لكن أحلامه اصطدمت بالرفض من مريمة بعد أن فاتحها في الموضوع، أخبرته أنها قد تعطيه ما يرغبه كل رجل من امرأة لكن دون زواج، هي تريد حياة مريحة بعد مغامراتها الجنونية مع أباطرة المخدرات في كتامة ولا تريد أن يقف زواج في طريقها...

خلا البيت على امي عايشة الشيظمية من عزيز أيضا، الحامل للجزء الأكبر من عبء البيت والعمل، لقد غادر البلاد إلى حيث لا تعلم، أخبرها رفقاؤه أنه هاجر الى بلد آسيوي في سفينة اختبأ في دواليبها ظنا منه أنها سفينة أمريكية، لقد خدعته قلة معرفته بالأعلام وتشابه علمي البلدين، ففي ليلة في بداية الصيف وبينما المدينة منشغلة على وقع مهرجان غنائي صاخب على أنغام العيطة المرساوية، استغل عزيز وعدد من رفقاءِ حرفتِه الغياب الأمني عن الميناء وتسلقوا حبال الارساء للسفينة وكمنوا في قوارب النجاة انتظارا للمغادرة الى الحلم الأمريكي، ولم يكن في حساباتهم أن حلمهم سيتحول الى كابوس في أدغال شرق آسيا.

خلا البيت على امي عايشة أيضا من عبد البر، فلم يمض وقت طويل على انفصاله عن جماعته الأولى حتى قرر الانضمام الى جماعة جديدة متابعة أمنيا، وقد سجن في جلسة دعوية تقوم بها الجماعة بعد أن ضبط رفقة شبان في مثل سنه، لفقوا له تهمة كما يقول وحكموا عليه بسنة حبسا نافذا، لم يكن مستهدفا فجل أفراد الجماعة يحظون بحُرية نسبية، لقد كان في الجلسة من يؤرق بال النظام، أو المخزن كما يصفه المغاربة توارثا منذ أجيال، زاد جراء ذلك كاهل امي

عايشة الشيظمية بالقفة الأسبوعية التي تحولت شهرية بعد ثلاثة أشهر من توقيفه، كانت تقتطع من قوتها لتنفق على مصاريف قفته، خاصة بعد أن بارت تجارتها بعد أن غَيّر سوق السمك مكانه وابتعد عن كشكها، ولم تعد صحتها تسعفها لتبيع الأكياس البلاستيكية متسابقة مع الباعة الصغاروالشبان.

لم يُفتقد دوبيرا في الحي، إلا من شطيطا التي عادت لمهنة الدعارة مرة أخرى، لم تكد تنتهي منها حتى أجبرت على العودة إليها مرغمة، نعم مرغمة كما كانت دائما، لم تجد بديلا تعتاش عليه وطفلها منذ أن اقترفت خطيئة عمرها، لقد أحبت شابا ما كان يريد منها إلا شهوة عابرة، حملت منه فقضت فارة من بيت أسرتها خشية العاروالفضيحة، افتقد سونيتا أيضا دوبيرا فهو الوحيد الذي كان يعطف عليه منذ أن أصيب بفشل كلوي أقعده عن العمل، حتى أسرته لم يرقّ قلب أفرادها عن إنهاء مقاطعتهم له بعدما ألمّ به من مصاب جلل، خارت قواه بعد أن كان عَلَمًا في بأس البدن " أستحق هذه النهاية، لقد كنت أسير عكس طبيعة البشر، لم أرض أن أكون ذكرا ولم أستطع أن أتحول إلى أنثى، ظللت كعابر سبيل انقطعت به السبل على الحدود بين بلدين، لا إلى هذا ولا إلى ذاك، كنت دائما منبوذا، كان الجميع يحتقرني، كنت أتعامى عن نظرات الناس واتجنبها أخادع نفسي، لكنني اليوم وصلت الى النهاية الحتمية، لقد اصبحت كالأجرب الذي يُلقى به بعيدا خشية العدوى، أقنعت نفسي سابقا أن ليس لي ذنب وأنني خلقت هكذا بجسد ذكر ورغبة انثى وأن هذا قدري، لكنني لم أتحرك قيد أنملة لأتحرى قدري، هل هو القدر الذي جاء من السماء أم القضاء الذي كسبته بما اقترفته يداي" (كان هذا كلام سونيتا كلما زاره طائف من أهل الحي)، أصبح سونيتا الآن يعيش على لقيمات يوفرها له الحاج بن شريفة الذي لم تجمعهما وقفة ولا كلمات خلال حياته قبل المرض، وكان سونيتا ينظر إليه أنه رجل من المُتقين يحتقر شخصا مثله شاذ عن الطبيعة الانسانية، وإذا كانت الوقفات ونصف الجلسات قد جمعت

الحاج وسونيتا بعد المرض فلم تجمعهما الكلمات بعد، اللهم عبارات السلام والتحية والشكر والعفو المتبادلة.

وجد عزيز نفسه منذ مدة في بلد افريقي لم يميز له إسما، فرحلة السفينة التي امتطاها آملا في حياة أفضل لم توصله الى الحلم الأمريكي كما كان يظن، ولا إلى الكابوس الآسيوي كما ظن من خلّفهم في بلده، توقفت في ميناء دولة افريقية ولم تغادره، مما اظطره ورفقاءه الثلاثة أن يظهروا للعيان تحت وطأة الجوع والعطش بعدما أنهوا زادهم الذي انطلقوا به، يعيش في الميناء على الفتات الذي تجود به قوارب الصيد البحري، بينما قرر رفقاؤه الانطلاق بحثا عن حل، ولم يحبذوا انتظار فرصة أخرى للبحث عن سفينة جديدة وحلم جديد، لم تعره سلطات الدولة أي اهتمام، تمنعه فقط من ركوب السفن الكبيرة، كما أن سكان البلد يتعاملون معه بإنسانية فائقة، فالفقير يحس بالفقير على ما يبدو.

obeikandl.com

عود إلى بدء

٥ ماي ٢٠٠٣ جاءت مريمة بعد غيبة من غيباتها الطويلة، رشيد تخنقه رائحة نبتة الحشيش التي تنشر عبقها في المكان، النبتة التي يعيش على كوارثها مئات المزارعين، ويغتني منها مئات المرفهين من ساكني أحياءالمدن الراقية، مريمة جاءت بخبر جديد، جمالها الذي لطالما جعل أفئدة من الذكور تهوي إليها أوقع هذه المرة في قبضتها رأسا كبيرا من رؤوس كتامة "سيُحققُ لي كل ما أريد، لقد اشترى لي بيتا كبيرا في الدار البيضاء لم أحلم يوما أني قد أمتلك مثله، في طابقه السفلي مشروع أرباحه آلاف الدراهم شهريا سيؤمّن لي حياة مستقرة، وبمعارفه سأحصل على انتقال ألى قلب المدينة، وقد أغادر القسم والتدريس لأعمل في مكتبة أو إدارة تابعة للوزارة، مقابل هذا لن أقدم الكثير، يوم أو يومان في الشهر حينما سيأتي لقضاء أغراضه في العاصمة الاقتصادية، علي أن أتحمله خلالهما، آه.. أخيرا سأرمي شقاء السنين خلف ظهري، سأعوّض أيام الحرمان، حتى أسرتي حققت لها ما يكفل حياة كريمة من سابق ما جنيته، انتهت المعاناة..." (تقول مريمة والفرحة تغمرها تلمع عينيها بريق الانتصار).

ما يقرب من أربع سنوات قضاهم رشيد في كتامة، بلاد أغرب من الخيال، لم تكن أبدا كما وصفها رحالة الحي سحيتة في حكاياه الأسطورية، لا سلاح ولا قوة تخيف السلطات ولا حياة فوق القانون ولا ترف، غالبية مهمشة تعيش ضنك العيش، يرتعدون من الدرك مرة ومن حراس الغابة مرات ومرات، مداخيل الحشيش يستفيد منها أباطرة من أحجام مختلفة، بينما تعيش الغالبية حياة إقطاعية من مخلفات أزمنة بعيدة، لم يعرف لها رشيد مثيلا إلا في قراءاته لروايات وجدها عند الحاج بن شريفة، روايات لجاك ويلتون وروبنسون كروزو وغيرهم،

حرصٌ على الشعائر والمعالم والطقوس الدينية يقابله سفاح وتدني خلقي، عالم من المتناقضات، أما النساء فأكثر مخلوق يظلم على هذه الأرض، فبينما غالبية الذكور يقضون الأوقات في الظل يتمازحون وفي المقاهي يلهون تجد نساءهم تقضي سنتهن بين أشغال البيت التي لا تنتهي وتقطيع الحطب بعد جلبه من الغابات وتمهيد الأرض لبذر حبوب نبتة الحشيش فتسميدها ثم تخليصها من النباتات الضارة وقلع المحاصيل، وتضطر بعض النساء اللواتي تعانين خصاصا أسريا من الذكور الى استخلاص مشتقات نبتة الحشيش، أما الأطفال فلهم دخل في هذه البلاد يغنيهم عن الاهتمام بالدراسة والتحفز لها، فقيه القرية نفسه يناله نصيبه من النبتة ومن خطباء الجمعة من يعتبر من كبار تجار الحشيش في المنطقة...

أتيحت فرصة الانتقال لرشيد بعد أن قضى سنتين من العمل لكنه تَفحّشَ في طلباته طمعا في البقاء مع مريمة وجلبا لرضاها، لكن بعد الذي قالته اليوم قطعت حبل الأمل نهائيا، وقرّر أن يمدّ بدلا عنه حبل الإنتقال، أرسل مطبوع الانتقال إلى المدير، بعد مريمة لم يعد له بقاء في هذه الأرض الظالم أهلها، لقد قرر أن يعود إلى مدينته، ربما يفتح صفحة جديدة في حياته، لقد اكتفى من الانتظار، انتظار تلبية رغبة الحب الجارف الذي اجتاح قلبه بأمر من طلّة مريمة ولم يخلف وراءه إلا الدمار.

- ما رأيك أن تعجل رحلتك وترافقني إلى البيضاء، أريد أن يكون وداعنا مميزا (تقول مريمة بتودد وتغنج لرشيد)

- (رشيد يبتسم من غير سعادة ويجيب) وهل هناك وداع مميز؟ ! الوداع دائما هو الوداع، حرقة وألم، الجذع بعد فصله عن الشجرة يموت، أو يصبح قطعة أثاث جامدة لا حياة فيها وإن بدا مظهره جذابا وجميلا..

- رافقني وسترى (مريمة مرفِقة إجابتها بغمزة مثيرة)

- متى تنوين المغادرة؟

- نغادر إن شئت غدا أوبعد غد؟ (تقول مريمة مازجة الحسم بالسؤال)

- هوكذلك (يومئ رشيد بهدوء)

رغم أن علاقة رشيد بمريمة تطورت سريعا من إعجاب الى حب من طرف واحد، وربما من طرفين، إلا أنه لم يدخل معها في علاقة جنسية قط، لم تعرض نفسها عليه بشكل مباشر يوما، لكنها كانت تبدي أنه إذا تغشّاها ستقابله بالقبول والود، وما غشيه من يمّ هيامها كان يكفيه أن لا يهمّ بها ولا أن تهم به، كان يريد شيئا أكبر من جسد ربما سبقه إليه كثيرون غيره، كان يطمح لسبقٍ لم يحظ به الكم الهائل من الذكور الذين جمعت بينهم وبين مريمة علاقة...

تقطع سيارة الأجرة المسافة من كتامة إلى فاس بسرعة بين الفجاج المطلة على الحواف العالية المترامية بين جبال الريف، وداخلها وعلى مقربة من السائق يلتصق جسداهما كأنه كيان واحد، السعادة بادية على محيا مريمة، بينما لم يُشبِع رشيدا إحساس عابر بعده المجهول، كان الكل يراهما رجلا وامرأته، بينما كان رشيد يرى نفسه تتضاءل لتضيق على روحه، أكلا معا وترافقا في رحلة تمنى رشيد لو أن الزمن توقف به معها ولم يتقدم إلى المستقبل قط، بعد سيارة الأجرة استقلا القطار نحو الدار البيضاء، وخلال الرحلة أقنعته مريمة أن يمضي معها بعض الوقت، يوم أويومان، لكنه اقتنع بعد أن اشترط عليها قضاءه معها في فندق وليس في بيتها الذي ستكون فيه بعده في حضن رجل آخر، يومان نوى خصوصا أن يشبع فيه لذته الجنسية المكبوتة منذ عهد بعيد، كأنه يريد أن ينتقم من نفسه ومن المبادئ التي حملها ولم تنصفه... ما إن وصلت الحافلة حتى تَرْجَم رشيد نواياه إلى أفعال، تملص من مريمة واغتنم تواجدها في مرحاض محطة أولاد زيان بالبيضاء وقصد صيدلية قريبة اقتنى منها واقيات جنسية، لقد فكر في الأمر كأنه معتاد على ذلك، هو نفسه لم يعرف كيف فكر في أمر الواقيات التي لم تلمسها يداه من قبل،

انطلقا بعد ذلك إلى فندق حجزا فيه غرفتين مستقلتين متواعدين أن يجتمعا في إحداهما ليلا وفي كل فرصة سانحة.

قصدت نجاة بيت أختها امي عايشة، تريد أن تأخذها معها الى البيت الذي تشتغل فيه، فالأجانب يقيمون حفلة كبيرة والحسين الشلح طلب منها أن تحضر معها من يساعدها في تحضير المأكولات، وبما أنها تعرف مهارة أختها فقد بدأت تقصدها كلما احتاجتها في ذلك، ولم تكن امي عايشة ترد لها الطلب فهي بدورها أصبحت محتاجة لدخل إضافي، الكشك لم يعد يغطي مصارفها رفقة عبد البر الذي يشتغل معها منذ خروجه من السجن، إضافة إلى المصاريف الإضافية التي تنفقها على نورة مساعدة لها بعد أن زاد حملها وضاق الحال بها، لم ترد امي عايشة أن تخبر رشيد بحاجتها، كانت كلما اتصلت به في هاتفه المحمول تخبره أنها بخير وأن المال الذي تركه لها يقضي معظم احتياجاتها وأن مدخول الكشك يسد الباقي، تريده أن يهتم بنفسه، أن يؤسس أسرة وأن لا تشكل عائقا في طريق أحلامه التي كانت تسمعها من فمه منذ نعومة أظفاره والتي لم يحقق منها شيئا يذكر " الدار لي بلا ساس مايمكنش تبني فوقها " كانت تردد امي عايشة الشيظمية دائما كلما جمعها حديث حول رشيد وحاله...

- راه الناس بداو اجو طلقو روسكم (تقول نجاة لامي عايشة القابعة في المطبخ النار تأكل عجزها رفقة شابة أخرى استعانت بها نجاة لمساعدتها)

- كلشي واجد، تجي تحطي ولا تخلي تا يتجمعو باش ابقى سخون (تطمئن امي عايشة أختها المرتبكة)

أعدّت المرأتان كل شيء وبدأت نجاة تقدم للضيوف الطعام، لكنها تسمرت قدّام سيدة ولم تحرك ساكنا إلا بعد أن نبهها الحسين الشلح الحاضر بين الضيوف، أكملت تقديمها ولم تلاحظ أن السيدة التي أثارت انتباهها أصبحت

تتجنب النظر في وجهها، سارعت نجاة إلى امي عايشة في المطبخ تولول متحدثة بسرعة لم تفهم منها امي عايشة شيئا.

- نزهة وا نزهة..وقيلا هي .. والله تاهي يا عايشة (تقول نجاة بارتباك وتوتر)

لم تتبيّن امي عايشة من الكلام غير اسم نزهة الذي استوقفها وجعل قلبها يرج رجا أرجاء صدرها، هدأتها وفهمت منها أنها رأت سيدة تشبه إلى حد كبير نزهة، لم تتمالك امي عايشة نفسها إلا وهي تبحث بين الضيوف عن فلذة كبدها، محّصت الوجوه بعينيها جيدا وشمت الروائح بأنفها مليا لكن لا وجود لفقيدتها، نجاة تهلوس لا غير...

" لماذا فررت من خالتي؟ لماذا قطعت أصلا اتصالي بأمي؟ بإخوتي، لم يكن لأحدهم ذنب فيما جرى، والدي فقط الملام في كل ما حدث لي ولنا جميعا منذ أن سوّدنا أعيننا بهذه الدنيا، لكنني لم أر من أمي غير الحنان والتضحية، حنانا لم تبده ظاهرا لكنه كان باديا بشكل آلي في تصرفاتها في تحملها المشاق من أجل لقمة عيشنا من أجل استمرارنا في المدارس التي انقطعنا عنها جميعا بكامل إرادتنا وليس من وطأة الفقر والجوع الذي كان يرافق حياتنا، لماذا لم أربط الاتصال بهم بعد أن تغيرت حياتي للأحسن وأصبحت سيدة مجتمع الآن؟... هل أكذب على نفسي؟ عن أي سيدة مجتمع وحياة جديدة أتحدث، حياة رذيلة مقنعة، رفضت الدعارة بنفسي وأنا اليوم أمارسها بجيل وربما بأجيال، لن أربط اتصالا نجسا بين سيدة تضحي من أجل ابنائها وبقايا انسان أصبح سيدة مجتمع تضحي بأبناء وطنها..." (تقول نزهة لنفسها وهي تسوق سيارتها شاردة الذهن دامعة العينين)

استلقى رشيد على سريره بينما قصدت مريمة غرفتها، قررا أن يشبعا رغبة النوم قبل تصفية الحسابات التاريخية، استغرقت مريمة في نوم عميق طلبا للراحة بعد رحلة متعبة بينما لم يداعب النوم عيني رشيد، لم يسبق له أن خاض تجربة تشارك السرير والجسد مع امرأة، عادت المنظومة الأخلاقية والطابوهاتية

المتوارثة تلقي بظلالها على تفكيره، بدت أمامه خطايا البشر كلها، لكنه هذه المرة قرر أن يحملها ويسعد بثقلها، لعل الثقل كان محمولا منذ الأزل لكن دون أن يقترف خِطْأً ولا لَمَما، كان يحمله عدوانا وتوارثا، على الأقل سيحمله في المستقبل وهو متورط وله نصيب من رزئه... سمع رشيد طرقا على الباب، وقبله سمع طرق النوم على باب جفنيه، لكنه استجاب لطرق الباب وتخلف عن طرق الجفون، فتح الباب فإذا بمريمة في صورة لم يسبق له أن رآها عليها، شعر مسدل على الكتفين موج هادر وعينان ترمي رموشها بموج كالشرر يسقط من أصابته في أحبال جحيم حيها، ألوان وأحلام ورغبات غير مشبعة رسمت على وجهها، كأنها تضع قناعا لتخفي ملامح الفتاة التاريخية التي تختبئ داخلها على استحياء، رأى الجمال لكنه ليس ذلك الذي كان يراه فيها قبل الآن، لكنه جمال يفي بالغرض، سيشبع رغبة الجسد ومن قبل ما أشبع جمالها الذي رآه آنفا حلم القلب والروح.

اكتشف رشيد وهو يرى مريمة المزخرفة تفاصيل وجهها بالألوان والمقنع جسدها بالألبسة، أنه يحب مريمة التي كانت قبل سنوات وليست التي التقى بها في كتامة، يحب مريمة التي رافقت والدها الى تارودانت قبل أن تُسقَط براءتها، مريمة التي سمع قصتها من الفتاة الماثلة أمامه بزخرفها وقد تزينت وتبهرجت، مريمة المسجونة في الداخل والممنوعة من الخروج والظهور للعيان، لكنه بحسه رآها، بل وأحبها... كما أحب حنان من قبل..كما أحب آسفي منذ الأزل، فالإنسان لا يحب مرتين، إنه يحب مرة واحدة فقط، فمهما تعددت تجليات المحبوب في أجساد وأمكنة وروائح وأجواء متعددة فهو واحد، وسيظل واحدا، إننا لا نرى حينما نحب شيئا جديدا الشيء عينه، بل نرى تمثلا وتجليا للمحبوب الأول، وحب رشيد الأزلي هي آسفي، تمثلت في أمه وجدته ينّا، في نوال وحنان وفتاة القطار ومريمة، وفي البحر ورائحة الليمون ولون الخضرة، وستتمثل في أي حب قادم...

- سنقوم بجولة في المدينة ونتناول العشاء ثم نعود (مريمة كأنها تلقي أوامر إلزامية لا فصال حولها)

- ادخلي حتى أهيئ نفسي (يرد رشيد بتثاقل يعكس تردده الداخلي وسلطة النوم والانهاك على الجسد)

- هيئ نفسك بينما أقوم ببعض الإجراءات في استقبال الفندق، سأنتظرك في الأسفل (تقول مريمة وتغادر)

لم يقفل رشيد الباب إلى أن اختفت مريمة عن ناظريه، لقد ذهبت حتى تقنع موظف الاستقبال بتشارك الغرفة مع رفيقها، غسل وجهه ونزع عنه لباسه ووقف عاريا ينظر لنفسه في المرآة، لم يرتغيرا فيه حتى يقدِم على ما يريد الاقدام عليه، لم يرسببا غير الانتقام من كل شيء يدعوه إلى اقتراف خطإ تارخي يتعدى فض عذريته الذكورية الى فض شخصية ظل يكوّنها لسنوات وحماها من تيارات الانحراف التي باغتته منذ أول وهلة خرج فيها الى الحي، حماها من الجهل الذي كان يلف ببراثنه كل تفاصيل حياته، لقد عاش محاربا خط الزمن على أطراف روحه كل أنواع الجراح وبقايا الآلام الأزلية، أيعقل أن ينهار كل هذا في لحظة شهوة عابرة ستقتل الاحساس الجميل الذي حمله لفتاة طيلة السنوات الماضية " لا تخدع نفسك أنت لم تكن تحبها، لقد تملكك سحر جسد لم تر مثله من قبل، تملكتك جاذبية الاقتراب من انثى لم يتح لك الاقتراب من غيرها، كان يمكن أن تحس بنفس الاحساس تجاه أي فتاة غيرها، الفرق أن الجموح الذي انتاب حبك لها هو قرب المسافة التي فصلت بينكما، لقد كنت كالعطشان الذي بإمكان ماء آسن ملوث أن يغريه، فما بالك بماء عذب فرات وإن خالطه بعد العلق، أم تراك نسيت حنان؟!" (يقول الصوت النابع من داخل رشيد، صوت لا يكاد يسمع إلا صداه، كأنه ينبع من بئر عميق، لم يسبق لهذا الصوت أن تحدّث لرشيد، كانت هذه المرة الأولى وقد بدا

صعقا من وقعه، خاصة حينما سمع إسم حنان، كيف يعقل أن ينساها خلال هذه المدة الطويلة ؟! أين الحب الجامح الذي انتابه تجاهها ؟!).

لم يكد رشيد يستفق من وقع الصعق الذي أصابه جراء الصوت الهادر في أعماقه حتى صعق مرة أخرى من وقع دوي صوت هادر صادر من مكان قريب، رافقته هزة رجت الأرض تحت قدميه رجا، سمع صراخا وصياحا، خرج من الغرفة مُدبِرا ولم ينتبه إلى أنه لا يرتدي غير تبانه، نزل متراطما مع أجساد أخرى على الدرج الرابط بين جناح الغرفة وباحة الاستقبال، يبدو أن الجميع يفر إلى الخارج، ربما زلزال قد يدك الفندق ومن عليه، لم يتوقف الجَمْع إلا بعد أن اضطرتهم أمواج الدخان والأتربة القادمة من مدخل الفندق، يبدو أنه إنفجار" قنينة غاز" هذا ما تبادر إلى ذهن رشيد...

مرت مدة لم يتبين الجميع مقدارها إلى أن جاءت سيارات الوقاية المدنية ورجال الإطفاء وسرعان ما أطفؤوا النار التي شبت في بعض الأمكنة من مدخل الفندق وأزالوا أكوام التراب الذي منع الجميع بعد أكوام الخوف المتراكمة على قلوبهم من الخروج، بدأت سيارات الاسعاف تنقل المصابين والقتلى، وطوقت سيارات الشرطة المكان ولم تسمح لأحد بالمغادرة إلا بعد إلتقاط صور له، لم تسمح بذلك حتى للحالات المستعجلة، لم يصب رشيد بشيء عدا الخوف وبعض الخدوش من جراء التدافع الكبير الذي حصل، لكن مصابه في مريمة كان كبيرا، لقد رأى أشلاءها رأْي العين فانفطر قلبه وضم جزءا من جسدها يبكي بحرقة بالغة على فقدانها، أو ربما يبكي على نفسه أكثر، لقد اتضح أنه لا يحب إلا نفسه، يبكي غمّا عليها وفي نفسه فرحة أخفاها داخله، لم يقترف الخطأ الذي سيجرده تاريخه، لقد رضي بالتضحية بمن ادعى الحب والوله بها من أجله، من أجل عذريته...

بعد أن قدمت له الممرضة، التي بدت في عينيه مشروع حب ممكن لو أسعفه الزمن، الاسعافات الأولية وطببت جروحه السطحية، بالمراهم والمحلول الأحمر

الشهير، وبعضا من جروحه الداخلية بابتسامتها وطلتها البهية، أقلت سيارة الشرطة رشيد لدائرة أمنية للتحقيق معه حول الحادث، رهبة أخرى اجتاحته وهو يتوسط شرطيا كأنه من زبانية النار وشخصا آخر تعرّف عليه بعد مدة من ترافقهما في السيارة دون حديث، لقد كان في الغرفة المقابلة لغرفة مريمة في الفندق الذي حدث فيه الانفجار، وكان أول من وقعت عليه عيناه بعد أن خرج من الغرفة تحت صوت التفجير، تذكر رشيد وهو في سيارة الشرطة أول اعتقال له، هناك في الحسيمة في أول ليلة قضاها في تلك المدينة، تخلص من تلك المشكلة بعد أن قدم للشرطة شهادة تخرجه من مركز تكوين أساتذة التعليم الابتدائي، فقد كان سبب اعتقاله شبهة الهجرة السرية، وعنوانه المبين في بطاقة التعريف خاصته والتي أدلى بها لصاحب الفندق لا يجعل سببا لقدومه للمدينة البعيدة عن سكناه المهمش إلا الهجرة، وخاصة أن الفندق الرخيص الذي اختاره لا يلجه غير طالبي هذا النوع من الهجرة والذين يأتون بالمئات إلى شمال المغرب طلبا للحلم الأوربي وتخلصا من الكابوس المغربي، وصلت السيارة إلى الدائرة الأمنية وبدأ التحقيق مع رشيد، اكتشف أن حادث الفندق كان تفجيرا انتحاريا، سألوه عن سبب تواجده في المدينة ومشاهداته وهو في الفندق، أخبرهم بكل التفاصيل التي يعرفها، لم يستطع انكار شيء حول علاقته بمريمة وما كان يرميان إليه، لم يكن له مصلحة في ذلك وهذا ليس موضع الحياء من نية جرم لا يلقى له بال في مثل هذه القضايا، بدا التحقيق رغم رهبته عاديا فلا شبهة حوله، معلّم في أقاصي الأرض حياته لا أسرار فيها ونية ارتكاب جريمة يعاقب عليها القانون المكتوب وتبرئ من تهم الإرهاب والتشدد، هذا لم يكن إلا ما يدور في ذهن رشيد إلا أن مفاجأته كانت كبيرة وهو يتلقى كمّا هائلا من الأسئلة حول أخيه عبد البر، بقي في الدائرة عشرة أيام جحيما، كل الأسئلة حول عبد البر وتاريخه مع الجماعات الإسلامية، لم يتلق رشيد ضربا

وحمد الله على الإهانات والشتائم التي كان يسمعها فهي لا تساوي معشار ما كان يسمعه من أصوات تعذيب في غرف التحقيق الأخرى.

قضى رشيد أياما سوداء ملؤها الحزن والخواء، البيت مفجوع بعد اعتقال عبد البر، أقسم لأمه أن لا علاقة له بالتفجيرات وبمنفذيها، كان يبدو صادقا، لكن عمى الاعتقالات الذي طال العديد من شباب الجماعات الإسلامية لم يكن يهمه غير طي الملف، وصلت الإعتقالات حتى الجماعات المسالمة والتي ليس لها سبيل إلى العمل المسلح، ومنها الجماعة التي كان ينتمي إليها عبد البر، كانت جماعة صوفية شذّت عن موالاة مثيلاتها للسلطة، بدا رشيد معتقلا بدوره وسط سقطاته وما فقد خلال الأيام الماضية، لم تكن مريمة فقيدته الوحيدة، لقد فقد أجزاء كثيرة منه، كانت قصيدة مانع العتيبة كما حفظها من أغنية كاظم الساهر تتردد في خلده كلما تذكر مريمة

(تناديك روحي..

ونزف جروحي..

وقرع فؤادي، على باب صدري

..فلا تتجاهل،

ندائي حبيبي..

فإنك تعلم ما بي وتدري)...

لم يخرج رشيد من حالة العمى الذي سيطر على حياته إلا بعد أن جاءه خبر انتقاله إلى ضواحي مدينة آسفي " أخيرا سأعانقك، آسفي .. مدينة الظلال، في الليل تأكل كالقطة الأصيلة أبناءها خوفا وحبا، كالعناكب تسلم نفسها لآخرين يقتاتون على جسدها كي يعيشوا ويكبروا ويلهم الأمل، وصباحا تبحث عن قوّاد كي يقدمها فريسة على فراش الغرباء... آسفي حاضرة المحيط، ليس بها حضارة إلا تلك التي يتنفسها أصيل أبنائها بين دروب الزمن، فيجودون علينا بنسمات الذكرى

لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، نسمات فواحة جاد بها رجال أوفياء من الفقيه الكانوني إلى ابراهيم كريدية... ليس بها شواطئ، غير تلك التي تسرق رمالها في واضحة النهار، ليس فيها بحر غير ذلك الذي تلوثه مركبات الفوسفات بمخلفاتها، ليس فيها سمك غير ذلك الذي تختطفه السفن الأجنبية وسماسرة التهريب القانوني قبل أن يصل الى جوع أبنائها.. .آسفي مدينة العيطة المرساوية ومواويل خربوشة، لعنة الشيخة خربوشة، التي جعلت من الموسيقى في العالم عنوان فرح وفي عرصاتها عنوان فجع وآهات... آسفي مدينة الخزف، الذي يعطي للعالم تحفا فنية ولا ينال حرفيوه غير لهيب الأفران المتقدة، آسفي التي يصحو سكان مدينتها القديمة المحتشمة خلف السور البرتغالي بين الفترة والأخرى على وقع انهيار بيت لم يترك فرصة لسكانه لإخلائه، ليدكّ ماحيا تاريخهم وذاكرتهم، الفراش المتهالك الذي تفوح منه رائحة الرطوبة الممتزجة بملح البحر، الصور القليلة التي تمتلكها الأسرة، الملابس التي أعدتها الفتاة المراهقة استعدادا لعريس قد يطرق الباب، معاناة الأم انتظارا لزوجها من رحلة البحر، والذي قد لا يعود، كتب الأبناء التي كونت وعيهم، رسائل الأهل والأحباب القابعة في علبة حلوى معدنية فاخرة لم يسبق لهم أن طعموا أو رأوا قطعها، رائحة الخبز الذي يتعفن سريعا لرطوبة المكان، عبق نبتة الحبق (الريحان) التي تزرعها الأم وتقدم بذورها لكل من يطلبها... يُدكّ البيت مخلفا ضحايا بعضهم قابع تحت الردم والبعض الآخر ينتظره ردم المستقبل الحالك، آسفي... أربعة حروف وملايين الأوجاع، ألفها استبدلت الأُلفة افلاتا وتفلتا، سينها استبدلت السناء سكونا وسكّينا غائرا في الجراح متغوِّلا على الجسد، فاؤها فراغ لا نهائي ينخر الأرواح والأحياء والنفوس فيحولها إلى غيران لا تصلح إلا سكنا للوطاويط من مصاصي دماء البشر... ياؤها حرف علة سكنت في النفوس رفضت أن تغادر... تمنيت أن لي ألبوم صور يوثق لقاءاتنا الغرامية، حينما احتضنني بحرك وتعملقت لأشافه شمسك، حينما

تمرغت في تضاريسك وقبلت منحدراتك، حينما استلقيت بين رمالك أمتص حليب الدفء وأريج الموج منتشيا بالرذاذ ومذاق الملح العذب الأجاج، بين دروبك وازقتك وأسوارك وبائعات الخبز وصناع الخزف ومنظفي الأسماك.... لم أمتلك صورا للقاءاتنا فليس التقاط الصور من عاداتنا ولا ضمن حدود إمكانياتنا، كما أنني ما كنت لأسمح لعدسة أن توثق لقاءاتنا الحميمية، فأنا رجل شرقي أجمل عيوبي الغيرة على أهله، وأنت أهلي..."

obeikandl.com

حوار متطرف

فاتح أبريل ٢٠٠٤، انطلقتُ صباحا لإجراء حوار مع السيد بن شريفة، أحد ضحايا سنوات الرصاص الذي يقال أنه لا يزال تحت الإقامة الجبرية في مدينة آسفي ولا يسمح له بمغادرتها، بل ممنوع من مغادرة أحياء بعينها، لقد سمعت الكثير عنه وعن ثقافته الموسوعية، وعن اطلاعه الكبير بالمسكوت عنه من تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، تمنيت أن يكون متعاونا خاصة أنه أصبح شيخا طاعنا في السن وقد لا يرغب في تذكر الماضي والحديث عنه، كانت هذه زيارتي الأولى لهذا الحي بعد أكثر من خمس سنوات، لقد تغيرت ملامحه الكبرى، لكن العشوائية لا تزال تسيطر على المكان، اختفى جزء كبير من المجاري السطحية التي كانت طافحة في المكان، وزُوّد عدد كبير من المنازل بالكهرباء ومنها الذي زود بالماء الصالح للشرب أيضا، الأزقة ترابية أغلبها كما كانت، وأكوام الأزبال في كل مكان، ورائحة حرق الأزبال المنبعثة من المزبلة العمومية القريبة لا تزال طاغية كما كانت، أرشدني شاب إلى دكان الحاج رغم أنني زرته من قبل، لكن ذاكرتي الحديدية خانتني لتشابه الطرقات والأزقة، ولتزايد عدد المساكن كما تتزايد النباتات البرية في موسم ماطر، ألقيت التحية على الرجل القابع في وسط الدكان، وكم كانت مفاجأتي كبيرة حينما وجدته يلقي التحية وينادي باسمي، لقد تذكرني حينما كنت هنا آخر مرة أجري تحقيقا صحفيا حول ظاهرة السحر والشعوذة التي كان أحد ابرز رؤوسها في هذا الحي، في الدكان المقابل لدكان بن شريفة تماما، لقد تحول الدكان اليوم إلى مقهى إنترنيت عامر بالشابات والشباب، بعد أن غادر الهاشمي الحي واتخذ لنفسه دكانا جديدا قرب منزلي، تغيّر جل رواده وأصبحوا من فئة إجتماعية أعلى، تحدثت مع

الحاج قليلا ووضحت له سبب قدومي إليه، ابتسم ابتسامة ملؤها السخرية، أو هكذا بدا لي، ولم يمانع الرجل في إجراء الحوار.

أخرجت مسجلتي الصغيرة، فلم أكن بعد قادرا على شراء هاتف حديث يعوّض هذه الخردة البالية التي أمتلكها منذ تخرجي من كلية الآداب، ضغطت على زر التسجيل وهممت أن أفتتح الحوار، لولا أن الحاج قاطعني ونهض من كرسيه ليغلق الدكان علينا، لقد أحسست أنه يريد أن يخرج ما في صدره من تفاصيل ربما لم يبح بها من قبل، أردت أن استغل الفرصة، سأخرج كل ما في جعبته، قد يكون تحقيقا فاصلا في حياتي المهنية.

- أقف اليوم بين يدي رجل سمعت الكثير عنه، سمعت عنه من أعلام الفكر والإعلام المغربي، لقد كان بحق غنيمة كبيرة جادت بها علي حرب البحث والتنقيب في موضوع الساعة الذي يشغل الرأي العام، إنه موضوع هيئة الإنصاف والمصالحة التي دشنت عملها بداية هذا العام، الهيئة التي وعدت الدولة أن تكون صفحة جديدة في تاريخ المغرب الحديث، مغرب الفترة الانتقالية التي تريد أن تجُبّ رِزْء الماضي، وتقطع مع الانتهاكات التي سادت في فترة ما سمي بسنوات الرصاص، هذا الرجل هومعتقل سابق في ردهات المعتقلات السرية التي سادت تلك الحقبة، كما أنه من النخبة المثقفة إبّان الفترة نفسها، وأحد المراجع الفكرية والتاريخية خلال ذلك الوقت، إنه الحاج أحمد بن شريفة الذي نشكره على استضافته لنا اليوم وعلى حسن تعاونه، حتى ننقل الصورة مكتملة للرأي العام الذي يتابع الموضوع بشغف كبير (أقول ممهدا للموضوع مقربا المسجلة رديئة الصوت من فمي)

- مرحبا بك أستاذ، أم تفضل أن نقول الحاج (أضحك باحترام)

- (الحاج يبادل الضحكة بابتسامة محتشمة) لك ما تريد، لا قيمة للألقاب والأوصاف في بلدنا قُل ما تريد يا بني

- أولاً نريد أن نتشرف بمعرفة الحاج، أعني سيرة ذاتية قصيرة إن شئت القول.

- أحمد لكتاتني، الملقب بالحاج بن شريفة، من مواليد فاس درست بالمدينة وتدرجت في الأسلاك المتاحة هناك، ثم التحقت بالجامعة بعد الاستقلال بسنوات قليلة حيث كنت من بين المتخرجين الأوائل في شعبة الفلسفة رغم أن تعليمي كان دينيا قبل الجامعة وكنت أزاوج في تلك الفترة بين الدراسة والعمل كمعلم بالسلك الإبتدائي، مارست التعليم بجميع أسلاكه، وكنت من بين الذين ساهموا في تعريب المناهج التعليمية، انخرطت في حركات التحرر إبان الاستقلال وبعده، وكنت الكاتب العام لنقابة المعلمين في الإقليم، ثم ناطقا رسميا بإسم الحزب الذي انتميت إليه وعضو المكتب السياسي، بعد ذلك انقطعت عن الإطارات السياسية الناشطة في فترة ما سمي بسنوات الرصاص للتهافت الذي رأيته واضحا على السلطة وتهميش فئات عريضة من المساهمين في الاستقلال وبناء دولة ما بعد مغرب فرنسا، تهميش طالهم من طرف من أرادوا أن يبقى المغربُ مغربَ فرنسا، ورفضوا مغرب ما بعد فرنسا، حاولت رفقة أصدقاء جمعتنا الايدولوجيا والتصور المشترك أن نؤسس حزبا لكن الدولة منعتنا في الظاهر والباطن، منعت من إلقاء المحاضرات في الجامعة وصودرت كل كتبي، ولم يسمح لي أحد بالنشر في الصحف خوفا من الدولة أو لاختلاف الرؤية والتصور، إلى أن اعتقلت بعد الانقلاب، حيث قضيت سنوات في جحيم التعذيب والمعاناة لم تنته فصولها إلا بعد تعيين أحد أقاربي على رأس جهاز سري للمخابرات كان قد أنشئ للحفاظ على الحكم وحمايته من الانقلابات التي كانت موضة في ذلك الوقت، هذا القريب تدخل لدى السلطة لإطلاق سراحي شرط أن لا أمارس عملا فكريا أو سياسيا، وقد أعطى قريبي تعليماته لأسرتي بإبعادي إلى مدينة آسفي التي أعيش فيها منذ ذلك الوقت إلى

اليوم، وإلى هذا الوقت الذي أحدثك فيه لا زلت ممنوعا من مغادرة أحياء بعينها وسط هذه المدينة.

- وما سر لقب بن شريفة؟ (أسأله لإشباع رغبة خاصة قبل رغبة اشباع التحقيق بالمعلومات)

- (يجيب الحاج مبديا انزعاجا من السؤال لم أفهم له سببا، وهذا ما جعل تحمسي يفتر واستنتاجي برغبة الحاج في قول كل شيء يخيب) إنه لقب طفولة لا أكثر، ثم تحول إلى إسم حركي إبان المقاومة ضد المستعمر.

- وما سبب اعتقالك؟

- لا أعرف سببا محددا، إنه تراكم لأسباب مختلفة.

- هل حوكمت؟

- (يضحك الحاج مستهزئا) وهل للمعتقل محاكمات

- أي سجن كنت معتقلا فيه؟

- لا أعرف له اسما لكنه ليس من السجون التي يتداول أسماؤها اليوم (يجيب الحاج مستهزئا)

- وكيف عرفت أنه ليس منهم؟

- من الأوصاف التي ساقها المعتقلون السابقون، لا يوجد معتقل كالذي كنا فيه.

- هل عرفت أحدا ممن كانوا معك في السجن؟

- لا لم نكن نستطيع التواصل بأي طريقة، كانت تفصلنا ساحة واسعة كنت أراها فقط حينما كان يفتح السجان الباب ليمدني بنصف لتر من الماء حصتي اليومية، وقطع خبز الشعير وأكلة الطحين التي لم نكن نعرف من مكوناتها إلا الطحين .

obeikandl.com

- ما هو انتماؤك؟ سمعت أنك من سلفيي التجديد، وفي نفس الوقت سمعت أنك ممن حضر المؤتمر التأسيسي السري لحركة إلى الأمام قبل أن تظهر إلى العلن، وأنك رافقت شيخ العرب مدة من الزمن.

- لقد سبق أن قلت لك أن الأوصاف والألقاب في بلدنا لا قيمة لها، فليس السلفي سلفيا ولا اليساري يساريا، وأنا لا أدعي أنني أنتمي لأي تيار أو إيديولوجيا من الإيديولوجيات التي سمعت بها في المغرب منذ الاستقلال إلى اليوم، أما بخصوص إلى الأمام فلا علاقة لي بها، كانت لي علاقات فقط بأحد الذين حضروا لمؤتمرها التأسيسي وهو بدوره انسحب منها، واعتقلت معه في نفس الوقت لذا راج أنني أنتمي للحركة.

- ما رأيك اليوم في هيئة الإنصاف والمصالحة (أسأله بحزم ومباغتة)

- (يضحك الحاج مستهزئا) عن أي هيئة تتحدث يا عزيزي، من قال لك أننا نريد أن نتصالح، نحن نريد أن نقتص منهم حتى لا يكرروا جريمتهم في المستقبل، نحن ذوو الحقوق ولم يستشيروا معنا إن كنا نريد مصالحة أم لا، ثم لماذا يروّجون لأسماء بعينها ليتصالحوا معها؟ ولماذا لم يفتحوا كل المعتقلات ليراها الرأي العام، ولماذا لا يغيّرون معاملتهم مع المعتقلين اليوم؟ أم أنهم يهيّئون لهيئة إنصاف ومصالحة بعد عقود من اليوم؟ ثم هل تعلم أن عددا من الذين يريدون تعويضهم لم يكن لهم نشاط واضح في سنوات الرصاص ولا نعلم أنهم قضوا يوما واحدا في المعتقلات، إنه مجرد تمثيل ككل شيء في هذا البلد الذي لا يريدون له أن يتغير يا بني (يتحدث الحاج بعصبية كمن يريد تصفية حسابات تاريخية من خلال تحقيق صحفي)

- هل تظن أنها ستكون تجربة فاشلة؟ (أسأله قبل أن يكمل حديثه)

- على العكس ستكون مسرحية ناجحة، تماما كمسرحية الاستقلال (الحاج بسخرية كسابقاتها التي تكررت كثيرا في هذا الحوار)

- ماذا تقصد؟

- هل تعلم أننا لم نحصل على استقلالنا إلى اليوم؟

- ماذا تعني بذلك؟ (" لقد أصابه الخرف على ما يبدو" أقول لنفسي)

- لقد ناضلنا كثيرا لنحصل على استقلالنا، وفي الأخير خرجت جيوش فرنسا وإدارتها من تلقاء نفسها، بعد أن حصلت على امتيازات، لقد تغيرت السياسات الاستعمارية في العالم ولم يعد ممكنا نهج نفس أسلوب الامبريالية التقليدية، لقد وضعت فرنسا دراسة جدوى لاستعمارها للمغرب وفطنت أنها قد تكسب أكثر من مغادرتها، اللعبة إذن: تغادر فرنسا وتمنح المغرب ما سمي استقلالا على أن تحافظ على نفس الامتيازات التي كانت لها لأطول مدة ممكنة، وها هي تستفيد إلى اليوم دون أن تراق دماء جنودها ودون أن تصرف جزءا من أرباحها من المغرب على الخدمات الهزيلة التي كانت تقدمها، أو على تهيئة البنية التحتية أو على أي لوجستيك آخر، ثم تترك خلفها من يقوم على خدمتها متحكما في مقدرات البلد دون رقيب أو حسيب، لم تكن هذه سياسة فرنسا وحدها، بل سياسة الامبريالية العالمية في كل المستعمرات في العالم، وها هم اليوم يستفيدون دون عناء، تبا للأغبياء (يصرخ الحاج بأعلى صوته)

- لكن ألا ترى أن هذا رأي متطرف وأن لا أحد يقول مثله (أسأله مندهشا من عودة خطاب تصفية الحسابات التاريخية)

- بل هذا الكلام هو الذي كان رائجا في وقتنا لذلك اعتقلونا ورفعوا شأن من شاؤوا من مناضلي فرنسا أو من المتكسبين من ورائها.

- لكن...(أردت الاستشهاد بكلام مناضل ومفكر مغربي معروف، لكن الحاج ما إن سمع الإسم حتى انتابته حالة هستيرية وقاطعني)

- عن أي مناضل ومفكر تريد أن تحدثني أو أن تستشهد بكلامه، أنا أيضا فاسي، ولذلك لم أمت في المعتقل، ولوكنت غير ذلك لما عشت إلى أن أقول لك هذا الكلام.

- لكن للرجل موقع هام ويحترمه القاصي والداني

- نعم، لقد كان أيضا أجدادك يحترمونه، لذلك امتثلوا لكلامه عن مقاطعة المدارس الفرنسية الكافرة، وبعد الاستقلال لم نجد إلا أبناءه وأمثالهم يأخذون بزمام الأمر بعد أن تكوّنوا في المدارس التي قال إنها كافرة، عِلم كافر وآخر مسلم؟ هذا هو منهجه الذي بشّر به الأهالي وكفر به هو، ثم ماذا حدث؟ بعد الإستقلال حكموا وكتبوا التاريخ الذي أنصفهم دون غيرهم (الحاج بنبرة ثائرة وحركات بدت أنه يريد إنهاء الحوار)...

لقد أذهلني كلام الحاج حول شخصية شامخة من شخصيات المغرب، حتى أنني لم أعد متحمسا بدوري للكلام في موضوع تاريخ المغرب لهذا وجهت سؤالا مرتجلا للحاج حتى أغيّر الموضوع، وطرحت أسئلة أخرى لم أجد فيها إلا الصدمات المتوالية، حتى أيقنت أن الرجل أصبح يهذي ليس إلا، وأنه يريد أن يصفي حساباته القديمة عن طريقي، ويبدو أيضا أن سنوات الاعتقال قد أذهبت بالبصيرة التي يتحدث الجميع عنها، ليس الاعتقال السياسي أقصد، بل الاعتقال الذي يعيشه اليوم ومنذ سنوات في حي جامد كهذا وسط أشخاص خارج دائرة الفهم والضوء كسكان هذا الحي.

احتضان

ما إن استأنف رشيد عمله الجديد في ضواحي مدينة آسفي على مقربة من السوق الأسبوعي سبت گزولة الشهير في المنطقة، حتى نسي كل شيء عن مريمة التي بدت كأولئك الفتيات التي كان قلبه يتعلق بإحداهن منذ أن بلغ الحلم، كان يختار في كل سنة دراسية أجملهن في عينيه ويجعلها حبيبة له في صمت، ينام على أحلامها ويستيقظ ليكحل عينيه برؤيتها، شكل من أشكال التعويض عن الحنان الذي كان يفتقده داخل الأسرة التي لم يكن أفرادها يجدون وقتا حتى للمشاعر، نسي رشيد عبد البر أيضا الذي اعتقل ظلما كما يقول، وعادت حياته إلى طبيعتها، باحثا بين الإناث التي يلتقي بهن عن حبيبة جديدة، أصبح يبيت الليل في منزله رفقة أمه التي لا تزال تدير كشكها رغم عجزها وبلوغها من الكبر عتيا، تدير أيضا مشاعرها غير مبدية الحزن الذي يجثو على قلبها من فقد أغلب أبنائها، المهاجر والمعتقل والمختفية والمهشّمة والحائر، لم تكن تريد أن تعكر صفو مزاج رشيد الذي عانى من أجل ما مر به بعد تجربة مريمة التي لم تكن تعلم بشيء من تفاصيلها، لكنها كانت تحس كل شيء وإن انخدعت فحسبت شيئا من حزنه البادي عليه كان من أجل أخيه عبد البر.

خلال مدة قصيرة وجدت امي عايشة الشيظمية لرشيد العديد من العرائس، بعد أن فاتحها في رغبته في الزواج، أثمر بحثه أيضا العديد منهن، لكنه كان يجد في كل واحدة عيبا معينا، الجميلة الخلوقة المتدينة ذات الثقافة والوعي وسلسلة من الشروط وضعها كأنه سلطان مملكة الهوى تلقي النساء بأنفسهن تحت قدميه طمعا في التتويج برفقته، ذات يوم وبينما كان يستقل الحافلة المعتادة التي تقلّه إلى العمل التقى بزميلة مهنة كانت معه في مركز التكوين، كانت الوحيدة

التي تعرف موضوع رسالته لحنان، لقد كانت صديقة مقرّبة منها، ما إن رآها حتى عاودته ذكرى حبيب كادت أن تغيب، تحدثا قليلا وبدأ يبحث عن فرصة ليسألها عن حنان وأحوالها، كان ينتظر أن يسمع أخبار زواجها وانجابها، لكنه فوجئ بما سمع وظل يفكر فيها خلال شهر تلا لقاءه بصديقتها، وكان هذا الشهر من التفكير كفيل لإعادة شيء من المشاعر التي يبدو أنها كانت تحتاج فقط لمن ينفض عنها الغبار.

" - لكن كيف يمكن أن أتزوج من فقدت عذريتها ولمسها رجل قبلي؟ " (قال رشيد لنفسه)

- لكنها اغتصبت ولم تسلّم نفسها برضاها ويكفي ما حدث لها من أزمات بعد الحادث لتتأكد أنها عذراء حتى دون بكارة، شريفة عفيفة وإن فقدت ما تملكه غيرها من غير العفيفات المُبَكَّرات، هل تريد أن تعاقبها على ذنب لم تقترفه؟ ! لماذا لا تعاقب نفسك على ذنب هممت أن تقترفه لولا لعبة الأقدار؟ أم تراك مستفحلا كذُكْران ثقافتك: أنت ذكر وهي أنثى ! ما بك كيف تحكم على الأشياء وكيف تقدر المواقف وتصدر الأحكام؟ ثقافة غريبة، تنزعون قطعة جلد من عضوالتناسل الذكري فينطلق بعده نحو التحرر وتنزعون قطعة جلد مثيلة لكنها من عضو الانثى فتزجّون بها في سجن العادات والتقاليد المتهالكة، ثم ألست أنت الذي كنت على كامل الاستعداد أن تغفر لمن قدمت نفسها لأكثر من رجل عن طيب خاطر طلبا لعَرَضٍ زائل؟ لقد بلغت أنانيتك حدا لم أعد أطيق معه البقاء بين جنبيك (يقول الصوت النابع من داخل رشيد، صوت لا يكاد يُسمع إلا صداه، كأنه ينبع من بئر عميق، صوت يسمعه للمرة الثانية في حياته، لم يصعق من وقعه هذه المرة لكنه اقتنع وطأطأ رأسه خجِلا)

في طريق العودة من العمل قرّر رشيد أخيرا أن يرسل أمه لخطبة حنان، حاول خلال الأيام السابقة الاتصال بها، ترصدّها قرب بيتها، لكنها لم تكن تغادر

البيت، لا زالت تحت وطأة الإقامة الجبرية التي فرضتها على نفسها، لا تغادر البيت إلا لماما تحت الإكراه، وصل رشيد إلى البيت لكنه لم يفاتح أمه في الموضوع، لقد وجدها مفجوعة على وقع أخبار وفاة جدته "ينّا" كما يدعوها الجميع، كان الوقت متأخرا للذهاب إلى هضاب الشياظمة فلن يجدا من يقلهما، ترك رشيد امي عايشة تنوح في البيت على فقيدتها وعلى أشياء أخرى لم تتح لها الفرصة لتبكي عليها خلال ما ولّى من الزمن، وخرج إلى الدرب علّه يجد رفيقا يسلي وحدته ويخفف الهم الذي انتابه، " ينّا" بالنسبة له ذاكرة للعطف والحنان الذي لم يكن ينال منهما قسطا وافرا في بيته، ينهل منها كلما قصد البادية شحنة يملأ بها جزءا من الخزان النافذة طاقته سريعا، التقيتُ به وأنا عائد رفقة أحد أصدقائي من خرجة ترفيه، لاحظت تغيرا قد اعتلى وجهه، ترجلت من السيارة وألقيت التحية، لكن يبدو أن مصابه قد صمّ اذنيه وجعل عليهما وقرا.

- وا رشيد (ناديته بصوت المستغرب)

- مرحبا سي عثمان (أجابني كأنه يراني للمرة الأولى)

- خير إن شاء الله؟ أرى وجهك متغير عن سالف عهدي به (أسأله مادًا يدي بالتحية)

- لقد ماتت جدتي (يجيبني دون مقدمات)

- رحمها الله، رزقك الله الصبر يا أخي (أحتضنه مواسيا كعادة المغاربة في مثل هذه الأوقات، وسألته) كيف حال امي عايشة؟

- متحسرة لأنها قد لا تحظى برؤية أمها التي قد تدفن بعد صلاة المغرب (يجيب رشيد كأنه ينتظر مني حلا)

- ولماذا لا تذهبان (أسأله بلادة مني وكأنهما لم يفكرا في الأمر)

- أنت تعرف أن وسائل النقل تشح بعد العصر وقد لا نجد هناك من يقلنا في الطريق الغير معبدة (يجيب متأسفا)

لم تكن العلاقة التي تربطني برشيد قوية جدا فهو مستجد على الحي ، كان لا يظهر إلا في العطل المدرسية الطويلة، لكن امي عايشة ربطتني بها علاقة قوية جدا، كنت أدردش معها طويلا حينما كنت أقصد كشكها لاقتناء السجائر، اشتري ثلاث سجائر منها يوميا أدخن واحدة على أنغام حديثها المكتنز تاريخا وبلاغة شعبية، كانت هي التي أنقدتني من جحيم عادة التدخين، كانت دائما تنصحني بالاقلاع، بينما كنت أمازحها بأنها تفسد تجارتها بيديها كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا، واحكي لها تفاصيل ناقضة الغزلِ بَلهاءُ قريش، وجدت الفرصة سانحة لرد بعض المعروف لهذه السيدة، أخرجت هاتفي من جيب بنطالي وطلبت صديقي الذي غادر قبل ذلك الوقت بقليل، شرحت له الموضوع فوافق على مضض.

قضى رشيد يوما واحدا في بيت جدته وعاد لينشغل بهموم العمل ومتاعب الذهاب والإياب، وترك امي عايشة ترتوي من حضن الأرض التي فارقتها منذ زمن طويل، أحست كأنها طفلة من جديد، مارست بشغف كل أعمال الطفولة التي كانت تثقل كاهلها في سالف الزمان، رعت الأغنام وحلبت البقرة وجمعت الحشائش وجمعتها حلقات النميمة مع نساء القرية، والأهم من كل هذا طافت الأضرحة خلال موسم دور رگراگة، تضرعت وخشعت على أعتابهم، قدمت الهدايا والقرابين، رأت البشارات في المنام، نزهة عبدالبروعزيززاروها أيضا، قضت شهرين تحلم وتبكي هائمة على وجهها بين البقع المباركة...

أرسل رشيد امي عايشة إلى منزل حنان خاطبة لابنها، استقبلتها أمها باسمة الثغر والوجه ناضرة مستبشرة، فلم يطرق خاطب بابهم منذ انتشار خبر اغتصابها وتوقفها عن العمل، كانت تأمل أن تخرج ابنتها للحياة مرة أخرى، خاصة بعد أن خططت أن تجري لها عملية ترميم البكارة، رغم أن حنان كانت ترفض الحديث حول الموضوع إلا أنها كانت تنوي إقناعها بشتى الطرق.

- خير إن شاء الله، أستشير ابنتي وأجيبك قريبا (تقول والدة حنان لامي عايشة وأختها نجاة بعدما سمعت طلبهما)

- ها قد جاء رزقك يا بنيتي فلا ترفسيه بقدميك (تقول الأم مستعطفة)

- لا أريد الزواج لماذا لم تخبريها بذلك؟ لماذا قلت أنني مسافرة؟ هل تريدين وقتا لإقناعي؟ انتهينا من هذا الموضوع، أتوسل إليك يا أمي (تجيب حنان والدموع تكاد تخرج من مقلتيها)

استمر الجدال عنيفا بين حنان وأمها طويلا دون أن تقنعها بالعملية الترقيعية والعريس، غادرت المكان تاركة حنان غارقة في حزنها وهمها، محاولة التظاهر لنفسها أنها اعتادت على هذه الجدالات، قصدت غرفة الاستقبال تفرغ المائدة من محتوياتها مما خلفه استقبال امي عايشة الخاطبة، وجدت قصاصة ورقية كانت أمها قد كتبت عليها إسم العريس وعنوانه لتسأل عنه، ما إن رأت اسم رشيد حتى صعقت... مضت مدة قصيرة عرفت حنان من صديقتها أن رشيد علم بقصتها، لم تخبرها أنها من أخبره، لكنها قالت أنه حصل على الأخبار من زميل لم يخبرها به رشيد، علمت أنه يعرف قصتها قبل أن يرسل أمه لخطبتها، قررت أن تلتقي به ولم تعدم وسيلة لذلك.

" ستلتقيها إذن، ستلتقي حبا استيقظ في قلبك كدت أن تضحي به من أجل أنانية جسدية عابرة، أتعرف شيئا: لو تزوجت مريمة لمللتها بعد شهر واحد لا غير، كانت لتثقلك بطلباتها التي تعودت الحصول عليها آمرة تلبى، حنان لك أكثر من مجرد امرأة أحببتها، إنها كيان لا تستطيع العيش خارجه، كالبحر للسمكة، إنها كالمدينة التي تعشقها ولم تكن تستطيع العيش بعيدا عنها، إنها كآسفي، كلاهما مغتصبتان مهمّشتان ومهشّمتان لا تستطيع تفسير سبب حبك لهما، قد تجد مدنا كثيرة أجمل وأكثر بهاء من مدينتك لكنك ستظل تحبها، وكذلك حنان قد تجد نساء أجمل وأشهى وأبهى لكنك تحبها، الحب هو ذلك المجهول الذي يسكن القلوب دون

أن يطرق ليستأذن منا، ولو استأذن ما استمرت الحياة، كالأم وأبنائها، حب وعطاء لا يبحث في الأسباب " (يقول الصوت إياه)

التقى رشيد بحنان فوجدت فيه الصدر الذي سيخرجها من الردم الذي انهار في وجهها منذ تلك الليلة الليلاء، تفهما وحبا واحتضانا، وافقت أن تكون زوجة له رغم المخاوف التي ساورتها من ذَكر عربي لا ينسى ماضي امرأة، تزوجا سريعا ولم تتبد مخاوفها قط، كان كلما جمعهما سرير إلا وجدا في نفسيهما رهبة من الاقتراب من بعضهما، هاجس الاغتصاب يسيطر عليها، وهاجس المغتصب يسيطر على رشيد.

obeikandl.com

الرحلة القهرية

الساعة السابعة صباحا، ينطلق رشيد كعادته نحو عمله على متن سيارة زميله في العمل رفقة عدد من زملائهما الآخرين، لقد وجد بديلا عن الحافلة المتهالكة التي كانت تقله خلال السنة الماضية، وقد تشارك الجميع في توفير ثمن الرحلة... انطلق مصطفى التلميذ النجيب في فصل رشيد بعد أن تناول نصف إفطاره، راجلا يقطع الخمسة كيلومترات نحو المدرسة دون أن ينسى كسرة الخبز في يده يقطف منها لقيمات بين الفينة والأخرى، كان تلميذا فذا يستمتع رشيد بتقديم الدرس أمامه، كأنه يقدمه له وحده، لم يكن يرى في تلاميذ الفصول الثلاثة الأخرى الذين تجمعهم حجرة واحدة إلا أشباحا تراقب معلما يتراقص بين الصفوف شارحا وكاتبا وماسحا وكانسا، يقوم بعمل مؤسسة تربوية كاملة وحده، يقوم أيضا بأعمال الصيانة والتنظيف والحراسة، ويصدم كل سنة بانقطاع أنجب تلاميذه بعد استكمال المرحلة الابتدائية ليلتحق بسبت گزولة ماسحا للأحذية، يراسل كل سنة الآباء يستعطفهم حتى يغيّروا عادات أسلافهم دون جدوى وتحت ذريعة ضيق الحال والحاجة للمساعدة، لكن هذه السنة لن يضيع مصطفى لقد قرر أن يأخذه معه ليكمل دراسته الإعدادية، وقد وافق والده على مضض بعد تدخل فقيه الدوار الصديق الجديد لرشيد.

في الطريق ينشغل المدرسون وسط السيارة بين تتبع المذياع أو التركيز على القيادة، بينما يختار آخرون استراق غفوات تعينهم على إتمام رحلتهم المتعبة تحت ضجيج المناقشات السياسية بين رشيد والمدرس السائق... كلما تقدم التلميذ مصطفى في الطريق يجد أحد زملائه في انتظاره، يستكملون معا المشوار نحو المدرسة بين لعب وجد وهزل... غفا سائق السيارة بعد أن صمت الجميع وتعب

رشيد من مناظراته البلاغية، وكاد المدرسون يغيّرون مسار الرحلة نحو القبر لولا ستر الله...

اعترض متشرد معتوه طريق تلميذين في القسم الثالث ابتدائي لم تلتحق بعد بهما قافلة مصطفى ورفاقه، كاد يختلي بهما لولا تدخل أحد الفلاحين يحرث أرضه قريبا على حافة الطريق... أوقف موكب المدرسين دركي يسائلهم عن غياب حزام الأمان في المقاعد الخلفية، لم يجدوا جوابا إلا طلب السماح علّه يتعاطف مع مدرس لزميل له فضل عليه في الماضي، إلا أن الدركي لم يرضه شيء غير ورقة نقدية خضراء ليسمح للموكب بالاستمرار في الرحلة... وجد موكب التلاميذ بِركة مياه راكدة تتعالى منها صرخات الجراثيم باحثة عن جسد تلوذ إليه، فراغوا إليها باحثين عن المتعة واللعب الذي أنساهم المدرسة ولم تخرجهم سوى زخات المطر التي بدأت تنهمر على أجسادهم الهزيلة...تعالى صراخ السائق المدرس مطالبا زملاءه بالمساهمة في الرشوة التي قدمها للدركي وهم يرفضون ذلك بمبررات مختلفة...

تراكض التلاميذ نحوالمدرسة هربا من البلل فتوقفوا تحت شجرة علّها تحميهم من الزخة المطرية القوية... وصل موكب المدرسين الى المحطة الأخيرة بالمدشر حيث مقر عمل السائق، فتفرق الزملاء بين من دلف الى المدرسة وبين من انتظر ذل عربة قروي يجود عليه بها لإيصاله الى المدرسة الفرعية التي لا تصل إليها طريق ولا تقطعها وسيلة نقل أخرى، بينما امتطى رشيد دراجته النارية، وصراخه يتعالى على فقدانه مصباحا للدراجة النارية داخل المحل الذي يضعها فيه عادة... خفّت الأمطار قليلا فواصل التلاميذ طريقهم نصف مبللين وقد أثقلتهم محفظة مليئة بالكتب المختلفة والتي لا شك أصابها البلل كما أصابهم...

في الطريق على دراجته وقد أصابه البلل لاحظ زميلنا المدرس أنه متأخر على غير عادته فأسرع قليلا نحو النهر الذي يجتازه ككل يوم، فإذا به يجد منسوب مياهه قد ارتفع بسبب الأمطار، فسارع مجتازا، وبدل أن يمتطي الدراجة امتطته...

شارف التلاميذ على الوصول وقد بدت لهم أقسامهم من بعيد، فلا أسوار ولا أبواب كما هي بلا مراحيض ولا مياه ولا كهرباء ولا... وقد لاحظوا أن الأستاذ لم يحضر بعد حيث لم يشاهدوا دراجته، وخافوا أن يجدوا كلابا تلج الأقسام تتربص بهم كلما غاب الأستاذ أو تأخر...

اجتاز صاحبنا المدرس النهر وأسرع نحو المدرسة، في الطريق أقلّ تلميذا معاقا كما اعتاد على ذلك خوفا عليه من الطريق وأخطارها... اختبأ التلاميذ على مقربة من المدرسة حتى يأتي المدرس ليخلصهم من الكلاب التي تترصد بهم وقد تذكروا العقاب الذي سيتعرضون له جراء إهمال واجباتهم المدرسية، فانشغل بعضهم بانجازها بينما ظل من لا يتحمل أعباء العمل مع الأسرة من رعي وتنظيف حظيرة وجلب مياه يراقب ويرصد المكان... وصل المدرس أخيرا فوجد الكلاب الضالة في استقباله، طردها بحجارة قذفها فوق سطح القسم الذي أحدث قصديره ضجة هابتها الكلاب، دخل الجميع الى القسم فانشغل التلاميذ بترتيب الطاولات هربا من المياه المنهمرة من السقف وانشغل المدرس بإبعاد ما تبقى من الدفاتر من قطرات مياه السقف، وبعد مدة غير قصيرة انطلقت الحصة الدراسية على نغمات تساقط الأمطار على قصدير السقف، يقف رشيد بين الأربعة مستويات يعلم هذا حرفا والآخر إعرابا والثالث خريطة بلسان عربي وعجمي غير مبين... حتى مر الوقت كالبرق دون إنجاز كافة الحصص، همّ أن يغادر مقر عمله قبل نصف ساعة من وقت الخروج كما جرت عادته بذلك سعيا منه للوصول إلى سيارة الزملاء في الوقت المناسب إذ لا وسيلة نقل له سواها، وفي باب القسم وبعد أن خرج التلاميذ وقف المدرس رأسا لرأس مع المفتش التربوي الذي عاتبه على الخروج مبكرا إبتداءً وعلى الخصاص الكبير في الوثائق إنتهاءً، واتهمه بالتقصير في العمل وعدم أداء الواجب... غادر المفتش المدرسة فسارع رشيد الى دراجته علّه يجد

زملاءه في الانتظار، لكنه يفاجأ بعجلة دراجته قد خرّت هاوية... ترافق المدرس وتلميذه المعاق يسيران على مهل وللبقية رب مدبر حكيم...

وصل رشيد الى المدشر فلم يجد وسيلة تقلّه إلى منزله، غادر زملاؤه وغادرت الحافلة الوحيدة التي تفك العزلة عن هذا المكان، فانتظر ساعات وأخرى إلى أن جاءت حافلة متهالكة أخرى فانطلق إليها... في الطريق استسلم لنوم عميق من فرط ما لقيه من تعب، ولم يوقظه إلا ممرض وسط المستشفى ليخبره أنه يعاني من شلل ثلاثي أقعده عن العمل وأفقده النطق والحركة...

مضت شهور وعلمت حنان أن زوجها لن يعوَّض عن حادثة الشغل التي أفقدته الحركة والكلام، باعتبار أنها وقعت بعد أكثر من نصف ساعة من وقت الخروج من العمل، فقدَ كلّ شيء، المهنة وأجرتها والتعويض وما يخفيه المستقبل أعظم...

بعيدا جدا استطاع عزيز أخيرا أن يمتطي سفينة جديدة، تتجه هذه المرة إلى إيطاليا، على الأقل هذا هو العلَمُ الذي ترفعه، كما أن البحارة أيضا يتحدثون اللغة الإيطالية، أوهكذا بدا له، لم يختبئ هذه المرة من أحد، لقد دفع بعض المال من العملة المحلية التي كسبها بعدما تأقلم مع جو التجارة في الميناء لبعض بحّارة السفينة الإيطالية بعد وساطة محلية، وسيُقلّونه إلى الحلم الأوربي بعد أن ضاع الحلم الأمريكي، ليس إلى إيطاليا بالضبط لكن على مشارف ساحلها الجنوبي، قبل كيلومتر أو كيلومترين، خوفا من حرس الحدود المتربصين في الميناء، لم يكن هذا عائقا كبيرا لعزيز، فهو سباح ماهر كان يتفوق على كل منظفي السمك سباحة من الميناء إلى شاطئ رأس الأفعى الشهير الذي أصبح ملاذا لرواد رياضة الركمجة خلال السنوات الأخيرة، رياضيون من كل بقاع العالم تستهويهم أمواج نونبر ودجنبر، نفس الامواج التي تشل الحركة التجارية لسوق السمك، هكذا هي الدنيا، مصائب قوم عند قوم فوائد، تشق السفينة عباب البحر اللجي الذي يغشاها موجه من

فوقها ومن جانبيها، وفي جوفها أحلام وآمال تتّقد كلما لاح ميناء جديد على مرمى ناظري عزيز، كل ساحل يظنه حلمه الإيطالي، وبعد أسبوع ونيِّف أشار عليه أحد البحارة أن يستعد لمواجهة البحر فقد شارفت السفينة أن تصل إلى ميناء غارغانو، زوده أحدهم بطوق نجاة يساعده على مغامرته، لم يتردد كثيرا ورمى بنفسه إلى البحروتوجه سباحة نحوالميناء البادية تفاصيله مبهمة من بعيد...

بقيت شطيطا وحيدة في البيت المتصدع الذي تسكنه، لقد غادر ابنها مع من غادر إلى الحلم الأمريكي المشاكس، قررت أن تجري بعض الإصلاحات على الأرضية الترابية التي لم تعد تطيق البراغيت التي تعشش فيها، دبرت المصاريف بصعوبة بعد بوار جسدها وقلة طالبيه، استنجدت بعامل بناء في الحي رقّ لحالها، بدأ العمل مقسما بين فترات فراغ العامل المنشغل في ورش بناء آخر، كانت كلما غادر بيتها تحاول شطيطا العبث بأداوت البناء ظانة أنها تساعد في شيء، وبينما تغوص في عبثها ذات يوم وقد تأخر العامل عن الموعد الذي ضربه لقدومه يستكمل ما تبقى من عمله في تسوية الأرض لوضع الزليج، إذا بالفأس في يد شطيطا تصطدم بشيء صلب تبين بعد حفر يسير أنه صندوق حديدي قديم، أول ما تبادر الى ذهنها أنه صندوق كنز سيفتح لها الدنيا بعدما تستطيع فتحه، لكنها لم تستطع إلى ذلك سبيلا رغم محاولاتها المتعددة، ولم تجد بدّا من تقاسم سرّها مع أحد قد يستطيع فتح الكنز المزعوم، كان هذا الشخص عامل فرن تقليدي جمعتها علاقات حميمية معه، لا يزال يراودها رغم ذبولها، يبدو أنه كان يحبّها ولم يكن طالب أجساد فقط...

شرخ الزمن

علم الحاج بن شريفة متأخرا بما وقع لرشيد فبادر لزيارته في بيته، لقد غادر المستشفى منذ أزيد من شهر، لكن أخباره لم تصل إلى الحاج، ولولا المصادفة التي جمعته بي لما علم بتفاصيل الحادث، كان مترددا في زيارة الشاب الذي كان يرى فيه نفسه قبل عقود، فهو لا يقوى على رؤيته مرميا على الفراش لا يحرك ساكنا دون أن يستطيع الحديث معه " كأنه قدر كل الحالمين في هذا البلد، قبر أو حصار" (قالها الحاج لنفسه متحسرا).

- مرحبا بنيّتي (يقول الحاج للفتاة التي فتحت الباب في وجهه بعد أن طرقه على استحياء)

- مرحبا سيدي (تجيب حنان مبدية استغرابها من طلة الرجل)

- هل السيدة عايشة موجودة

- نعم سيدي

- لقد جئت لعيادة سي رشيد (يقولها الحاج وهو يزيّن اسم رشيد ب "سي" لأول مرة، فليس من عادة الآباء تنميق أسماء أبنائهم بألقاب بروتوكولية لكنه حاول إعلاء قيمته أمام زوجته)

أشارت حنان على الحاج بالدخول مرشدة إياه للغرفة التي يقبع بها، قبل أن يدخل رحبت به امي عايشة مبدية توددا فهمت منه حنان أن الرجل مقرب لرشيد وأمه، وبينما ذهبت لتحضر الشاي لم يستطع الحاج تحمّل منظر رشيد مرميا على كرسي متحرك لا يكاد يحرك شيئا من جسمه الذي أصبح نحيلا إلى حد لا يطاق، وعلى مقربة منه وجد الحاج بن شريفة غريمه الهاشمي على وجهه ملامح حسرة بدت كأنها تفوق ما ألم بالحاج نفسه، لم يلمس أي منهما الشاي والحلوى التي

وضعتها حنان أمامهما، لم يتحملا الجلوس طويلا أمام شاب فقد كل شيء وأصبح شبحا للماضي الذي قصم ظهرهما وغيّر حياتهما، بدا رشيد كوطن كسيح حلموا بإقامته فانهار عليهم.

لم يكن رشيد شابا إنسيا من لحم ودم فقط، لقد كان وطنا هدمته قلة الهمة وتكالب أهل النفاق والشقاق والخيانة، معسكر قويّ متراص للهدم مقابل معسكر فُرقة للبناء، و" الحمية تغلب السبع " كما يقول المثل المغربي، ترافق الحاج والهاشمي إلى المجهول، حكيا بودّ لبعضهما حكاية كل منهما بكل تفاصيلها، دون زيادة ولا نقصان، كما لم أسمعها من الحاج في تحقيقي الصحفي، تبددت الصورة القاتمة التي كان الحاج قد رسمها للهاشمي، قرّر أن يحمل فرشاة تصوّر جديد لرسم لوحة جديدة واضحة الألوان بهية، رأى الهاشمي في الحاج الجزء الذي كان ينقصه لترميم الماضي واستكمال اللوحة التي كان يريد أن يرسمها للوطن قبل عقود من الآن، التغيير حلم جمع بين الرجلين في الماضي ولم يتحقق فمات في نفسيهما، لكن رشيد أيقظ شرارته منذ أن بدأ يحارب من أجل الخروج من شرنقة الواقع متطلعا إلى مستقبل أفضل، لكن الحلم قد انهار مرة أخرى، وإذا كان للرجلين طاقة الشباب لتحمل الانهيار في الماضي فإن تجاعيد الحاضر التي وصلت للروح والقلب وعكسها البدن قد أوهنت عظم صبرهما وقضّت مضجع تحمّلهما.

تردد كثيرا اسم الفاطمي قدورة في لقاءات الحاج بن شريفة والهاشمي، كان يرى الهاشمي أنه طوق نجاة أخير قد يستطيع أن يخرجهما والوطن رشيد من الردم الهائل الذي يقبع فوقه.

- وما فتحة الزمن هذه (يقول الحاج باستغراب كبير)

- لقد حاولت وشيوخي قبل التخطيط للانقلاب التواصل مع كهنة يهود لتعلم طرق جديدة للتحكم في البشر عن بعد، كانوا قد توفوا قبل مئات السنين، وقد قرأنا في كتبنا أنه يمكن شق فتحة عبر الزمن والحديث إليهم، لكننا لم نستطع

ترجمة ما جاء في الكتب إلى الواقع، بالمقابل كان هناك رجل قد قطع مراحل في بحثه عن فتحة الزمن، وربما لو كنا ساعدناه في ذلك الوقت لنجح في إيجاد الشرخ (يقول الهاشمي كأنه يتحدث عن أشياء عادية، فيما يبدوالحاج مبهورا مما يقع على مسامعه كأنه القصف)

- وهل هذا الرجل هوالفاطمي قدورة (يرمي الحاج حجرتوقعه)

- تماما (يجيب الهاشمي محدثا فرقعة من ارتطام ابهامه والوسطى مشيرا بالسبابة نحو الحاج)

- هل تعرف الرجل؟..أعني هل سبق أن شاهدته مباشرة (يسأل الحاج)

- لا لم يسبق أن تواصلنا مباشرة لكنني تحدثت إليه بطريقة ما (يقول الهاشمي)

- وماذا لو أوصلتك إليه، هل لا زالت إمكانية مساعدتك له قائمة؟ (يسأل الحاج)

- نعم إمكانياتي لا زلت محتفظا بها رغم أن المخابرات قد استنجدت بمن يسلبني إياها (يقول الهاشمي مزهوا) لكنني لست متأكدا من إمكانياته، إن كان لا يزال على قيد الحياة

- إنه حي وتعرفه جيدا ولكن ربما يكون شكك في محله حول إمكانياته

لم يكن للمفاجأة وقعها الكبير حينما علم الهاشمي أن هولاكو هو نفسه الهاشمي قدورة، فالأعراض البادية عليه أثرلما فعله شيوخه بالفاطمي قدورة قبل وقت طويل، والمفاجأة كانت من نصيب الحاج حينما علم أن الهاشمي يمتلك البلسم الشافي لإعادة هولاكو إلى الفاطمي قدورة...

تحالف العلم والقوة والماورائيات، " سنغيرالوطن " هتف الثلاثة بكل ثقة...

الرواية

قررت أن أتوقف عن العمل مع الجريدة، لم أقدم لهم توضيحا، فقط توقفت عن الرد على مكالماتهم الهاتفية، أعمل معهم دون عقد، لذلك لن يستطيعوا أن يتابعوني بشيء أو يطلبوا مني الاستمرار، قررت أن أتفرغ لمشروع روايتي المتوقف منذ سنوات، لملمت التحقيقات الصحفية والمقالات التي كانت الجرائد ترفض نشرها لدواع سياسية، ورتبت الوثائق التي حصلت عليها من الحاج بن شريفة و الهاشمي دون علمهما، وأخيرا اشتريت من حنان رواية زوجها رشيد المعلم الكسيح، بعدما طافت دور النشر ولم تجد من يموّل نشرها، كما حصلت منها على رواية أصغر ربما فقدت بعض أوراقها، لكنها لم تكن بخط رشيد، ربما تكون هي نفسها رواية أحمد بن شريفة التي تتحدث عن الشيفرات والتخطيط للتغيير المزعوم، كان اسمها " تيغالين " وقررت أن أدمجها مع روايته لما للروايتين من تقارب وثيق، كما استطعت أن أجمع مادة لا بأس بها من الكتاب الهواة في أحياء المدينة الهامشية، من الجريفات والسانية واعزيب الدرعي ومن الأحياء المهمش أهلها العامرة بالمواهب الموؤودة، أما محاولاتي للاستزادة من المعلومات التي يتوفر عليها الفقيه الهاشمي فقد تكللت بالفشل، لقد اختفى من المدينة كلها ولم أجد له أثرا، حتى دكانه لم يفتح منذ مدة وأبناؤه يترددون على الدكان بين الفترة والأخرى يؤكدان أنهم لم يعثروا عليه رغم البحث الطويل، بؤكدون أنه اعتكف وصديقان له في حجرة داخل المنزل حتى أصبح صبح لم يجدوا لهم أثرا، أما الحاج بن شريفة الذي كان يمكن أن يزودني بمعلوماته التاريخية المتطرفة التي سرد علي بعضها في لقاءاتي السابقة معه ودون الباقي في الوثائق التي بحوزتي فربما يكون من بين الجثث التي انتشلت من تحت الأنقاض أو التي لا تزال

بعد أزيد من شهر تحت الردم، لقد انفجر الحي كله، عثرت الشرطة على صندوق متفجرات قديم وسط فرن تقليدي كان كفيلا بدك الحي وازالته من خريطة المدينة بعدما فشلت السلطات في ذلك في محاولاتها الكثيرة السابقة، حرصتُ أن يكون عملي مختلفا، مشروع رواية بمعايير مختلفة عن الروايات المتداولة عربيا، لا بل وعالميا، لدي من المال ما يكفيني للعيش على الكفاف سنة أو يزيد، لقد حصلت على مبلغ جيد من أخي في الدُّوار نظير التخلي عن نصيبي في الأرض الفلاحية التي خلفها لنا والدنا المرحوم، سدّدت إيجار سنة لصاحب الشقة التي أقطن بها، وأعطيت حنان عشرة آلاف درهم، لقد وعدتها أن أدرج اسم زوجها في روايتي، وعدتها أيضا أنني لن أسرق مجهود رواية زوجها، أحتاج الرواية فقط لجمع المعلومات لا أقل ولا أكثر، دفعت ما مجموعه ألف درهم لعشرات الكتاب الآخرين، أوراقهم لم يكن فيها الكثير لكن لعلي أحظ بفكرة هنا أو هناك.

مر شهر كامل أمضيته في تنقيح رواية رشيد، كانت رواية جميلة، لكنها تبقى على نفس نسق الروايات الاعتيادية التي لم تعد تثير فضول أحد، لقد أصبحت الروايات العربية متشابهة وقلّ أن تجد رواية تحمل الجديد، شخصيا لم أصادف رواية تحمل جديدا منذ وقت طويل، لقد تسلط رشيد في الوصف كما يفعل الجميع، ما معنى أن تجد " لقد كانت فتاة بهية فائقة الجمال، صدر نافر يرفع الجُبّة الحريرية برفق كأنه ثمرة نضجت تنادي أَكَلتَها، وشفتيها حلوى السكر الحمراء التي كنا نستمتع بها ونحن صغار أمتصها امتصاصا كلما رافقت عائلتي من أمي إلى مواسم دَوْر الركراكة، أما الوجنتان فحبتا كمثرى لم تنضج بعد تتعالى عن القاطفين والناظرين، وعينان واسعتان كأضواء سيارة فاخرة مزينتان ببؤبؤ كأنه حجر زبرجد أزرق ما له نظير ولا مثيل، وأما الشعر فأمواج رمال ذهبية قد لوته خلفها بخفة لتبرز عنقا كجيد الريم المتبختر..." ، لا أستطيع أن أتقبل هذا الشطط في استعمال سلطة التقييد لدى الكتاب، أنا يكفيني في روايتي كلمة جميلة

صفة للفتاة، لأترك للقارئ الحرية في ممارسة التخييل والتمتع بالخيال، فإذا كنت أنا أرى الجمال في زرقة الأعين واصفرار الشعر فغيري يراه في سواد الشعر وعسلية العيون، وآخر يرى سوداء البشرة جميلة، فلماذا أحاصر قارئي بصنف من الجمال فقط، قد تتناقض عنده كلمة جمال مع الوصف الذي يليها، ألم يكن العرب قديما يرون العيون العسلية من خوارم الجمال ونراها اليوم من أجمل العيون، لا ليس من حق أي كاتب أن يسهب اليوم في الوصف وأن يعطي التفاصيل الذوقية الغير متفق عليها من لدن الجميع، ثم متى أصبحت الروايات ملاذا للوصف والتفاصيل تاركة طرح التساؤلات والإشكالات ومغربةً القارئ لملء البياضات؟ ! لقد أصبحت الروايات تترجم وتقرأ من طرف أقوام بأذواق مختلفة تماما عن ذوق الكاتب والمحيط الذي نشأ فيه الكاتب، فلماذا نلزمهموها.

لقد حصلت على الرواية من حنان بادئ الأمر وتعداد صفحاتها يفوق المائة صفحة، بعد أن حذفت الوصف لما قدمت من مبررات وبعض التفاصيل التي لم تكن تتوافق مع مشروعي ورؤيتي للرواية، لم يتبق لدي غير أربعين صفحة، لكنها قد تصل إلى الضعف بعد أن أرقنها بالمعايير المتعارف عليها في الكتابة الرقمية وأعيد صياغة بعض الأساليب على طريقتي، لقد حذفت من الرواية أيضا كما هائلا من العبارات والأحداث الجنسية التي وجدته يقحمها إقحاما في الرواية، كأنه يريد أن يوصل رسائل إلى النقاد أن هذه معايير الحداثة والانفتاح الروائي، على أي فهو لا يُلام، هذا ما تضج به رواياتنا العربية اليوم، وكأن الجنس هومفتاح النجاح، نعم لقد أصبح الجنس والدين تجارة رابحة في الواقع وفي الرواية أيضا، لكنني لا أريد أن أقلّد أحدا، أريد أن أحصل على رواية مختلفة، جديدة بمعنى الجدة، أنا لا أنكر أن الروايات العالمية تضج بالجنس، لكنني لا أجد أن هذا موضوع مقحم فيها، فهو شيء من معيشهم اليومي ولا يشكل إثارة للقارئ، بينما علينا نحن أن نثير القارئ ليتساءل، وليس للجنس أن يطرح لدى العربي بما يمثله له أي تساؤل ليرقى

بتصوره عن الموضوع الجنسي أو عن غيره، أريدها رواية وليس دعاية لسجائر بكل بساطة، لذا لن أتحدث عن العادة السرية وعن التبان الوردي وعن الواقي الذكري وعن كم المصطلحات المهيجة للقارئ الذي قد ينسى الرواية ويظن أنه في فيلم من أفلام سينما العشاق، فتضيع الرسائل التي أجهد نفسي لبعثها والتحريض الهائل الذي أزرعه بتساؤلاتي المستفزة، لن أتحدث حتى عن الحب والعشق والغرام، لقد مللت هذه المواضيع، أريدها رواية بطعم العلقم المر الذي ينهض القارئ مستعجلا من أنس القراءة إلى وهج الواقع.

وجدت في كتابات الشباب أفكارا مشتتة هنا وهناك، وقد كانت بإيحاءات قوية لدي، وحاولت صياغة أفكار مشتركة بين رواية رشيد وما صغته من القصاصات المعلقة لدي في الغرفة، لم أكن احتاج إلى حبكة فرشيد تكلف بالأمر في روايته، وسأعيد نفس اللعبة الذكية التي رسمها لشخوص روايته، لقد استغرقت شهرا آخر لتنقيح ملاحظاتي وصياغتها بشكل يتوافق والمتن الحكائي للرواية، وأخيرا تفرغت لتحقيقاتي الصحفية، وعلى رأسها الحوار الذي أجريته والحاج بن شريفة، لكنني تفاجأت أن الحوار نفسه قد أدرج مضامينه رشيد في روايته دون أن يأتي على ذكر الرجل، ولم يكن من الصعب علي أن أضع شخصية جديدة تحمل أفكار بن شريفة ضمن الشخصيات التي وضعها رشيد، أضفت كذلك شخصيات أخرى حتى لا أجمع الحكمة الكبيرة التي زودني بها بن شريفة في حواراتي غير الصحفية معه، لقد كان فعلا أحكم شخص ألتقي به في حياتي، وإن بدت أفكاره متطرفة بعض الشيء إلا أنها تستحق الاهتمام.

كان آخر شيء أقف عليه هو ملاحظاتي وكتاباتي التي حفلت بها دفاتري الكثيرة، استخرجتها ونقحتها بسرعة كبيرة، فلم تكن هذه التدوينات مجرد ملاحظات وكتابات أو خواطر دونتها في لحظة عابرة، لقد كانت خلاصة مبادئي وقناعاتي وتجاربي اليومية، وكم كانت دهشتي كبيرة وأنا أرى كتاباتي مفصلة تماما

كي تتخذ لها موقعا في رواية رشيد المنقحة، دون أدنى عناء، لقد تمت المهمة إذن، وما علي إلا أن اشرع في الكتابة، لكن كان علي أن أقوم بلقاء أخير قبل أن أبدأ، سأهاتف أخي، حتى يوفر لي بقية مستحقاتي، سأسافر إليه لأخذها، سأضعها بجانبي حتى تكون شاهدا على الرواية وهي تنمو في أحضان هذا الحاسوب الذي لم يعد يصلح لشيء، لقد محوت ذاكرته تماما، كل البرامج في سلة المهملات، فقط الويندوز وبرنامج الوورد، لن يتوقف مشروعي كما توقف مشروع رشيد، لن أقف لأستجدي لجنة القراء التي لا تجتمع في دور النشر في وطننا إن أنت أردت أن يتكلفوا بمصاريف طبع وتوزيع الرواية، ولن أبحث عن واسطة لأنال دعم وزارة الثقافة أو الهيئات الثقافية المحلية، سأطبع الرواية من مالي الخاص، وسأدفع ثمنا للتوزيع، وكل هذا في دار نشر شرقية معروفة، وليس في دور نشرنا التي لا تبحث إلا عن الربح المباشر من مال الكاتب ولا تكلف نفسها عناء عرض العمل على لجنة قراءة لتقييم العمل الذي ستقدمه باسمها إن أنت تكفلت بمصاريف الطبع...

عدت إلى الشقة بعد أن حصلت على ما في ذمة أخي من أموال، لم يكن متماطلا أو متراخيا، بدل الغالي والنفيس ليمنحني مالا عوضا عن الدار التي ورثتها مناصفة معه من والدنا، لقد كان شهما معي، قال أن الدار مفتوحة في وجهي دائما والأرض كذلك وكأنني لم أبع شيئا، فهو وماله لأخيه، لم يكن كلام مجاملة فلطالما كان صادقا معي، ومع الآخرين، أنا الذي لم أكن صادقا مع أحد، حتى مع نفسي، لكن هذه الرواية ستكون فتحا مبينا لي، قطيعة مع الماضي، لهذا علي أن أنجح، لا سبيل إلا لأنجح، سأبرهن للعالم أن الفتى الذي خرج من دُوّاره وتعلم في الجامعات وعصرته الحياة عصرا أكثر نجاحا من فتى الابتدائية الذي بقي حبيس الدُوّار والطين يكرر ما مضى عليه أسلافنا منذ غابر العصور...

لقد مر الوقت سريعا واستغرقت في الكتابة والرقن والتنقيح والتصحيح، انقطعت عن العالم سوى نشرة الأخبار التي تطالعنا بها قناة الجزيرة كل مساء، كانت رؤية بعين واحدة لم أرض بها يوما، لكنني لم أكن أريد أن أزيد إلى دماغي المنشغل شيئا آخر غير الرواية، ورضيت برواية الجزيرة دون أن أبدل مجهودا في التحليل والتمحيص، عمل بالليل والنهار لفترة مقتطعة من الزمان والمكان، أخيرا أرسلت الرواية لدار لبنانية تنشر لكبار الكتاب والروائيين، لقد كانت رسالة إلكترونية مترددة، خوفا أن يمر خطأ مطبعي أو إملائي مع النسخة المرسلة، لكنني راجعت الرواية تسع مرات ولم يسبق لي أن فوتت خطأ جسيما من مراجعتي الأولى، وافيتهم أيضا بنسخ مصورة من الحوالات التي تقر بإرسالي كل المصاريف المالية التي اتفقنا عليها، أخبروني أنهم سيوافونني بمائة نسخة عبر البريد، بينما سيتولون هم توزيع العشرة آلاف نسخة الأخرى بوسائلهم الخاصة وعبر معارض الكتاب المختلفة، لكن ما أحزنني هو إخبارهم لي أنهم لن يشاركوا في معرض الدار البيضاء الدولي للكتاب هذه السنة، وأنهم سيرسلون نسخا من الرواية إلى مكتبات تجمعهم بها شراكات ومصالح متبادلة في المدن المغربية الكبرى.

أخذت حماما ساخنا وتناولت بعض الخبز والزيت وقليل من الشاي المنعنع المنعش في حر يونيو، ولأول مرة منذ أزيد من سنة ونصف غيرت قناة الجزيرة إلى قناة أخرى كانت تنقل برنامجا رياضيا عن كأس العالم بجنوب إفريقيا، يتحدثون عن الرياضة والروح الرياضية وماديلا والأبرتايت وأشياء أخرى، أنهيت البرنامج رغم أنني لم أهتم يوما بالرياضة، لكن كأس العالم كان شغفا أكثر من مجرد رياضة، ومع جهاز التحكم قضيت أزيد من ساعتين أتزود بالأخبار المختلفة من مصادر متعددة بشراهة منقطعة النظير، لقد كنت أحتاج إلى التموقع في العالم من جديد، فلقد انتهيت من الرواية وعلي العودة مرة أخرى إلى الواقع المتردي بكل ما يحمل من أصباغ سقطت مني في معتكفي خلال كل هذه المدة الطويلة.

رواية تيغالين كما وجدتها وسط أوراق رواية رشيد

إهداء

إلى أمي المضحية ووالدي رحمه الله

إلى أسرتي الصغيرة شموع حياتي

إلى كل من يعاني آلام نشرة الأخبار

توصية

الرواية التي بين يديك تحمل لك كشفا... لحقيقتك، تضعك في مفترق الطرق، تفرض عليك حتمية الاختيار، وإلا ستصيبك لعنة الغرق، لعنة تيغالين المستمرة عبر الأزمان.

الكاتب غير مسؤول عن أي حالة غرق في البر أو البحر لأي قارئ لم يمتثل رغبة الرواية، إنها لست مجرد رواية...

إنها لعنة تاريخية....

إنها علّة تاريخية....

obeikandl.com

(يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن - وأعوذ بالله أن تدركوهن - : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)

محمد ﷺ خاتم الأنبياء

(إن مجتمعا من الخراف يخلق دائما حكاما من الذئاب)

فرانسيس بيكون

obeikandl.com

توطئة (يبدو أنها كتبت بعد الرواية بسنين)

من شقته الواقعة في الطابق العاشر يَفتَح التلفاز على منظر المذيعة الفاتنة التي تلقي نشرة الأخبار، آية من الجمال السيليكوني البديع أنتجت وجوها متشابهة حد الملل، الرحمن فقط من يستطيع الخلق ويبدع التنوع، هدير صوتها يجلجل الأفق، هو أيضا زاغ عن قانون التنوع فكأنك تسمعه كل يوم في صوت كل مذيعة أو منشطة تلفزيونية من جنوب أو شمال، ، صوت دون روح، لقد قتلوا كل الحواس بسكين التكرار، تركوا لنا الشم فقط لنميز به روائح لا تنقلها وسائلهم التكنولوجية، حتى الآن على الأقل...

اعتاد كل يوم أن يبدأ نهاره على وقع أحداث العالم حسب ما ترويه الكاميرات المتحكم فيها من خلف الستائر، ستائر المجالس والغرف المغلقة، انفجارات وحوادث قتل وسرقة ومعاناة إدارية وخدمات مترديةٍ... لا جديد، على القناة الأخرى برنامج حواري يدافع فيه صاحب الرداء الأحمر عن النظام، بينما يدافع فيه صاحب الرداء الأصفر عن المعارضة، كلام وسب وتناطح... لا جديد، على قناة أخرى فرحة أنصار رئيس جديد قد فاز بنسبة كبيرة في الانتخابات الرئاسية للمرة الرابعة، يغلق التلفاز لاعنا العالم وهو يحتسي فنجان القهوة وقطعة الكرواسون بالشكلاتة.

وصل إلى مقر العمل، فإلتقمه زميله لإكمال نقاشهما المستعر منذ مساء الأمس، لعب دور صاحب الرداء الأصفر وبدأ يعدد للزميل مساوئ النظام وطرق الخلاص، بينما يناوئه زميله بنعمة الأمن التي يمكن أن تشفع أي شيء لهذا النظام، يجيبه ساخرا أن مثل من يرضى بأمن وشبَع دون كرامة كمثل ابن المومس الذي

يأكل من عرق عهرها راضيا مستسلما، كلمة منه وأخرى من الزميل والأصوات تتعالى دون أن تحجب أصوات الجماهير الغاضبة، التي تنتظر دورها في انجاز معاملاتها المعطلة بسبب جدال عقيم...

"احذروا متابعة نشرة الأخبار، احذروا غسيل الأدمغة، احذروا اللعنة، إنها تتسرب من التلفاز" يصرخ معتوه في ناصية الطريق، لم يعره أدنى انتباه وهو يقود سيارته المتهالكة، كل تركيزه على الازدحام ودواسة البنزين المعطل خشية أن تقف به السيارة وسط الطريق...

أفتَحُ التلفاز على منظر المذيعة الفاتنة التي تلقي نشرة الأخبار الذي اعتدت كل يوم أن أبدأ نهاري على وقع أحداثها، انفجارات وحوادث قتل وسرقة ومعاناة إدارية وخدمات متردية... لا جديد، على القناة الأخرى برنامج حواري يدافع فيه صاحب الرداء الأحمر عن النظام، بينما يدافع فيه صاحب الرداء الأصفر عن المعارضة، كلام وسب وتناطح... لا جديد، على قناة أخرى فرحة أنصار رئيس جديد قد فاز بنسبة كبيرة في الانتخابات الرئاسية للمرة الخامسة، أغيّر للقناة المحلية، شاب يغرق وسط شقته في الطابق العاشر، جثته تطفو فوق مياه مالحة كمياه البحر البعيد عن المنزل بكيلومترين، لا عواصف أو أمواج مد بحري في هذا الجو الصيفي الحار، شقته وحدها تغمرها المياه، أغلقُ التلفاز لاعنا العالم وأنا أحتسي فنجان القهوة وقطعة الكرواسون بالشكولاتة...

اِفتحِ التلفاز على منظر... كُلْ قطعة الكرواسون واحتس القهوة... غض بصرك عن المذيعة الفاتنة.. وانتظرِ اللعنة...

openkanal.com

الموج الأول
تيغالين: استخفافٌ وطاعة

...(إلهنا العظيم "رالود" تقدّس اسمك العظيم في البحار والسماوات والأراضي، وعمّت بركاتك وبشائرك خديمَك المطيع وشعبَك العابد، يا من يهيج البحر ويركدُ بقدرته، يا راعينا ورازقنا، يا إله البحر العظيم، ساعدنا وانصرنا على الشر العظيم القادم من وراء يَمِّك الهائج، وجنبنا سوءه، واجعل روحك المتّقدةَ بداخلي تُهلك كلّ من عاداني، أنا سليل الآلهة، وخليفتك على هذا الساحل من سواحلك الممتدة... آمين)

هكذا كان الملك "مكاحيب رع"، ملك بلاد تيغالين، يردّد دائما كلما استقبل المحيط الأطلسي من نافذة قصره، مفعم بالإيمان رغم إحاطة الأخطار بملكه، فقد وصلته الأخبار أن جيوش مملكة "فينيق" قد احتلت جل بلاد المغرب الأقصى، بل وأقامت فيها عاصمة قرب مدينة "وليلي"، وبات جليا أن بلاد تيغالين الهدف التالي لهم، وهو الذي لم ينه بعد خلافه الداخلي بين أتباع الإله "مالس " الخاضعين لحكمه قسرا، وأتباع الإله " نام لع" الذين خضعوا له بعدما تبين لهم أن لا طاقة لهم به وبجنده، كان يثبّت ملكه عن طريق التلاعب بهم واحتضانهم بالتناوب، ليضرب الواحد منهم الآخر، ويبقى هو وحاشيته ملاذهم وملجأهم، لكنه اليوم لم يعد يأبه لصراعهم الصبياني، فالخطر أعظم، والفينيقيون أقوى جيشٍ على البسيطة، ومن الصعب على جيش كالذي تمتلكه تيغالين أن يقف بسيوفه ورماحه وعتاده التقليدي أمام قاذفات النار والمنجنيق والدروع الشبكية التي يحتمي بها جنود الفينيقيين، كانت الآلهة وقوتها وجبروتها ملاذه الوحيد، وكان

رهبان المعابد المختلفة يتوافدون تباعا إلى القصر ليقدموا المشورة ويحموا القصر وتيغالين، العاصمة والمملكة ، بالتعاويذ والتراتيل، ويطلبون المدد من آلهتهم.

عيّن "مكاحيب" راهبَ معبد "رالود" كبيرا للمستشارين، وهوالمعروف بالحكمة والدهاء، فقد كان "أمسناو" مستشارا للقصر قبل أن يكون راهبا للمعبد، وقد تلقى معرفته الكبيرة وتجربته المشهودة من جولاته في مختلف بلدان العالم، كالهند وفارس والحبشة، وقضى حيزا كبيرا من حياته في فينيق حيث تلقى علوما كثيرة، بل ويعتبر من القلائل الذين درسوا الديانات التوحيدية التي لم يكن يسمح لأحد من سكان "تيغالين" أن يدرسها أوأن يتعرف عليها.

عاش "ميكاحيب" منذ نعومة أظفاره مقدسا، نصف إله يتحدى قوانين الطبيعة وينظر لنفسه على أنه مجتبى من الآلهة وأنصاف الآلهة، فهو الابن الذي اختارته الآلهة للحكم، وهو الابن الذي اختاره الملك والرهبان للحكم، أو هكذا كان يقنع نفسه على الأقل، أما الشعب فمقتنع جلّه بهذا عقيدةً وممارسة، ومن اعتقد غير هذا فجنود الملك بسياطها وسراديبها وسجونها ومنافيها كفيلة بإقناعه...

هكذا هم دائما، أدعياء النور غالبا ما يصدر منهم الظلام، بينما طالبو النور غالبا ما تُستجلبُ بهم الأنوار، وبينما كانت المملكة تعج بأدعياء النور لم يكن للنور طلبة، فعم المملكة ظلام دامس استولى على القلوب وعلى معيشة المستضعفين، بينما عاش أدعياء النور في رفه ولم يكن سواهم مصدر للظلام، سوى تقاعس الذين يهيمون تعثرا في الدهماء، وحينما تلبَّس بهم الظلام تردّوا عين اليقين واستحقوا أن يكونوا فعلا في الدهماء...

تيغالين في الكتب المقدسة (١)

وردت تيغالين في الكتب المقدسة المعتمدة من طرف اتحاد معابد الشاطئ الشرقي من بحر الظلمات، وورد تاريخها في كتب الرهبان الذين وضعوا الكتب بعد اندماج روح الإله بهم وحلول قوته فيهم، وسنعرض تواليا مقولاتهم عن المملكة ومختلف الجوانب المرتبطة بالحياة الاجتماعية بها :

(تيغالين هي عاصمة المملكة، التي تحمل الاسم نفسه، وهي مقام الملك وأرض الآلهة التي وَضعت لها عروشا فنُصبت عواصم لها في العالم الأوسط، كما لها عواصم في العالم السفلي والعالم العلوي، تحمل عروشها وتجلّي قوتها ومناطق سيطرتها ، وهي واحدة من سبع عواصم منتشرة في الأرض المطهّرة، مثلها مثل "أبولونيا" و"فالاسارنا" و"قيساريا" و"ايلانيكا" و"فليجرايا" و"أطلنتيس" ، تحميها الآلهة بقوتها وجبروتها، فهي تعبير عن عظمتها ودليل على امتلاكها لهذه الأرض، منذ اقتسام العوالم بين أبناء الآلهة وأبناء "أبراكساس"، وضع الإله "رالود" تيغالين وسط البحر على مسافة قريبة من أرض "آسفو" مصدر النور الإلهي، ليجعلها مقاما لمن يريد مغادرة الأرض إلى عوالم الظلام حيث يسود الأبراكساس، ومقاما للناجين من عالم الشر هذا، وهي مصدر النور المنبعث من أرض "آسفو" وسر الخير الوافر الذي تحظى به، حُصّنت تيغالين من شرور الموحدين المخدوعين بقُوى أبراكساس، ووضع الآلهة لها سبع حواجز كلما همَّ أحد باقتحامها إلا وحلّت عليه اللعنة وانتشرت به وبنسله الأمراض والأسقام وأُغْرِق في بحر الظلمات جسدُ "رالود" العظيم، الحواجز السبعة هي أسوار غير مرئية وضعتها الآلهة، أولها سور "خيرة" المكون من عنصر التراب، وآخرها سور "رالود" المكون من عنصر الماء ، وتتوسطها أسوار تمثل عناصر الطبيعة المختلفة، كل عنصر هو تجسيد للعنصر

الذي يسيطر عليه كل إله، وتقام التراتيل سنويا عند باب الأسوار التي يعرف مكانها الرهبان فقط، حيث يرمّمون الأسوار بتعاويذهم حينما تحل الآلهة بأجسادهم، وعلى العامة تقديم العطايا للمعبد لقاء الحماية والتحصين من الأخطار الخارجية وأخطار أبراكساس.

وضعت الآلهة تيغالين وسط البحر، يحيط بها السور السابع داخل بقية الأسوار حيث تعتبر الأكثر تحصينا من كل أرجاء المملكة، ولا تربطها باليابسة إلا قنطرة واحدة هي سبب البركة الحالّة بأرض "آسفو" وما حولها، بركة " رالود " أو" بوصيدون " كما يسمى في العالم السفلي أوهو" صوليس " كما يسمى في العالم العلوي، وله أسماء أخرى يناديه بها الرهبان ليحلَّ بهم ويتكلم بلسانهم، قد خصهم بها، لا يعرفها أحد سواهم، ينسونها بمجرد أن يعودوا إلى آدميتهم.

تيغالين مكان مقدس لأن بها ولدت ابنة الإله "تونا روز" أو هي "خيرة" كما يسميها القرويون الآن، ولما كبرت قررت أن تغادر تيغالين إلى أرض "آسفو" تحلّ بها لتحميها، فتضاعفت خيرات "آسفو" من اتصالها بتيغالين من جهة ومن حلول "خيرة" بها، يقول رالود : ألست أنا ربكم وواهبكم روحي تحلّ بكم، أنا قلت إنكم آلهة حين أحلّ بكم، فكيف تحاسَبون على تركٍ أواقترافٍ وأنا من يحرّككم، أليس الأوْلى أن يحاسبوني أنا؟ وأنّى لهم أن يحاسبوني وأنا مالك الأرض وصاحب العظمة والجبروت، كلمة الإله تحلّ بكم يا أتباعي المخلصين، ومن أراد أن ينقضها حلّت عليه لعنتي، أنا الذي وهبتكم أرض تيغالين تصلكم بي وتحميكم من شرور عدوّي "أبراكساس" وأبنائه، وجعلت هذه الأرض مقاما لبضعة مني، إلهً للخير والعطاء تُفجّر الأرض لتخرج لكم منها حبا ونباتا وشجرا، فكيف يدّعي المغرضون أن أتباعي لا أحل بهم؟ إن كانوا لا يعملون أعمالي فاطعنوا فيهم فهم منتحلون، أما وهم يفعلون أفعالي ويتحدثون بلساني فصدِّقوهم وأقّروهم وأطيعوهم على المكره

والمنشط، وحين تطيعوهم ويعملون عملي يتأكد لكم أنني حللت فيهم وأني أنا فيهم.)

وردت هذه المعلومات في الكتاب المقدس الذي وُجد في تابوت أحد الملوك القوط الذين حكموا المنطقة بعد زوال مملكة تيغالين ويسمى هذا الكتاب " أيور".

القصر واليد الحديد

ورث "مكاحيب" عن أسلافه نظاما قويا يعتمد على تأليه الحاكم واستمداد قوته من الآلهة، حيث يختار كل حاكم جديد إلهً رمزا للمملكة، بينما تظل بقية الآلهة ثانوية أمام الإله الحاكم، وقد اختار"مكاحيب" "رالود" إله حاكما بأمره، إذ أنه كان دائما معجبا بالبحر وقوته وجبروته التي تحمل في أحشائها الثروة والخيرات، كما أنه الإله الأب الذي تستمد الآلهة الأخرى قوتها منه، ولطالما كان رالود إلهً لتيغالين العاصمة منذ ما قبل حكم أسرة "مكاحيب" واستمر بعد حكمهم.

نظام الحكم في تيغالين يعتمد على تعيين أقوى الأبناء وأذكاهم لخلافة الملك، ويحدد ذلك الملك ومجلس الحكماء الذي يتكون من بعض أفراد العائلة المالكة وكهنة معابد الآلهة المختلفة، داخل القصر يحظى الملك بالتقديس فهو بشر تلبَّس الإله به حسب معتقداتهم، وكل الأمر والنهي له، ولا يجوز أن تراجع أوامره ونواهيه، يتمتع بالجواري الحسان الذي يشرف شخصيا على اختيارهن من القرى المتناثرة في مملكة تيغالين، فكلما تناهى إلى علمه وجود جميلة من الجميلات إلا بادر بإعطاء أوامره بإحضارها إليه، فإن مل منها رميت لأحد الرعايا لتكون زوجة له، محرومة من أي امتياز كونها مرّت من تحت الملك الإله، كأنها مجرد خرقة استعملت وانتهى أمرها...

كان جيش تيغالين قويّا مقارنة مع الممالك المتناثرة هنا وهناك في أرض المغرب الأقصى، هذه الممالك التي كانت بالأمس القريب تحت لواء واحد، قبل أن يتوالى انفصال قادتها بعد وفاة الملك جوبجا الكبير، وبإيعاز من الإمبراطوريات الكبرى المجاورة لها، كان الجيش مكونا أساسا من العبيد الذين يُستقطَبون إلى المملكة صغارا، فيصير ولاؤهم التام لعقيدة الملك وشخصه، وكان أفراد الجيش يبطشون دون رحمة بكل من تسوّل له نفسه عدم إرضاء الملك، كان للجيش قائد من نسب الملك يدعى "ريما " يروج أنه أخ له من امرأة موحِّدة، كان الملك الأب قد أقام علاقة غير مشروعة معها، إذ يحرم على الملوك مضاجعة إتباع الديانات التي توحّد الخالق والمعبود، ففي نظرهم هم أتباع أبراكساس، وهو الأمر الذي كان مرفوض تماما في عقيدة الملوك التيغاليين، فالتوحيد عقيدة محرمة في المملكة ولا يجوز التزاوج من أتباع هذه العقيدة أبدا، حتى لا يفسد النسل بعرق يدسّ لهم دما ملوثا بالإلحاد بالآلهة ومعتقدات الآباء والأجداد، فتسري معه اللعنة والشؤم إلى القصر والأسرة المالكة.

كان "ريما" منبوذا قبل أن يتولى "مكاحيب" المُلك، كان يعيش مع قطّاع الطرق في الغابات المجاورة للمملكة، وكان أحيانا يُغير على مخازن المملكة ينهبها، فقد كان يُكِنّ كرها دفينا للملك الأب، لكن أحدا لم يكن يعرف السبب الحقيقي، ربما بسبب أنه قتل والدته ورفض الاعتراف به ابنا شرعيا، لكن "مكاحيب " استقدمه بعد توليه العرش، ويشاع أيضا أنه من قتل والد " مكاحيب رع" بتوصية من الأخير، الذي قد يكون استولى على العرش بعد مؤامرة بينه وبين رهبان المعابد المختلفة الذين ربما يكونون من ولّاه عوضا عن أخيه الذي كان مقربا من الملك الوالد، ومشهود له بالبصيرة والذكاء المتّقد والقوة، فلم يكن أحد يعتقد أن "مكاحيب" سيصبح ملكا... وتظل الأخبار التي تحوم حول تولي مكاحيب الملك كثيرة

وغير ذات دليل تاريخي، سوى بعض الأهازيج الشعبية التي دونت في عصر القوط لكنها كانت غير تامة ولم تترجم جميعها...

تتكون مملكة تيغالين من عدة محافظات مجاورة للبحر، ومنها جزر تتوسطها أرض تيغالين عاصمتها ومقام الملك، لكل منها حاكم هو نفسه كبير رهبان معبد الإله المعبود محليا، كان المريدون جميعا يقدمون العطايا وأحيانا القرابين البشرية للمعبد، القرابين التي تكون غالبا من أفراد أسرة متمرد أوصابئ، والصابئ هو كل من خرج على أحكام راهب المعبد أوملك تيغالين، وكانت كل المحافظات تقدم العطايا لمعبد "رالود" باعتبار أنه إله الآلهة وحاكم المملكة المتجسد في الملك "مكاحيب".

تراتيل الاستعباد المقدس

(النص الاصلي مفقود والنص مترجم عن ترجمات قوطية وفينيقية)

في كل قفار ومنزلْ
تمجد إلهنا جنوبا وشمألْ
عليه وعلى "رع" كل توكلْ
فاقصد عظمتهما لا تتمهّلْ
وقدم كل ثمين وتحلَّلْ
فالآلهة تتداعى تتبجّلْ
فكيف بعبد دونما تفضُّلْ.
وكن جوادا كريح مرسلْ
لراهب بمنارته يتبتلْ
فإذا استكبرت بخِلق ومجولْ
فانتظر كسادا وحرثا يهزلْ

تيغالين في الكتب المقدسة (٢)

وردت تيغالين في الكتب المقدسة المعتمدة من طرف اتحاد معابد الشاطئ الشرقي من بحر الظلمات، وورد تاريخها في كتب الرهبان الذين وضعوا الكتب بعد اندماج روح الإله بهم وحلول قوته فيهم، وسنعرض تواليا مقولاتهم عن المملكة ومختلف الجوانب المرتبطة بالحياة الاجتماعية بها :

("كل موجود عدا الإله معدوم" بذلك أوحى إلهنا رالود للرهبان العارفين قدره الواعين ماهيته، فهو كل شيء ولا شيء سواه، إذا أردت أن ترى جماله فانظر إلى خضرة وألوان الغاب في ربيع أعقب شتاء مطيرا، أو تأمل طفلة سليلة دلال وترف قد بلغت الحلم قريبا، نفَر نهداها وانسدل شعرها، رمان ثغرها وحرير جلدها، أو انظر إلى وجه من عرفه فحلّ فيه والتبس به فشعّ النور من وجهه وفار التنور وامتلأ الكون بالحبور.

ليس الجسد ملكك يا من حل الإله في جسدك، فأنت لا تبطش إذ تبطش وأنت أنتَ ، ولا ترى إذ ترى وأنت أنت، ولا تخطو إذ تخطو وأنت أنت، ولا تقترف إذ تقترف وأنت أنت، بل هو الإله، فإذا رأيتم راهبنا قد فعل ما قد تعتبره النفوس العاصية معصية فهو من فرط الجهل بالذات الإلهية إذ تحل، وقد رأى أهل الجبل راهبا قد اختلى بفتاة وفتى، قد نزع اللباس والتصق بالأجساد، فظنوا أنه قد نال ما تناله العامة من العامة، وما تستمتع به العامة من العامة، فظنوا إثما أنه قد نزع خدمة الإله من قلبه، فنفاهم الإله إلى أرض الرجس أربعين عاما، وأُغرقوا بعد أن ظنوا أنهم قد انهوا العقوبة، وما ذلك إلا لأنهم ظنوا بمن اختار الإله جسده منزلا أنه يُسأل عما يفعل وما هو بمسؤول، فسؤال الجسد تهمة للروح والروح إله والجسد حطام بشر رفع قدره الاصطفاء.

الإله العظيم يحل بالرهبان ساعة وساعة، فتستمر بركته فيهم أبد الدهر، فما بالك بمن أدام الحلول به، إنه ملك تيغالين والأرجاء، فكيف يسأل ولا يطاع، فسخطا لمن اختلج بخاطره كره للملك، فأما المُعلِنون فاللعنة والدمار والسحق والخذلان، كذلك تعالى اسم الإله وملك أرض الإله في ملكوته، وتعالى كل جسد اصطفي محلا للإله وبركته، وأما الكاتمون في صدورهم فالفضيحة والرجس والغم ما دامت حياتهم قائمة، وبعد الموت إلى الظلام والبؤس والنيران.

قد قسم الإله عباده أقساما فضّل بينهم تفضيلا وأعز من شاء منهم تخصيصا، فأما أرفعهم فهم ملوك الأرض الذين لا تغادر أجسادَهم روحُ الإله، قد اصطفاهم وخصّهم بالحكم باسمه، قولهم أمر وإرضاؤهم فضل والتقرب منهم طاعة للإله، ثم يليهم كبراء الرهبان الذين تحل بهم روح الإله ساعة وساعة، يعرفون الإله حق المعرفة، الكون يتبدّى لهم بعينيه، والحكم يصدرونه بأمره، تعالوْا في الأراضي والعوالم بما حلَّ فيهم من روح الإله، وسموْا بما عرفوه حقا وبما أغاثوا به الظمأى من العامة، ثم يليهم كل من خالط دم الملك من نسله ونسل إخوانه ممن رضي عنهم وزوجاته دون الجواري، ثم يليهم فضلا الرهبان من الأتباع خدام بيت الإله، والمتعلمين في حضرة من تحلّ بهم أرواح الإله، المتبعين النهج المعتصمين بطريق المعبد، المجندين لتحقيق مشيئة الإله، هم سواء في الفضل مع خدام الملك الذين يقدمون أرواحهم وأموالهم وعقولهم فداء للملك وللمعابد ولبقاء دولة الإله، ثم يليهم عامة العباد ممن يأتمرون وينتهون بأوامر المعبد ويقدمون العطايا ويقدسون رعاة الإله في السر والعلن، وأما ما دون ذلك من الغير المؤمنين بالإله فهم من حلّت عليهم لعنته وسخطه وتاهوا في عيشة مرض القلب وسقم الجسد وخذلان الأسباب، وأحقرهم الموحّدين الذين نفوا قدرة الإله على الخصب والإنجاب والتكاثر وتعدد الآلهة، الذين اتبعوا طريق الأبراكساس وظنوا أن روح الإله لا تحل حيث شاءت وأنى شاءت.)

وردت هذه المعلومات في الكتاب المقدس الذي وجد في تابوت أحد الملوك القوط الذين حكموا المنطقة بعد زوال مملكة تيغالين ويسمى هذا الكتاب " أيور"، وقد كتبه الراهب " تازيري " كبير من كبراء رهبان معبد "رالود" السابقين.

obeikandl.com

القلب والحديد والجهل وأشياء أخرى

بين الأزقة والدروب الضيقة، حيث يسكن الفقر والجوع والرهبة وكل معاني التخلف والجهل، حيث يتعاظم القزم في العقول حتى تراه العيون عملاقا، حيث يأكل الضعيفُ الضعيفَ أو يقدمه للعملاق قربان طاعة وولاء، حيث يعشش تقديس الجبار الجاهل ويعلّل تهميش الفذ الذكي، نمت قصة حب بين "ماسين" و" تليلا "، الطالب المجتهد المتردد بين الأديرة والرهبان والحكماء، والشابة الفاتنة سليلة الأسرة الغنية التي فقدت كل ثرواتها ولم تزل تعيش عزة وأنفة الأغنياء، كان "ماسين " شابا متميزا، يعمل خطّاطا في محل أُعِدَّ لنسخ الكتب الخاصة بالأديرة والمعابد، ورثه عن أبيه المُتوفَى، والمهنة مهنة آبائه وأجداده الذين سبق أن كان بعضهم رهبانا في معبد "خيرة"، مما جعله يطّلع على معارف جمّة دعته إلى الاستزادة من العلم عند الرهبان والحكماء المختلفة معابدهم، كان كأغلب العامّة محسوبا على عبادة الإلهة "خيرة" إله العطاء والخير، لكنه في داخله لم يكن يؤمن بأي شيء من عقائد آبائه، لا يتردّد على المعابد إلا للتعلم، وليس إيمانا منه بطقوسهم ولا بآلهتهم، خاصة بعد أن اطلع سرا على أحد الأناجيل التي لا يحوزها إلا خاصة الرهبان، وكان قد نسخ واحدا لأحدهم واحتفظ ببعض التعاليم المسيحية التي كانت ممنوعة في أرض تيغالين على العامة وحتى على الخاصة عدا بعضهم، لقد تشبع "ماسين" بتعاليم المسيح ذات النزعة الإنسانية التي تكرم البشر كافة وتعلي من شأنهم وتجعلهم محور الحياة الأرضية، ولا تجعل منهم تابعين للرهبان، بل للإله الواحد دون واسطة أو قرابين أوعطايا.

ككل يوم سبت يلتقيان، هما فقط، "تليلا" و"ماسين"، عند نبع ماء قرب حيهم، تغطيهم الأشجار وتحفهم النباتات عن الأعين الفضولية التي لا تخفى عنها

خافية في كل المملكة، فحتى الحب ممنوع هنا، لا يتزوج الشاب إلا بما فضُل من جواري خاصة القوم في كل تجمع سكاني، الكل منشغل باليوم المقدس وليس هناك مجال لمراقبة الأرجاء، تتطلع "تليلا" إلى حبيبها راجية نيل كلمات إعجاب أو رضى يعبر عن حبه لها، كما تهيم لوعة وحبا به، لكنه لم يكن يكلمها إلا عن أحلامه في الهجرة إلى قرطاج أو روما أو القسطنطينية حيث العلم والمعرفة والحرية والحضارة التي تجعله يعيش إنسانيته كما يحلم، أو عن أحلامه في تخليص بلاده من الجهل والدكتاتورية، ليعيش المساواة والعدالة والعيش الكريم، المفاهيم التي لم يكن يجرؤ أحد على ترويجها ولو خفية، بل لم يكن يعرف بها إلا من حظي بقراءة كتاب من الكتب التي لا يحوزها إلا خاصة المعابد، فالحكم بأمر الآلهة والحكام مفوضون، ولا مجال للاعتراض أو الثورة، لم يكن يشاركه في حلمه أحد، حتى "تليلا"، كانت تتمنى فقط أن يجمعهما كوخ صغير وحولهما أبناء وبنات، بل كانت تخاف من أحلامه التي أدت إلى شنق العديدين ممن لم يصلوا إلى الجهر بمعشار ما يحلم به.

- لقد سئمت العيش بين العبيد أريد أن... (ماسين بصوت حالم)

- (تليلا مقاطعة) يكفي قد رددت أحلامك على مسامعي مئات المرات، لكن أين أنا من كل هذا؟ ألم تفكر يوما كيف يمكن لنا أن نكون لبعضنا؟

- (ماسين مستهزأ)...نكون لبعضنا.. أضغاث أحلام، لن نكون لبعضنا لا يمكن أن نكون لبعضنا.

- ولماذا؟؟ مؤكد أن أحد الخاصة سيرميني بعد أن ينال ما يريده مني وحينها أكون لك. (تليلا بتودد)

- (ماسين ضاحكا باستهزاء وممسكا بها من سلافتها موشوشا لها في أذنها) وهل تظنين أنني أرضى ببقيتهم، لم ولن تفهميني يوما.

- (تليلا غاضبة) أنت الذي لم تفهمني يوما ولن تفهمني، كل ما يهمك هوأحلامك المستحيلة التي ستُنهي حياتك لا محالة شنقا أو قذفا في اليم، لا أعرف ما الذي دعاني إلى حب رجل مثلك، تعافه كل القبيلة ولا ترضى به كلبة جرباء، تبا لك ولأحلامك، كرهت أنانيتك، اذهب إلى أحلامك واتركني... (تغادر تليلا متثاقلة كأنها تنتظره أن يمسك بها)

- (يوقفها ماسين ممسكا ببقية يدها) توقفي لا تتركيني وحدي... (يضمها) اقسم بالآلهة التي لم أؤمن بها يوما أني أحبك، لكن واقعنا يقول أننا لسنا لبعضنا، لن انتظر احتمال أن يجود علي أحد بمخلفاته حتى وإن كانت أنت، وحلّي الوحيد الذي عرضته عليك مرارا ورفضته هو الهروب، وإلا...

- الهروب الهروب أنت تعرف أن لا هروب من أرضنا المطوقة بالجنود وقطاع الطرق، إن نجونا من أحدهما وقعنا في يد الآخر، وبطشهما الواحد أشد من الآخر.

- (ماسين مغادرا) لا حل لدي، لقد قررت الهروب معك أوبدونك... وداعا يا حبيبتي...

- (ساقطة على الأرض والدمع يسابقها ولا يكاد يسمع لها صوت) وداعا..وداعا.

تعتبر الفلاحة والرعي نشاطا مقدسا عند أتباع الإلهة "خيرة" البائسين، حيث أنه رمز لخدمة الإله، وقد كانت معابد "خيرة" تحظى بعناية خاصة من لدن الملك وأعوانه، فهي ضمان لاستمرار الإنتاج والاكتفاء الغذائي في كل أرجاء تيغالين، خاصة أن رزق البحر غير مضمون، وأتباع الإله "رالود" الذين يحتكرون الصيد واستخراج اللؤلؤ لم يعد أحد يطيق العمل تحت إمرتهم، لجشعهم، وكانوا وحدهم من له الحق في امتلاك مراكب الصيد والنقل وقوارب استخراج اللؤلؤ، فهم أتباع الإله الحاكم قد مُلئت نفوسهم تكبرا وتسلطا، فلم يعد أحد غير العبيد يرضى تعلم مهنتهم والعمل تحت إمرتهم.

الأراضي الفلاحية ملك للمعبد وتقسم حسب الولاءات، ويعمل الفلاحون داخل الضيعات بنظام الخمس، حيث يحصل الفلاحون مجتمعين على خمس المحصول، فيما يذهب الباقي للمعبد، وكان الفلاحون يربون المواشي التي كانت ملكا لهم، لكنها تسلب منهم كلما وقع نظر أحد الرهبان أو الجنود على مليحة منها، كما كانوا يقدمون للمعابد كل سائبة أو نذر أو ميتة، ويقدمون القرابين لآلهة المعابد في المناسبات العامة والخاصة، ولايحق لهم المتاجرة بالجلود أوالصوف والوبر، فهي من حق المعابد خالصة، إلا ما استعمل في نسج الملابس والأثاث البسيط...

تراتيل الحواس المكبوتة

(وجد مخطوط هذا النص في أحد المغارات التي سكن بها قطاع الطرق، وقد وجدت مترجمة بالفينيقية ولم تترجم إلى القوطية رغم أنهم امتلكوا مخطوطتها الاصلية)

سرقت مني الكلمات ومن فمي
سُلب الصوت وكتمت حنجرتي
وانقضى الهواء من جوف بطني
وسدت مخارج حروفي وصوتي
فُقِدَ صوت الحق من جعبتي
وانسد طريقه في سواد ليلتي
تكلمت مع الحبيبة عن علّتي
ففرحت لفقداني مقدرتي
قالت باب كثرت فيه حماقتي
وفي إغلاقه وجدتْ راحتي.
نعم....

هكذا صيحات الحق في زماننا
نعتت حماقة... يا لخيبتي
سكوتي راحة لهم، كبتهم لحريتي
تهميش لي بل حتفي وموتتي.
سرق مني نور البصر ومن عيني
خُطِف التمييز ودمرت بصيرتي
قالوا الظلام سترلنا منك
والصبح نوره غدا لن يأتي
خفافيش... يعشقون ظلاما
ولي ليلهم ليلاؤه موتي
عيني ترى النور وترضى به
عينهم كبت، نبش لمقبرتي.
على أذني وضعوا حجابا
فلا أسمع إلا أصواتهم تُفتي
نهيقا، صياحا، نعيبا
وضجيجا يخفي عنّي فطنتي
تلك أصواتهم لن أسمعها
ولن تكون لحني وأغنيتي.
لساني تعطل عن كل الكلام
وعن صَريحِ حق في مقولتي
تكبيل وقمع وخفض لصوتي
كرهي عمّ بدل أن تعمّ محبتي.
يدي أُعْجِزَت عن حمل أقلامي

obeikandl.com

أو حمل سيفٍ مفتاح حريتي.
هذا هو الكتم لصوت الحق
وهذا وذاك هو سرّ حقيقتي
وفي جميع الأقطاريتم قمعي
أو يدفع لي ليُشترى صمتي
لكن..
وطني وان ثم إسكات صوتي
ستظل روحي معك ومهجتي
قومي وإن أعموا أعينكم
سيصلكم صفاء سمعتي
صوت الحق آت يظهر مشرقا
في الآفاق سينير علني وسريرتي.

يوم السبت يوم مقدس عند كل المعابد والأديرة، فهو يوم العبادة فيها جميعا، حيث يفتتح اليوم بصوت الأبواق مع مطلع الشمس، وتتوالى أفواج الرهبان وخدامهم في مشهد فلكلوري بين الأزقة والدروب، يجسدون عظمة الإله خاصتهم وقدراته الخارقة، ويستمر الاحتفال حتى استقامة ظل الشمس تحت أرجل الرهبان ومن يحيط بهم، وهناك يختفي العامة خوفا من الهاوية، حيث يدّعي الرهبان أنه من يخرج في ذلك الوقت قد تُخسف به الأرض، وأن الرهبان ما يحملهم ويحميهم غير ظل الإله الذي لا تكشفه أعين العامة، فهو حالّ في أجساد الرهبان، وبعد أن يظهر الظل مجددا يخرج العامة ليقدموا العطايا للرهبان شكرا على عدم الخسف بهم والنجاة من الهاوية، وينتهي اليوم بالرهبان محملين بالعطايا إلى معابدهم، ليجدوا ومغيب الشمس الأتباع قد وصلوا المعابد لإقامة الطقس الأخير

obeikandl.com

وهو توزيع المياه المقدسة وإشعال النيران للآلهة، يرتدي الرهبان سراويل مزركشة بكتابات غير مفهومة، طلاسم ونجوم ومربعات ونقط ودوائر وحروف من لغات شتى، رسوم لزواحف وحيوانات أسطورية تملأ قمصانهم، متكئين على عصي قد تجاوز طولها طولهم، وتتدلى منها سلاسل وعقيق لامع، وقد طالت سوالفهم وحلقت نواصيهم فبدت جباههم عريضة كالقلال المنكوسة، يحيطون بكبيرهم المحمولة على أكتاف العبيد عربته التي نصب فوقها كرسي من خشب العرعار بالكاد يحمل جسده العملاق، يلوح بيديه إلى أتباع معبده الذين يهتفون بحياته ويرجون طرفة عين من نظرته.

الأجواء مختنقة برائحة البخور التي تخلق ضبابا يختلط بروائح غريبة ثقيلة على الأنفاس، وربما يحرقون مع الأبخرة مواد مخدرة تمدهم بالطاقة والشجاعة لممارسة طقوس أكل اللحوم النيئة وأشواك الصبار والحجارة المصقولة، أوضرب أيديهم ورؤوسهم وظهورهم بالأدوات الحادة حتى تسيل الدماء منها حارة حمراء قانية، بل ان منهم من يفقأ عينه أو يغرس رمحا في بطنه أو يبقرها أو يدخل سيخا في أذنه، ومع نهاية الطقوس قل أن يصاب أحد منهم بمكروه، مما يكرس القدسية على هذه الطقوس...

في الاخير تبتدئ حلقات التراتيل، حيث ينزل راهب المعبد الأكبر ليجلس على فروة تيس قد وضعت خصيصا له، وقبل أن توضع يكون خدام المعابد قد لطخوها بالحناء والبخور وبعض الدماء المأخوذة من الأكباش القرابين، يحيط بالراهب خدم المعبد مشكلين حلقة تتكون من سبعة خدام يحيط بهم خمسة عشر من مقربي المعبد لتتسع الدوائر بعدهم حسب درجة قرب الشخص من المعبد، ثم تبتدئ التراتيل مدوية في الأرجاء كالغناء الجبلي المعروف في القبائل الأمازيغية اليوم في المغرب الأقصى...

تراتيل الانعتاق المنشود

(كتب هذا النص ضمن الترجمة القوطية لكتاب يضم أدبيات وطقوس المتمردين في عهد الملك مكاحيب)

ألا تبا ليوم حكمتنا فيه فصيلة القرود
ألا تبا ليوم نستسلم فيه للقيود
ادعوا عقولا منشدا فيها شيئا من الصمود
فتدعوني أكون واحدا من الحشود
فتبا تبا لفئران حسبتها يوما من الأسود.
ينامون ملء أعينهم مثل الجدود
وأنا عيني جفاها دهرا حلو الرقود
سأهيم باحثا للحرية عن الوقود
سأحرقهم وسأجد للعقل خير الجنود
احرقوا السنابل... امحوا كل البنود
غيبوا الشمس... ابنوا زبر السدود
سأثور وأكشف الأعين الرمود

بينما هوعائد يتخفى بين الشجيرات من الجنود الذين يراقبون سريان حظر التجوال، لتكريس عقائد المعابد وما يتعلق بالهاوية والظل والآلهة، رأى "ماسين" طفلا قد شارف الحلم، في قبضة الجند يجرجرونه جرجرة أدمته حتى خط الدم طريقا طويلا، وصرخات الطفل تتعالى وتملأ الأرجاء، إلى أن وصلوا به إلى بيت أسرته، حيث استقبلتهم أمّه ترجوهم الرحمة والمغفرة على ما اقترفه هذا الطفل الغرير من خرق الحظر، تتقدم توسلاتها فواكه وتماثيل عسى أن يرضى بها الجنود

obeikandl.com

فيخلوا سبيل القاصر، لكن رئيس الجند لم يرضه إلا خلوة بهذه الأم المكلومة على فلذة كبدها ،على مرأى ومسمع من زوجها، رضي الزوج وقلب الأم، لكن ماسين لم يرض، أمسك مدية بين حشاياه وتلبد بالحوائط يتلمس ظلها، وما إن وصل الجندي الأول حتى اسقطه بضربة خاطفة، انتبه الثاني وخرج الثالث من حضن شهوته التي كاد يدخل في قضاء إربها، تواثبوا عليه مشهرين سلاحهم، لكنه كالصقر اندفع نحوهما فقتل الأول وأسقطه الثاني، صارع الجندي ماسين فصرعه، جثا عليه بركبته وكاله لكمات تثرى، ونظرات ماسين تستغيث الزوج أن اقض عليه فما أنا فيه من أجلك، وسقط الجندي فعلا جثة هامدة... من ضربة على رأسه جادت بها يدا الزوجة والأم شكرا على تخليصها...

وبينما هو هارب خائف يترقب، أيقن ماسين أن الحادثة قد أرسلت له من السماء ليعجل برحيله النهائي من أرض الظلم، لم يسبق لأحد أن مد يده إلى جند الملك والمعبد وبقي على قيد الحياة، سارع الخطى لمحل نسخه، أخرج من بين السقف والعمود الخشبي قطعا من الذهب والفضة كان قد خبأها لمثل هذا اليوم، وانطلقت قدماه تسابق الريح وسط طرق رسمتها أيدي خوفه والقدر...

المُلك والسياسة

لطالما شكل رهبان معبدا الإله "مالس" والإله "نام لع" خطرا من الداخل على مملكة تيغالين، فهم يشكلان مرجعية دينية مختلفة عن باقي المعابد الأخرى، حيث يرى المعبد الأول وكبيره الراهب "نير" أن الملك لا يحكم باسم الإله، بل يجب أن يحكم باسم الرهبان الذين يفهمون كلام الإله ويعون مدلولات الكتب المقدسة وتعاليم الآلهة التي كتبها الرهبان السابقون واللاحقون بعد حلول الإله فيهم، فيما يرى المعبد الثاني وكبيره الراهب "مادغيس" أن الملك لا يحكم باسم الإله، وأن الرهبان السابقون قد انقضى عهدهم ولا حاجة لتطبيق تعاليمهم، وأن الأمر والنهي للرهبان الحاليين وتعاليم الإله التي ينشرونها بعد أن يحلّ فيهم في الوقت الحاضر، ولهذا فقد كان المعبدان يشكلان خطرا على شرعية حكم الملك، لكن "مكاحيب رع" غيّر طريقة تعامل أسلافه مع المعبدين، فبدل أن يستمر في شدّ الحبل والصراع معهم اختار أن يخترقهم من الداخل فيدخل لهم من يغير منهجهم، وبدل أن كانوا حلفاء لبعضهم ضد الملك جعل منهم حلفاء له مناوبة، يقرب من كثر أتباعه بالمال والإغراء ليضرب به الآخر، ولهذا كان الصراع كبيرا بين المعبدين لاستقطاب الأتباع، خاصة أن تعاليمهم معقدة لا يفهمها العامة ولا يتبعهم إلا من كان له سابق دراسة بالتعلم والتلقين، وهو الأمر الذي كان نادرا بين العامة بل وبين بعض الخاصة أيضا، وبسياسته استطاع الملك أن يأمن شرهم، مؤقتا على الأقل، ما دامت الفرقة بينهم والشقاق سار فيهم.

كان بعض الرهبان في المعبدين ينهون كبراءهم من خطة الملك وأعوانه، لكنهم وتحت الإغراءات واستلذاذ النعمة التي حلت بهم جراء قربهم من الملك

ومحيطه جعلهم لا يلتفتون للآراء الفذة أو يحاصرون صاحبها، وقد يدبرون المكائد له سجنا أو قتلا، وكانوا يجدون في الملك عونا وسندا لهم في ذلك.

استطاعت مملكة فينيق أن تقيم علاقات سرية مع معبد "نام لع"، وقدمت له المال والدعم حتى صار معبدا قويا يحدد رغم ضعف أتباعه سياسات مملكة تيغالين بفعل ما له من سلطة داخل القصر، وبما يملك أتباعه ورهبانه من وسائل الإنتاج الفلاحي والحربي والتجاري، بل أصبح يفرض بطرق شتى قرارات على الملك، وقد فطن الملك لما يفعلونه في المملكة من استقطاب وتمرير لكلامهم القديم على غير قريب عادتهم، فقرر أن يحاصر معبدهم ويغلّب عليهم معبد "مالس"، لكن يبدو أن انشغاله بالخطر الفينيقي القادم من الشمال أصله ومستعمراته، ومن الغرب محضنه وامتداده، قد جعل المعبد يتقوى يوما بعد يوم في انتظار ما سيكون بين مملكة تيغالين ومملكة فينيق.

حاول الملك ربط علاقات مع الامبراطوريات والدول الكبرى علّه يجد مساعدة أو سندا له ضد مملكة فينيق، لكن كل الممالك والامبراطوريات الكبرى كانت تطلب المقابل، ومهما قدم الملك كانوا يطلبون أكثروأكثر، لذلك ملّ من التقرب إليهم وقرر أن يعتمد على مملكته فقط.

كان محيط الملك من أمراء وقادة لا يهتمون إلا بالاستمتاع بما يعود عليهم من منصبهم ونسبهم من الملك، لا يهتمون بأمر سياسة أو حكم، يعيثون في الأرض فسادا مستمتعين بخيراتها ومستبيحين حرمات أهلها، لا حسيب ولا رقيب عليهم...

الموج الثاني

تيغالين: حينما تتداعى الأكلة إلى قصعتها

القصر والنساء والكيد العظيم

نظم الحفل السنوي الذي يختار فيه الملك جواريه ونساءه، ويختار بعده الخاصة ما يشاؤون من النساء ليتمتعوا بهن ليال أو يتخذونهم جواروحريم...

وسط النساء جلست تليلا تغني رفقتهن أهازيج محلية تعلمنها من الجدات والأمهات، تمجد الآلهة وعطف الملك الذي يتواضع ويقرب من شاء من النساء إلى جواريه وخاصته، تُحرك فمها معهم لكن فكرها في مكان آخر، هناك حيث انقطعت أخبار "ماسين" حبيبها، لا تسمع إلا صوتها والدمع يخط على الخدين حكاية حلم صغير لم يكتب له أن يتحقق، محاصرا بين أحلام حبيبها الثورية والسلطة القمعية الفاشية، تتقطع أوصال قلبها ويجف عود أنوثتها بعد أن غادرها غيث حياتها، ترتسم صورته بين الأشجار التي كانت تشهد كل مرة على حبهما ولقاءاتهما، في السحب التي كانت تختلس النظر لهما وهما يختبئان من كل عاقل أو فاضح من بهيم، قلبها يعتصره الألم ووجهها تحرثه الدموع ليَزرع فيه الفراق والآلام والأحزان، ولتحصد موتا وما هو بموت...

يا حبيبي..يا حبيبي
سافر واطمئن
فإني في الانتظار
سأقاتل ... فقاتل لتكون نصيبي
أنت وطني... فاجعلني وطنك
في عينيك يطيب الاحتضار
سوف أبقى هنا

مهما طال الزمن
وترادفت المحن
سوف أنال المنى
دونك يحلو الكفن
آلهة السماء معنا
سننام يوما ملء الجفن.

أرسلت تغاريدها إلى السماء متناسية الاحتفال، فلا احتفال والحبيب غائب، تمنت أن تغني الطيور لحنها ليصل إلى مسامعه حيث يوجد، ليعلم أنها صامدة فيصمد، ليعلم أنها منتظرة فيعجّل، ليعلم أنها عاشقة فيتزودّ صبرا واحتمالا...

من بعيد كان الملك يراقب العذارى بين جموع النساء، وقد وضعن على رؤوسهن غطاء خاصا ليميزهن عن الثيبات، يطمع أن ينال أنيسا له لليلة أو اثنتين كعادته في هذه المناسبات، لم يكن يظن أنه سيجد بين الحضور ملاكا آدميا يهز قلبه كالطير المبلول، شاهدها فتسمرت عيناه في محجريهما ترقبان تفاصيل وجهها وجسدها، وطارت به الأحلام إلى متعة اللقاء بها دون أن تصطدم بمانع أوحائل، فهو الملك الذي لا يرد له طلب، ولا تمتنع عنه بنت حواء، أشار إلى حاجبه المكلف بهذه الأمور، وعيّن له الفتاة بعينيه مشيرا إليها، ولما لم يكن من الآداب السلطانية سؤال الملك، فقد توجه الحاجب فجلب كل العذارى من الفرقة المؤدية، ليختار الملك منهن ما يشاء، سعدت الفتيات بحظوة الملك، فكلهن يحلمن بيوم كهذا ولأجله خرجن، إلا تليلا فقد تجمدت الدماء في عروقها وكان المصاب جللا كاد يغمى عليها من أثره، تذكرت الحبيب الغائب والحائل الجديد دونه الذي انضاف إلى الحوائل السابقة... (يا سخط الآلهة ماذا سيحل بي؟)

داخل القصر وجدت " تليلا" نساء كثر، من خلال ملابسهن ميزت بين الزوجات والجواري والخدم، كن جميعا ينظرن لها نظرات غريبة لم تستسغها، ولم

تفهم معناها، توجهت بها مضيفة القصر إلى الحمام، وقد كانت عجوزا سوداء البشرة قد بدا عليها الوقار وخطّ الزمان على وجهها آثار تقدمه، كان الحمام أوسع من دارها التي خلفتها وراءها، هناك في القرية حيث تعيش وأمها وصبية صغار، دون أب مات قهرا بعدما صادر رجال المِلك أمواله كلها منذ أن كانت طفلة غريرة، نزعت "تليلا" عنها الملابس، وبقي الجسد النحيل كأنه ريشة تهزها نسمات الرياح الغربية في مساء الصيف الحار، المسبح الذي يتوسط الحمام عميق وصل بطنها وهي واقفة، وغرقت فيه حينما تمددت على ظهرها، ماؤه دافئ يزيل أدران الجسد لكن للروح مقاييس أخرى، استسلمت للماء والدفء وغادرت دار الواقع إلى فضاءات الأحلام والخيال...

- أنت محظوظة يا صغيرتي لأن الملك نظر إليك بعين رحمته، ويبدو أنه مهتم بالغ الاهتمام بك، ومن خلال خبرتي الطويلة في هذا القصر ما رأيته يتحرق شوقا لفتاة كما يفعل الآن، فقد سأل هل أعددناك ولم يمض الوقت الكافي لذلك (تقول مضيفة القصر بكلمات واثقة)

-(تليلا بصوت هادئ مستسلم) كم تظنين أنني سأبقى هنا؟

- على الدوام

-(تليلا فزعة) على الدوام...

- لقد أعجبت جلالته يا بنيتي، وراقته طلتك البهية وثغرك الباسم، وربما يأمر أن تبقي من جواريه في القصر على الدوام... (استمرت المضيفة في كلامها محاولة أن تبشر تليلا بما قرأته في أعين الملك، لكن الأخيرة سافرت مرة أخرى في عالم الخيال تحاول أن تبحث لها عن سبب لتَوالي الأزمات عليها)

فجأة يُفتح الباب بقوة فإذا بامرأة مدججة بالحلي تلج الحمام، فتنحني المضيفات لها، وتومئ كبيرتهن ل"تليلا" بالانحناء، فتفعل.

- إذن هذه هي... ارفعي رأسك أيتها الجارية (تتحدث المرأة بكل قسوة وعجرفة مستصغرة كل من أمامها كأنها إلهة من الآلهة التي كثرت في أرض تيغالين دون أن يكون أحدها مخلصا لما يعيشه الشعب من أزمات ونكسات)

-(ترفع "تليلا" رأسها) مرحبا مولاتي

- (بضحكة مستهزئة) من أين لك الجمال، يبدو أن ذوق الملك يتناقص يوما بعد يوم (وتخرج بانفعال)

- من هذه؟ (تسأل تليلا وكأنها تريد معرفة طبيعة الأزمة الجديدة التي قد تضاف إلى سلسلة أزماتها)

- إنها "زليخة" كبيرة زوجات الملك وأم ولدين من أولاد مولانا الثلاث (تجيب المضيفة)

- إنها متعجرفة جدا (تقول تليلا وتتابع مداعبتها للماء مستعدة للدخول إلى عالمها الخاص مرة أخرى)

- (تتغير ملامح وجه المضيفة انزعاجا) لا تعودي لمثل هذا الكلام، إنها زوجة مولانا وروحه مطلعة علينا.

استسلمت "تليلا" لحمام المضيفات الذي انتهى صمتا، وبعده زيّنّها ألوانا من الملابس الزاهية المعطرة بأرقى العطور، وزيّنّ وجهها بدهانات وألوان لم يسبق لها أن رأت مثلها، لكن بالها ظل منشغلا بالمصيبة الجديدة التي حلت على رأسها، كيف لها أن تقضي بقية حياتها في القصر، بعيدا عن الحبيب وحلمها والأمل الضئيل في تحقيقه، كانت تظن أنها ليلة أو اثنتان وينقضي الأمر، لكن كلام المضيفة ونظرات الملكة غيّرت رؤيتها للمستقبل...

في غرفة فخمة جلست الملكة " زليخة" على أريكة حريرية، تتوالى نسوة الملك عليها الواحدة تلو الأخرى دخولا وتحية.

- (كلما دخلت امرأة من نساء الملك تحيي زليخة أولا ثم تومئ لمن سبقها في

obeikandl.com

المجلس برأسها تحية لها) عَظُمْتِ زليخة سليلة الآلهة وزوجة الإله

- عِمت مساء (ترد زليخة التحية)

- ما الخطب يا "زليخة"؟ لما هذا الاجتماع على غير العادة؟ (تقول إحدى النسوة)

- (زليخة مستهزئة) طبعا "تلايتماست" نائمة كالعادة، ودار الغفلة مقامها، والقصر يغلي انتظارا لتعيين ولي العهد.

- وما شأننا نحن وأمور الرهبان والملك؟ (تقول كسيلة ببلادة)

- ومتى كان الأمر مختص بهم فقط يا "كسيلة"، أريدكن أن تتحالفن معي ليكون ابني "أمغار" وليا للعهد (تقول زليخة بحزم وثقة)

- وما الفائدة التي سنجنيها نحن يا "زليخة" وبطوننا جميعا لم تلد إلا إناثا؟ (تقول كوما أصغر نساء الملك)

- أعرف طمعك يا " كوما " بل طمعكن جميعا، فلا تخفن لكل منكن نصيب ستجنيه، وعندي المقابل الذي يمكن أن يرضيكن جميعا

- لكن ابن "ماتيا" يحظى بدعم "أمسناو" وهو أحكم الرهبان وصوته مسموع، كما أن "غيلاس" يستحق (تقول كوما موجهة كلامها لزليخة التي استدبرت النسوة)

-(زليخة ساخرة) ومتى كان المُلك بالاستحقاق؟ أم أنكن نسيتن كيف وصل " مكاحيب" للحكم.

خلف الباب خادمة تسترق السمع، فيصل بالحرف وكثير المؤثرات إلى " ماتيا " التي تدخل على النسوة دون استئذان ولا تحية

- أي كيد تكدن يا نساء الملك في حضرة "زرشات"؟

-(زليخة غاضبة) لقد بلغت وقاحتك أن تصفيني بإله الشر أيتها الوقحة، لتحلنّ لعنتي ولعنة رالود عليك وعلى نسلك.

-(ماتيا ضاحكة) وهل تظنينني ساذجة حتى أصدق أن الإله يحل في أمثالك.

- تبا لك أتشككين في ألوهيتي؟ يبدو أنك نسيت من تكون زليخة وما تستطيع فعله.

-(ماتيا ساخرة وفي طريقها إلى باب الخروج) طبعا طبعا... ألم أقل لك " زرشات".

تترك " ماتيا" خلفها "زليخة" تستشيط غضبا وهي تعرف أنها قد أيقظت نارا للحرب تختلف عن سابقاتها، حرب تختلط فيها غيرة النساء وطموحات السياسة، يمكن أن توظف خلالها كلاهما سياسة الأرض المحروقة، فلا أمطرت السماء بعدي.

كان القصر يموج بحرب باردة خفية بين نساء القصر، لكن هذه الحرب ظهرت للعلن واستعرت حينما كبر ابنا زليخة وماتيا وطمحت كل واحدة منهما أن يكون ابنها ولي العهد، أما باقي النسوة فانحسر طموحهن لأنهن لم يلدن غير البنات، فالنساء في المملكة قد يكن آلهة لكنهن لا يكن ملكات قط، حالفت بقية النسوة زليخة تارة وماتيا تارة، يحاولن أن يستفدن من لظى الحرب كي يضمن مستقبلهن ومستقبل بناتهن قبل وفاة الملك، فبعد وفاة الملك يؤول كل شيء للملك الجديد ويسير البلاد والثروة ويهب من يشاء ما يشاء ويمنع عن من يشاء ما يشاء، حتى ألوهة النساء يمكن أن تنتزع منهن بأمره...

داخل القصر كانت حروب أخرى لا تقل خطورة عن حروب النساء تستعر كل يوم، لكن أطرافها يجتهدون ليخفوا شررها عن الأعين حتى لا تنكشف أسرارهم، حرس الملك وقياداتهم والجواسيس وحتى الخدم، الكل في حرب ضد الكل، والكل يبحث عن حلفاء ضد الخصوم، والكل يهاب بطش وجبروت زليخة ويحذر من ذكاء وفطنة ماتيا...

المقاومة والنضال الأصفر

وجدت "تليلا" نفسها وسط إستبرق وزبرجد وجنى البساتين والمزارع الملكية دان منها، لكنها لم تستطع التقاط فاكهة من الأنواع المختلفة التي ملأت الصحن الكبير وسط الغرفة، والتي لم تر الكثير من أصنافها قبل اليوم، وقد كانت من قبل تتمنى أصنافا أخر أدنى طعما وقيمة منها دون أن ينالها فقرها وحاجتها، ترتدي ثيابا برتقالية تتماهى مع جمالية المكان وإثارته الجنسية المعهودة للملك في مثل هذه المناسبات، تنتظر الملك أن يحل عليها ليجدها شهية بهية، بدت مستسلمة تنتظر القضاء الذي حلّ عليها ولا مهرب منه، حتى الدموع لم تغادر مقلتيها واتخذت من المحجرين مسكنا ومسبتا، تدور بها الأفكار بين سعادة الطفولة البريئة وحلم الاجتماع بالحبيب الذي حالت آلاف الحواجز بينه وبينها، فكانت من المغرقين في عتمات بحر لجي يموج بالحزن والأسى، يغشاه موج من فقدان الأمل والرجاء، تحملها موجة وتلقي بها الأخرى دون الأمل في شاطئ قريب، تلفها في دوائر لا مخرج منها، ترى نفسها أحيانا طيرا يرقص من شدة الذبح، وموؤودة تختنق تحت رمال الظلم والطغيان والإهمال أحيانا أخرى، ترى نفسها ريشة تلعب بها الريح دون أن تستطيع لها صدا ولا ردا، كالذبيحة التي قيدت ومدت رقبتها لسكين لا يفلت حامله روحا إلا أزهقها...

ينفتح الباب فإذا بالقلب يطرق باب الصدر حتى كاد يخلع أبواب القفص الصدري، وتنحبس النفس في الصدر رصاصة بين المقل، فينفلت الدمع وتندفع الرموش مدفوعة من هول الكدر، الملك في لباسه الملكي الكامل يدخل عليها، يرمي السهام ويقترب نحوها، يبدو لها في منظر المفترس الذي يستعد لالتهام فريسته الضعيفة...

- ملاك مستلق تضوعتْ أريجا به أرجاء القصر فحملتني إليه بغير قصد ولا عزم، ما بال الدمع قد خط على الخدين وديانا والأثر باد على المقل؟...لماذا لا تتكلمين؟ ما اسمك؟

- (متلعثمة) "تليلا" يا مولاي

- وما بال تليلاي يبدو عليها الحزن والفزع؟ ألا يكفيك أن سيد تيغالين قد اصطفاك وقربك واصطفاك من عذارى الأرجاء، ومن قبل ما كنت ترجين من هو أحقر منا شرفا وعزة ومجدا؟ أم هو وقع المفاجأة والفرح؟ (الملك متعاظما كطاووس يرسل ريشه المزخرف نحو الآفاق، لكن زخرفته مبتذلة لا تغري امرأة كتليلا)

- عفوا سيدي إن عكّرت مزاجك لكن...

- لا عليك فهكذا يكون شأن العذارى (ويزيل الملك مزيدا من ثيابه)

ما إن احتضن الملك "تليلا" وقرّر أن يفترسها بأنياب فحولته المتجدرة سلفا بعد سلف، حتى أحس بيد توكزه في صدره، وعلى ضعف الوكزة ووهنها إلا أن ملكا متألها لم يسبق له أن أشير إليه بطرف عين أو أصبع أحس بها عظيمة عظمة تلخص معاني الجرأة على من لا يجوز في حقه نية التجرؤ، وجدت تليلا نفسها مبتعدة عن الملك وتجلس القرفصاء في ركن من أركان الغرفة، والملك يحدق بها تحديق من ينوي شرا، باردة كالحمامة المقنوصة وباهتة كشمس غربت من غيمة ومن سقْطِ المُزن حين العاصفات، لم تكن تتخيّل أن لها شجاعة مقاومة الملك الإله، وهي التي كانت تنهر حبيبها لمجرد بوْحه لحافظة أسراره بما تكنه النهى وتختزنه العقول، اعتبرت حياتها انتهت وكادت تترجى الملك أن يعفو خِطأها العظيم... لكن الملك حمل ملابسه وخرج دون أن ينبس ببنت شفة، تجمدت قدماها حتى أنها لم تستطع اللحاق به لتستعطفه، وما اللسان عن حالهما ببعيد.

دخلت المضيفة الغرفة لتجد تليلا متسمرة كما تركها الملك، كانت تليلا تغير ملابسها على يدي المضيفة دون أن تحس بكلامها الكثير التي كانت تثرثر به، كان ذهنها منشغلا بما حدث، بالثورة التي قادتها على مفاهيمها وتقاليدها ومعتقداتها قبل تلك التي شنّتها على الملك الإله، تفكر في العواقب تارة وفي المنطلقات تارات أخرى...

obeikandl.com

تراتيل الخطيئة والتكفير

(وجد هذا النص مكتوبا بلهجة أمازيغية لا تزال تستعمل في بعض مناطق المغرب مع وجود كم هائل من المصطلحات الفينيقية في النص وقد ترجم مباشرة إلى اللغة العربية)

لنا الصبر في تحمل خطايا البشر
فالخطء من آدم إلينا اتصل
وسار على درب التفاحة وحواء حتى وصل
فأنّى لنا غير الموت من أمل
فلا تسأل سيدتي عن رجل لما اعتزل
فلا عيب في الحسن ولا في المقل
إنما في فكر وقلب لم يغتسل
أنا كالتائه بالمنايا منتحل
كالغريب قلبي للعمى انتحل
والآدميون كالنوق خلف الجمل
وأأبى الرضوخ لما دون الحَمل
مني إلي سيدتي لا تمل
وأنا إليها محبط الحروف والجمل
فما كان مني إليها ما وصل
فالحاجز بيننا جدار فصل
وما كان منها إلي اعتقل

obeikandi.com

أسقط الروح وما ترك العقل.
لنا الصبر في تحمل دنايا البشر
فالدناءة فينا طبع قد ارتسم
وسرنا على درب الجهل ففينا اتسم
فأنّى لنا غير العزل من معتصم
فلا تبحثي سيدتي عن رجل ظهره انقسم
فلا مكان لي بين ناب اتسم.
أنا الضعيف وقلبي اعتصر
على البرايا ودنو انتصر
فما لك حزن قلبي اقتصر
أين البرية وأين البشر.
أناديك مليكي أين الأجل
فالقلب قد أعياه الوجل
وما دعوت بموت مني على عجل
بل إلى قضاء منك أو قدر.

وسط الغابة الكثيفة يمشي "ماسين" متثاقلا من شدة التعب، يحمل على ظهره كيسا مملوءا، وقطرات الندى تسقط على رأسه المعفر ترابا وحشائش، ووسط الرأس موج من أفكار وتساؤلات حول القرار والمصير، من أين أتى وإلى أين يذهب، التاريخ والواقع والمصير، دوامات يصارع داخلها منذ ولد وربما إلى أن يموت، فجأة تحاصره مجموعة من قطاع الطرق مدججين بالأسلحة البيضاء، وليس بين الأسلحة أبيضا، بينما يشير إليهم بعلامات الاستسلام منبطحا على الأرض، أوثقوه واقتادوه إلى غار معصوب العينين ورموه هناك مدة من الزمن لم يتذكر تعداد ساعاتها المتمرغة في الظلمة والجوع والعطش، لكنها كانت بالنسبة

obeikandl.com

إليه دهرا طويلا، إلى أن أغمي عليه مثلها، ولم يستفق إلا وسطل ماء يفرغ فوق رأسه، فاتحا عينيه بصعوبة من وهج ضوء الشمس الذي لا يذكركم مر من الوقت دون أن يراه، جره أحد الرجال إلى شخص يبدو أنه قائد المجموعة، وقبلها أعطاه جرعات من الماء لم تطفئ ظمأه ولا أغنته من عطش.

- من أنت أيها الحقير؟ وكيف تجرؤ على ولوج غابتنا المحصنة؟ (قائد المجموعة وعلى لباسه أثر نعمة ورفاهية غير معتادة وسط الغابات)

- سيدي أنا عابر سبيل فررت من بطش مملكة تيغالين إلى حيث ينتهي بي المقام ولست عدوا ولا أضمر شرا (ماسين متحدثا بصعوبة من شدّة التعب)

- ولكني لا أرى معك واجب العبور الذي يقدمه كل عابر لغابتنا أيها القروي الحقير(الزعيم متفحصا ماسين بعينيه)

- (فجأة يدخل أحد الحراس فزعا) سيدي سيدي عسكر ثوار"مازغ" على بعد يومين من حصوننا لقد رصدتهم قوات الحماية الخاصة بنا.

يخرج الرجال جميعا فزعين ويبقى "ماسين" وحارس يعيد له ما فك من وثاقه، ويُهَمْهِمُ بكلمات الامتعاض والاعتراض على الهجوم وما سيخلف من إرباك وأموات، ليبادره "ماسين" قائلا:

- من هم عسكر "مازغ"؟

- إنهم متمردون على ملك تيغالين يحاولون القضاء على كل قطاع الطرق أمثالنا أو جمعهم في جيش لمحاربة مملكة تيغالين

- ولماذا لا تتحالفون معهم؟ (ماسين وقد التمعت عيناه أملا بعد قنوط)

- القائد "زيان" من يقرر، وليس لنا نحن إلا السمع والطاعة، رغم أن عسكر "مازغ" قوي جدا ولا طاقة لنا بهم

- بإمكاني أن... (ماسين مترددا) أن أجعلكم تدحرونهم في أقل وقت ممكن، أريدك أن تخبر قائدك "زيان" هذا بالأمر

- (ضاحكا) هل تمزح، كيف يمكن لهزيل جسم مثلك أن يجعلنا نقهر من لا قبل لنا بقوته وجمعه؟

- ما عليك إلا أن تخبر قائدك أرجوك

- سنرى..

خرج الحارس ولا يبدو في نيته أن يخبر القائد شيئا مما تفوه به "ماسين"، وذهب إلى جمع الرجال الملتف حول القائد "زيان"، يتدارسون خطة التخفيف من أضرار ضربة "مازغ" وقواته، توالى مستشارو "زيان" الواحد تلو الآخر تحمل نظراتهم كما الكلمات الخيبةَ والفشل، و"زيان" يصرخ غضبا وسبّا من فقر خطط رجاله، في الخلف يوشوش الحارس لأحد المقاتلين أن الأسير الجديد يدّعي أن له القدرة على جعل جند "زيان" ينتصر، لكن المقاتل يرد أن تلك حيلة للنجاة ليس إلا، ولكنه رغم ذلك ولحاجة في نفسه أبداها خوفه، وبعد انتهاء جمْع الرجال يخبر "زيان" بالأمر فيطلب الأخير أن يتوجه للمحبس لإحضاره.

- هل صحيح ما تدعيه أيها الغريب؟ (زيان آملا أن يجد من يخلصه وينقذ منصبه)

- نعم سيدي لدي من الخطط الكثير ما يجعل نصرك أكيدا

- (يقترب منه) أنت تعرف مصير من يلهو مع القائد "زيان"

- نعم سيدي مقامك محفوظ لكن الحل معي

- إذن هات ما عندك

- ليس عندي شيء

- (زيان غاضبا) هل تمزح معي أيها الوغد؟

- لا لا سيدي هوّن عليك، قصدت أن خططي في كتبي التي صادرتموها

- أتقصد في ذلك الكيس الحقير الذي وجد معك

- تماما سيدي

- لكنها لا تحوي إلا جلودا وكراسات

- هي تلك يا مولاي

- (مشيرا إلى الحارس) أحضروا الكيس

يطلب "ماسين" الانفراد بالقائد "زيان" ويواصل أخذ المعلومات منه عن عسكر "مازغ" وتنظيمهم وأسلحتهم، ويفتح الكتاب تلو الآخر شارحا ومبينا ومفصلا خطّته التي سيواجه بها "زيان" جند "مازغ"، لكنه في نفس الوقت يحاول إقناع "زيان" بالتحالف مع "مازغ"، الذي وجد فيه بعضا مما خرج من أجله، ضد الملك "مكاحيب" دون جدوى، ويتواصل الجدال والأخذ والرد إلى أن اقتنع "زيان" بالخطة دون التحالف، وقرر تنفيذها وجنوده، وتقتضي أن يحفر جند "زيان" خندقا حول حصونهم ويقسم الجنود إلى فرق تتولّى الأولى استدراج عسكر "مازغ" للخندق المغطى بالتراب، والثانية سد الآبار ومصادر المياه في المنطقة، وتتولى الأخيرة المتكونة من الرماة القضاء على الفارين من عسكر مازغ نحو معسكرهم أو نحو حصون "زيان" التي سيبقى فيها بعض الرجال لتحصينها ومقاتلة من يفر إليها.

انتهى "ماسين" من لقائه و"زيان" وقد أصبح له رصيد ثقة مهم عند الأخير، هذا الرصيد تضاعف بعد أن احْتُفِيَ به وسط حصون "زيان" بعد نصر كبير على عسكر "مازغ" وأسْر قائدهم، لكن "ماسين" أحسّ بالذنب وهو الذي خرج هربا من حكم جائر ليجد نفسه يدعم قاطع طريق...

حينما أحس "زيان" بفاعلية خطة "ماسين" ودهائه الحربي وحنكته في إدارة المعركة وقدرته المبهرة التي لم يكن يعرفها في نفسه حتى "ماسين"، وفي استباق للأحداث وتقدير الفعل ورد الفعل العسكري، قال عسى أن ينفعني هذا الغلام حتى أكون قائد الغاب أو أكون من المُهابين، وجاء أحد الحراس ينادي "ماسين" من غرفته الجديدة المترفة أنْ لبّي نداء القائد "زيان" فإنه يريدك لأمر فكن من المبادرين، فلما جاء إليه قال إنك اليوم لدينا مقرب مهاب الجانب، وضمّه إليه

شكرا وإكبارا وقال إني أريدك أن تكون مستشارا لي أو قائدا حتى أنال ما أريد طموحا، وبعد ذلك إن شئت ابق معززا مكرما أو اذهب إلى حيث كنت تريد، قال ما أريد إلا أن أذهب إلى حيث أريد، وما لبث أن أزال تجهّم القائد زيان حين قال وأنت الآن ما أريد، قال وكيف تحوّل قصدك فينا من عابر إلى مقيم واجدٍ ما يريد، قال قد خرجت دياري قاصدا عاصمة تمجّد العلم وأهله وتمجد الإنسان وقد منّ علي عقلي أن أرشدني إلى ما أريد، وقد كان من قبلُ أقرب إلي من حبل الوريد، اليوم ألبث عندكم على أن تتبعون قولي وتفعلون ما أريد، وما أريد إلا أن أجعلك ملكا وأجعل قومي من المكرمين، وهذا كما ترى أكبر مما كنت تريد، قال ذلك وعد بيني وبينك وقد أظهرت اليوم لي أنك قوي داهية ومن العالمين، فافعل ما تشاء ستجدني عونا لك وسيكون بيننا ميثاق شرف لا أخلفه أنا وأعلمُ أنك لن تكون من الخالفين.

فلما صنع "ماسين" لنفسه مكانا عند القائد "زيان" وعزم أن يحقق أحلامه بأرض غير تلك التي كانت مقصده بادئ الأمر، فطن أن الاستعانة بمن له التجربة أمر لازم وضروري، فتوسط ل"مازغ" عند القائد "زيان" على أن تكون ثورة ويكون من العالين، فأفرج عنه وعن رجاله وكوّن "ماسين" تحالفا بين القبائل التابعة ل"مازغ" وأتباع القائد "زيان" وكان حلفا قويا وحزبا شديدا، وهابتهم القبائل المتمردة عن حكم مملكة تيغالين فمنهم من انضم للحلف طوعا وانضم آخرون كَرها بحرب أو بدونها، وكان كل ذلك في وقت قليل.

تيغالين في الكتب المقدسة (٣)

وردت تيغالين في الكتب المقدسة المعتمدة من طرف اتحاد معابد الشاطئ الشرقي من بحر الظلمات، وورد تاريخها في كتب الرهبان الذين وضعوا الكتب بعد اندماج روح الإله بهم وحلول قوته فيهم، وسنعرض تواليا مقولاتهم عن المملكة ومختلف الجوانب المرتبطة بالحياة الاجتماعية بها :

(اقتلوا كل مخالف، ولكم في الأرض قوة وتمكين، اقتلوهم كما تشاؤون ولا ترحموهم، فما خالفوكم إذ خالفوا ولكنهم خالفوا الإله العظيم الذي خلقهم وحماهم وأمرهم بطاعتكم، إن خطرهم لعظيم وبطشهم لشديد إن تعاظمت قوتهم وبسطت سيطرتهم، واعلموا أن قتل القليل خير من قتل الجمع والعباد، فهم تجرؤوا حين الضعف، وإن جُرأتهم لأعظم حين التمكين، احفظوا أرض تيغالين، فهي مركز العالم الذي به يحفظ توازن العوالم، فإن أسقطوها انتهى الزمان وحلت فيكم نهاية العالم، الحكم ل"رالود" بالمَلِك لسانا قولا وفعلا، والمَلِك ب"رالود" ملكا فلازموه عونا وسندا وقوة، واحذروا أن تُروا العامة تعاليمكم كلها، اخفوا بعضها وأسكنوهم قلاع الجهل والفقر والحاجة، ولا تسبغوا عليهم النعم فيشبعوا فيعتزلونكم كما تعتزل الكلاب والقطط أصحابها حين الشبع، فإن هم ظلوا جياعا تبعوا الخطو وامتثلوا الأمر وعظموكم ووقروكم، ففهمهم قاصر ورجاؤهم وافر وطمعهم فيكم كبير.

يا أتباع رالود العظيم إن لكم في الكذب منافع ومسالك، فاجتهدوا في الاختلاق إلا على بعضكم، به تسودون وبه تحكمون وبه تُتَّبعون، حاربوا غباءهم وطمعهم وأنانيتهم، اخدعوهم بالحق بدل أن يخدعوا أنفسهم المجبولة بالباطل، اجعلوهم قطيعا واحدا تسوقونهم إلى حيث أريد، فلا فطنة لهم ولا حسن تصرف،

واحذروا أن يتصلوا بعقائد الآخرين غيركم، فغرورهم كبير، وفهمهم خطير وذوقهم حقير.

قد كان لكم في عباد لي قبلكم عبرة كبيرة إذ وصلت إليكم قصصهم وعرفتهم ما حل بهم بعد أن اتبعوا غير نصحي وتوجيهي، وزاغوا إلى غير طريقي وسبيلي، فلا تعيدوا أخطاءهم، ولا تعاودوا عثراتهم، فتنقلبوا إلى ما صاروا إليه، وتصيروا إلى ما ندموا عليه.) وردت هذه المعلومات في الكتاب المقدس الذي وجد في تابوت أحد الملوك القوط الذين حكموا المنطقة بعد زوال مملكة تيغالين ويسمى هذا الكتاب " أيور"، وقد كتبه الراهب " تازيري " كبير من كبراء رهبان معبد "رالود" السابقين، ويعتبر الكتاب الأعلى في كل المعابد وليس منه نسخ مكتوبة أخرى فقد كان محفوظا في الصدور بين الرهبان.

وجد "مكاحيب" نفسه يفكر في الفتاة الوحيدة التي صدّته، ولما عاود رسم ملامح صورة رفضها له وتصوره لنفسه كإله لا يعصى، توجه إلى " تليلا " في الغرفة المخصصة لها، دخل ونفسه تبطن الأذى والسوء لها، لكنه ما إن ولج الغرفة ووجدها تغط كالملاك في نوم عميق كأنها رضيع بعد جرعة حليب من ثدي أمه، لم يحس بنفسه إلا وهو نائم يحتضنها ويلصقها إليه فيضمّها ضمّا كأنه يحميها من نفسه التي بين جنبيه، وغطّ في نوم عميق لم يوقظه منه إلا محاولة "تليلا" التملص من حضن أحست به كجدران سجن يحبس أنفاسها، قال ما خطبك أيتها الفتاة؟ أترفضين الملك؟ قالت إنك ملك عظيم وجاهك كبير وأنا ضعيفة في مملكتك وليس لي حيلة، لكن قلبي قد شغف بغيرك وجسدي قد عاف سواه وإن لم ترحمني لأكونن حرضا أو أكون من الهالكين، خرج الملك مرة أخرى شبيهة بسابقتها لا يعرف ما يقدم وما يؤخر مع فتاة ملكت قلبه ومن قبل ما كان يظن الأمر قابلا للحدوث.

انتشر تمرد "تليلا" على فراش الملك وحب الأخير لها وغفرانه لعظيم جرمها في حقه في كل أنحاء القصر والدور التي تحيط به حيث يأوي خدام القصر، وقالت نسوة القصر بدوية حقيرة تعف نفسها عن فراش الملك قد بلغت من الجرم أمرا، نوت زليخة بالملك سوءا إن لم يكن ابنها وليا للعهد وتعود إلى مكانتها في قلب الملك بعد أن يقتل تليلا أو يطردها شر طردة، وهي التي لها جاه داخل القصر وكلمة يسمعها الخاص والعام، ولها رجال وصوت مسموع في كل أرجاء المملكة، فوالدها من يروج أنه صنع من "مكاحيب" ملكا، بعد أن لم يكن أبوه يريد مِلكا غير ابنٍ آخر له قضى في ظروف غامضة.

عرض الملك على "تليلا" الزواج فتمنعت وقربها إليه فتملصت، ومن فرط الهوى تركها لعل الإحسان يحدث في قلبها ما لم يحدثه السوط والعنف في جسدها الهزيل، وعلى مرأى ومسمع من "زليخة" التي زاد حقدها على الملك، وانقلب حبها الأسطوري له كرها، بعد أن فضّل عامية على خاصة من خواص المملكة، وما كان يحبسها عنه إلا طمعها أن يكون ابنها "أمغار" وليا للعهد ووارثا للمملكة بعد والده، فقد ضحّت بالغالي والنفيس من أجل ذلك، ولا تريد أن تهدم مجد مملكة بمعول غيرة امرأة، قدّمت الهبات لجل الرهبان وجعلتهم أتباعا لها بالمال والمؤامرات، وما كان الملك يحسب أن زليخة تقف ضده، فقد كان يعلم مقدار حبها له وما قدمت قبل المُلك وبعده، ولهذا كان يأمن جانبها ولا يقف عند فورات غضبها المتكررة، ولا حتى على تهديداتها له ووعيدها إياه.

الرهبان أفيون الشعب ووقود الملك

تتعدّد أديرة ومعابد الرهبان وحتى عقائدهم لكن قصتهم واحدة، إنها قصة إخضاع العامة للملك ولبطشه وحتى لنزواته عن رضى منهم وطواعية، إذ يتمتع كل معبد أودير بالحماية والمناصب والهبات، يتمتعون بكل ذلك مقابل أن يجعلوا من الملك مهاب الجانب باسم العقيدة التي يسوّقونها، فالكلام سرا عليه يعد جرما لا يؤمن عقابه من جنود الآلهة الخفية المتمثلة في الأرواح الشريرة وقوى الطبيعة المختلفة، عالم من الماورائيات يخيم على ثقافة العامة يجعلهم يخضعون عن رضى ويدافعون عن خضوعهم وعقيدتهم فيه، وكذلك حكم ملوك تيغالين قرونا على نفس النهج والخطة، لقد كان لراهب معبد "رالود" مكانة خاصة وقيمة بين الرهبان، فقد كان "أمسناو" عارفا بدقائق المعتقدات ويحوز وثائق لم تؤت لغيره من الرهبان، وكان حكيما له من الحنكة ما جعله يحظى باحترام الجميع خصوما وحلفاء، ولم يكن ينازعه في مكانته إلا راهب معبد " خيرة " ليس لمنافسته لمناقب "أمسناو" الكثيرة، ولكن لأنه كان على رأس أكبر معبد من حيث الأتباع والثروة، ف"خيرة" معبودة العامة وتحت يديه ألوف المريدين، وله أتباع في الجيش والقوى المختلفة في المملكة، وله نفوذ إقتصادي لا يضاهيه فيه أحد، كما أن " اكنار" هذا من نسب عريق، فقد كان أجداده على الدوام خدام القصروكان لهم قوة عسكرية تابعة لهم لم تكن لبقية المعابد مثلها، وقد كان كارها ل"أمسناو" حسدا من عند نفسه، وكان يكيد له ويمكر به مكرا، وكان تابعا ل"زليخة" ومتوافقا معها ولها عنده مكانة خاصة، تمتّعه بالهبات وتقربه من العطايا والمناصب تقريبا، وكان يدافع عن ابنها وليا للعهد عكس "أمسناو" الذي كان يريد ابن "ماتيا" "غيلاس" وليا للعهد.

كان أمسناو يعتقد أن طريقة الحكم وإدارة البلاد فاسدة، تجويع الشعب واستعباده باسم الدين لا أساس له من الحق والعقل، والدين المتوارث جيلا بعد جيل قد آن أوان تجديده وتصحيح زلاته التي تسربت إليه من إجتهادات الملوك والرهبان، لكنه كان يوثر الصمت والأناة إيمانا منه أن البلاد لا تحتمل أي فتنة قد يقودها العامة الجُهّل إذا ما انفرط عقد مبادئ الدين الذي يعقل جماح غضبهم وتهورهم، كان ينظر إلى المستقبل بتفاؤل، فولي العهد المبشّر به عاقل من تلاميذه الذين قد يستطيعون بحنكتهم وصباهم أن يغيّروا وضع المملكة إلى الأحسن...

في المعابد يجلس الراهب على رياشه متكئا يتوافد عليه كبار القوم يتمسحون به طلبا للبركة وللحماية من الشرور التي تتربص بالإنسان من القوى الما ورائية، وكان كبار وقادة الجيوش والكتائب التي تهابها الأسود تتهاوى على ركبتها لتنال لمسة من ثياب الرهبان، يقفون الصفوف الطوال تحت لهيب الشمس الحارقة يتصببون عرقا ويتآكلون تعبا من أجل انتظار خطاب الراهب الذي ينتهي بتعويذاته، التي تحمي كل مؤمن مطيع من الشرور المتربصة، يتوافد على القداس العامة من كل الفدافد الشعت ومن الأحقاف، من السهول ومن الجبال، لا تخيفهم الأخطار وقطّاع الطرق ولا تعييهم المسافات الطوال، كل ذلك فداء لأمر الإله الذي يتجسد ويحل في جسد الراهب ويتّحد معه، فتحل عليهم البركات وتسعد أرواحهم طهرا ونقاء.

علمت زليخة أن "أمسناو" لا يريد ابنها وليا للعهد وأنه قد جمع مثل ما جمع حليفها من الرهبان، وأن الحكم لن يكون إلا بيد الملك، ورغم محاولاتها إغراء المزيد من الرهبان بالمال والجاه والحظوة وأشياء أخرى، إلا أن القرار بقي بيد الملك بعد تساوي حلفاء ابنها " أمغار " المدلل والذي ليس له قوة إلا أمه التي تخطط وتقرر نيابة عنه، وحلفاء "غيلاس" الذي وجد لنفسه موطئ قدم بين كبار المملكة رغم حداثة سنه.

لقد كان "غيلاس" شابا محبا للتعلم قد تدرج منذ نعومة أظفاره، مدفوعا من والدته، على المعابد ينهل من علومها ويتشبع بآدابها وعقائدها، وقد أصبح منذ سنوات قليلة ملازما لمعلمه وقدوته "أمسناو" الذي كان يرى فيه الأب الروحي ومنهل العلم الذي لا نظير له في المملكة كلها، ولم يبخل الأخير عليه بشيء، فقد جعل مكتبته الخاصة الثرية كتبها الزاخرة علومها تحت تصرفه يتعلم منها ما لم يتوافر عند غيره، فقد كان يعدّه ليصبح ملكا مصلحا يقفز بالمملكة من غياهب التخلف التي يسكنها إلى سعة النموذج الذي حمله معه من دراساته في الخارج، خاصة في مدن فينيق الذي نشأ فيها وتعلم بها وأعجب بطريقة عيش شعبها عامة وخاصة، وكان يحلم أن يجد من يكون له عونا في إنزال أحلامه على أرض واقع تيغالين المتردي.

بالمقابل كان "أمغار" شابا مدللا لا يهتم إلا بإرضاء شهواته وغرائزه، يترنح بين مجالس الخمر والنساء، وخرجات الصيد والاستجمام، لم تكن له قابلية للتعلم ولا للاكتساب، ولا حتى الرغبة في الملك، لولا أن إلحاح والدته غذى بذرة التسلط التي زرعت فيه منذ الصبا.

أكنار نشأ في حضن القصر وورث أباه على رأس المعبد الضخم، أموال بالجملة يجنيها من أتباع المعبد ومن دعم القصر له، كان يهمه أن يستمر النظام الذي يعيش تحت ظله، وكان دائما يرى في أمسناو خطرا محدقا بالمكاسب الجمة التي يحظى بها أكثر من كل الرهبان، عارض توليه رأس معبد رالود حينما خالف والده العادات وابتعثه ليدرس خارج دائرة العقيدة التيغالينية، ثم عارض الملك حينما جعله مستشاره الخاص ويده اليمنى، وظل الحقد غالبا على قلبه حينما لم يستطع كسب سابق معارضاته، لكنه اليوم مصمم على اسقاط أمسناو بدعم تولي ابن خيرة للملك بعد أبيه، ابن غرسيسيّره ووالدتُه أنى شاء .

الشاطئ الأول
تيغالين : سلام الاستسلام

فينيق، حيث تغرد البلابل

يتجول المارة في أمن وأمان وسط الدروب الواسعة يتسوقون أويقصدون الحمامات، ومنهم من اختار التوجه إلى صالة من صالات المسرح العمومي، ليلة هادئة بين المدارس المقفلة ليلا، مبان جميلة بألوان باهية تجعل الإنسان يحس بالارتياح وهو يتجول بين العمران، لا يخرق نظام هذا الهدوء إلا نقاشات هنا وهناك بين شباب وكهول حول ما استجد من مواضيع وحوادث، ولعل الحديث عن دين المسيحية الذي انتشر سريعا بين الناس وخاصة القادة العسكريين هو الحديث الذي تلوكه جل الألسنة، وخاصة بعد أن هزم جند الفينيقيين جنود فارس وما حدث أثناء المعركة التي تحول مجراها بعد أن أمر القائد العسكري بتغيير شعار الفينيقيين وسط المعركة من رمز الشمس إلى رمز الصليب، والمعجزات التي حدثت جراء ذلك، والذي اختلف المتحاورون حولها بين الإثبات والإنكار.

في قصر الحاكم تجري محادثات جادة بين القادة العسكريين والسياسيين، حول كل المواضيع التي تشغل الحكم وأهله، حول تخزين حنطة السنة وجمعها من المزارعين، وحول حروب الإمبراطورية التوسعية، وغير ذلك من المواضيع التي تشغل بال الساسة ورجال الحكم، وقد حان الوقت لمناقشة قضية تيغالين المملكة الغربية الغنية التي ينوي الفينيقيون أن تصبح تحت سيطرتهم، ويختلف القادة بين من يؤيد اقتحامها وحكمها مباشرة وبين من يطرح بديلا آخر متمثلا في وضع من يحكم من شعب تيغالين ويكون مجرد منفذ لتعاليم إمبراطورية فينيق.

(سيدي الإمبراطور، أيها القادة المبجلون، دعوني أوضح لكم وجهة نظري في التعامل مع تيغالين، سنترك بداية تيغالين جانبا، وسأتوجه بحضراتكم إلى المستعمرات الكثيرة التي نحكمها في البقاع المختلفة من إمبراطورية فينيق، كم نخسر من الرجال في إغارات القبائل المتمردة، كم يقتل من جنودنا ومعمّرينا على يد الخدم والأتباع، كم تضيع من الأموال على تجهيز الجند وبسط الطرق، إلى متى سنفقد رجالنا من أجل الثروة والملك، هل نحتاج فعلا للملك وتوسيع أرجاء إمبراطوريتنا لتحقيق مصالحنا؟ صدقوني ليس بالضرورة، إننا اليوم بحاجة إلى فكر جديد وإلى طرق أكثر فعالية في حكم العالم الذي ننشده، فحكم العالم كله سهل جدا، لكن تسيير العالم ليس بالأمر السهل إطلاقا، لماذا لا ندعم في كل بقعة رجالا لنا، بالمال والعتاد والقوة على أن نحكم من ورائهم، فلا تضيع مصالحنا ولا يهلك مالنا وجهدنا ورجالنا على ما نحن في غنى عنه، أنتم تعلمون أن لنا في تيغالين رجالا، بل ومعبدا بأتباعه ورهبانه، لنا فضل عليه لا يستطيع إنكاره ولا فضحه للعامة، فلما لا ندعمه ونوصله للملك، حتى إذا وصل حَكَمْنا من خلاله وكان حاكما بأمرنا ينفذ سياستنا، فما كان من خير فلنا وله بعض الفتات، وما كان من شر فعليه ونتزع يدنا عنه ونرفع مكانه من نكون قد هيأناه لمثل هذا كما هيأنا سابقه، وبهذا نضرب عصافير كثيرة بحجر واحد)

لقد كان لهذا الكلام الوقع الكبير على جل الحضور، فقرر الإمبراطور تعيين مستشاره "هانا" لتسيير المفاوضات مع رهبان معبد " نام لع" وتنفيذ أفكاره الجديدة لحكم المناطق المستهدفة.

توسع ملك فينيق قبل وبعد أن يغزوها الدين المسيحي، فقادتها السياسيون وإن كان جلهم لا يهتم بالدين، فإنهم لم يحاربوا المسيحية ولم يخسروا بذلك القادة العسكريين والجنود الكثر الذين اعتنقوا الدين الوافد حديثا إليهم، فتركوا الناس من شاء منهم يبقى على دياناته القديمة ومن شاء يؤمن بالمسيح نبيا للرب وبديانته

التوحيدية، ومن شاء يبقى على ديانة آبائه في عبادة آلهة الطبيعة من شمس وقمر ونارورياح، أوعبادة الطائر الأسطوري فينيق الذي يعتقدون أنه من أنقذ الأرض من السقوط في الجحيم بحملها فوق جناحيه والطيران بها بعيدا حيث هي اليوم.

ترتبط إمبراطورية فينيق بعلاقات بين ممالك وإمبراطوريات كثيرة، وقد طورت أسطولا بحريا يجوب المتوسط وأجزاء من بحر الظلمات والأنهار الكبرى التي تصب فيهما، هذا الأسطول بوأها احتلال الريادة على مستوى التجارة التي تسيطر أيضا على جل مرافئها الكبرى، لم يكن لها إلا الفرس منافسين أشداء وقد دحروهم في معركة قادها أحد المسيحيين الجدد الذي رأى أثناء الطريق إلى أرض المعركة نيزكا وقع قريبا منه فأفلت جنوده، ومن قبل كان قد حدثه مبشر مسيحي عن معجزة سترشده إلى الرب وتجعله يغير رأيه فيه ويميل قلبه إلى تعاليمه، فأمر الجنود أن يقلبوا شعار الشمس الذي كانت تحمله دروعهم إلى شعار الصليب، وقد زاد يقينه بالمسيحية وجنودَه الانتصار الكبير الغير المتوقع الذي حققوه على الفرس عبدة النار، فانتصر الرب لهم وأظهر لهم فضله، فآمنوا والتحق بهم كثير من الجنود من الفيالق الأخرى لما ظنوه المعجزة التي تحققت لصالحهم ولنصر الرب لهم.

(إمبراطور أنا لا يهمني الرب أو آلهة الطبيعة، هل هناك من الأصل إله أم لا، لنحلل الأمر، الكون بديع وفي غاية الإتقان، فمن خلقه؟ ما دام أن لكل موجود واجد، لا ليس لكل موجود واجد، فلو سلمنا بذلك لبقينا في حلقة مفرغة لا تنتهي، سأسلّم مضطرا أن هناك واجد هو من أوجد كل شيء، أو على الأقل أوجد بذور الموجودات التي أوجدت كل الموجودات، السؤال من هو؟... ومن يهتم بذلك؟ لننظر إلى المسألة بشكل آخر، الشمس والقمر هل يعقل أن يكونا إلهين؟ في تقديري لا طبعا فأفولهما كل يوم دليل، والدليل أن كلاهما في خدمتنا يوميا فهل الإله يخدم عبيده وليس له غير ذلك سبيلا؟ طبعا هذا غير معقول، أما رواية فينيق وحمل

الأرض وكل القصة فتبدو أنها من خيالات العجائز ولا تستحق تدليلا ولا تفكرا، لننظر الآن إلى الرب المسيحي ورسوله المسيح، إنه اله واحد ولو صدق أن ماريا أم المسيح ولدته دون والد لكان دليلا قاطعا على نبوته، والدليل القاطع أن الرب المسيحي رفع رسوله إليه حينما أراد العبرانيون أن يصلبوه، لقد قرأت يا سادة الإنجيل بل وسمعته من ابن أحد الذين رافقوا المسيح قبل رفعه، فوجدته كلاما لا يصلح أن يكون لبشر، إذن لنسلم أن المسيحية دين الحق، ما الذي سنجنيه من محاربة عُبّاد الطبيعة؟ لن نجني إلا العداوة والكره وربما المحاربة، أعلم أنكم جميعا آمنتم بالمسيحية وأنتم خيرقادة الجند عندي، لكن صدقوني أن ما سنجنيه من ترك كل يعبد ما يريد أكثر بكثير من محاربتهم، ألا ترون أن أغلب الجند اتبعوا دينكم طوعا، وأغلب سكان المدن كذلك، إذن حتى خدمة لدينكم فمن الأفضل أن نترك كلا يعبد ما يريد، وفي الأخير قد تتحول إمبراطورتنا إلى مسيحية دون أن ندعي أننا جند الرب وسيوفه، قد يسأل سائل منكم هل بهذا أصبحت مسيحيا؟ أقول لكم أن مسألة الدين عندي ليست بالأمر الذي يشغل اهتمامي، فمشاغل الحكم والسياسة تجعلني لا أفكر إلا فيها، وأنا لست مسيحيا بمعنى الكلمة كما أنني لست طبيعيا، صدقوني لم أفكر يوما في ديانتي، أنا ببساطة إمبراطور فينيق وما فيها من أديان، أنا للجميع، أريد أن تحسموا أمركم وتعملوا وفق هذا الأساس، واعلموا أنني لن انخرط في حرب دينية، كل انخراطي سيكون في حرب توسعية تقيم المجد والسعادة والرفاهية لكل أهل فينيقيا باختلاف دياناتهم) الامبراطور متحدثا أمام قادة الجند

تيغالين: سؤال الحكم والبقاء

من غرفة تليلا خرج مكاحيب ككل مرة خائبا يقصد اجتماع الرهبان، الذي من شأنه أن يحدد توجهات المملكة في الأيام القادمة، اختيار ولي للعرش ونوع العلاقة مع إمبراطورية فينيق، وجد الرهبان قد تعالت أصواتهم وحمي وطيس خلافاتهم، لكن ولوجه أوقف كل شيء إلا الوقوف والانحناء له، أشار الملك لهم بالجلوس بعد أن أخذ مكانه في كرسي عرشه.

- لم أعد أعرف ما أقدم وما أؤخر، لقد بلغكم ولاشك حال فينيق وقوتها، وتساقط الحلفاء والخصوم، ولا أعرف هل هو عقاب من الآلهة أو أنها قد تخلت عن مملكتها وأتباعها، أفتوني أيها الملأ العظيم، فأنتم خدام الآلهة ولعل بقية روحهم التي سبق أن حلت فيكم تنفعنا يوم لم ينفع دوام حلولها في جسدي، كيف نستعد لهذه الحرب؟ هل يمكن أن نقلل الأضرار؟ هيا اخرجوا ما في جعبتكم، لقد انتهى زمن الأخذ وبدأ زمن الأداء .

- أيها الرهبان، إننا أهل الآلهة وخاصتهم، وحراس مملكتهم وهاديوا أتباعهم، وفينا الملك الحاكم باسمهم والحالّ فيه كبيرهم، فكيف للخوف أن يتسرب إلى قلوبنا وللشك أن يختلط بإيماننا، أم أن البعض قد خان عهد الآلهة ويخاف من العقاب؟ مولانا الملك العظيم، لك ملك عظيم وشعب مطيع ومملكة عطاؤها جزيل، من صنع كل هذا؟ لاشك أن الآلهة تهبنا وتحمينا، أنشكّ فيها ونستسلم لأغراب اختلطت عبادتهم بين التوحيد وإتباع أبراكساس؟ لطقس واحد من طقوس دعائنا كفيل بإسقاط جندهم وهزرايتهم ودحر قوتهم، لا تشكوا أبدا فوعد آبائنا وأجدادنا نسير عليه ولم نخن ميثاقا ولم ننقض عهدا، وإن كان بيننا من قد فعل، حاشا الملك، فنحكم عليه بما يحول دوننا ولعنات الآلهة، تعالى اسم رالود

العظيم وآلهة تيغالين المبجلين وتعظم ملك الملك العظيم (الراهب أكنار يتحدث خطيبا بين الجمع بثقة مصطنعة)

- إن الحق كل الحق مع راهبنا المبجل " أكنار"، فالآلهة لم تتخل عنا يوما، والإيمان يزداد بالثقة فيها، وكلما ازداد الإيمان ازداد النصر والعطاء، والمذنب فقط خائن العهود من يشك في الآلهة، ولا يشك في الآلهة من ذاق حلاوة الحلول ولذة الاتحاد، نكون عطشى فتسقينا، ضعفاء فتحمينا، خائفين فتأوينا، أنشك اليوم ولو مثقال ذرة بنصرتها، وعظمتها لو خضت بنا النار لتبعناك تصديقا بها وإيمانا بجبروتها (الراهب مادغيس يؤازر كعادته الراهب اكنار)

- ما لي أراك يا " أمسناو" لا تكاد تفقه ردا؟ (الملك غير مقتنع بكلام الراهبين يسائل حكمة أمسناو علّها تنقذه من حرج وضعه فيه الراهب أكنار بحديثه عن الآلهة والإيمان)

- أبدا يا سيدي الملك، لكنني أرى المبجل" أكنار" والمبجل "مادغيس" يحدثون بلسان حديثهم للعامة، فالإله رالود قال احكموا الناس بالكذب لكنه جعله بيننا محرما، أم أنهم تناسوا أن الكتب المقدسة نحن من ألفها وأجدادنا، ومنا من حلت فيه الآلهة ومنا من ادعى عليها كذبا، الوقت اليوم ليس للمجاملات وادعاء الإيمان والحديث بلسان راهب المعبد الذي يحاضر وسط العامة، إن الخطر جسيم والعدو شديد، ولا أرى لكم وعيا بحجم المنتظر هجومه، فينيق عشت فيها وخبرت جنودها ورأيت أثر مرورها بأرض من قاومها، لا تغادر مكانا أتت عليه إلا جعلته كالذي مر به الجراد فالطوفان فالزلازل ثم الحريق، قتلا للمقاومين واستعبادا للمحايدين واستغلالا للخيرات، فإن كنتم تريدون حربا فاستعدوا لإحدى الجائحتين، موت أو حياة استعباد، وإن قررتم الاستسلام فادعوا الآلهة مخلصين بإيمانكم الذي تدّعونه أن يغيّر في فينيق الواثقة من دحرنا شيئا، فليس لكم اليوم إلا أن تفكروا وتعاودوا التفكير وتصارحوا أنفسكم عسى أن تجدوا حلا، لا أظن أن من يدندن

بمثل حديثكم يمكنه أن يلج منهجه أو أن يقترب من طريقه، وإلا فاقبلوا بحلّي وساعدوني على تنفيذه عسى أن نغير من فينيق ما اعتادت عليه شيئا (أمسناو ينهي حديثه موليا ظهره للملك مستقبلا البحر الذي يظهر من القاعة)

- (ضجيج الاستنكار يملأ القاعة) اسكتوا... (الملك واقفا) حقيقة أن كلام "أمسناو" قاسٍ بما فيه الكفاية، ولو سمعه العامة لفعلوا فينا أشنع مما يمكن أن تفعله فيالق فينيق، لكنه الحقيقة ولعل "أمسناو" حل به بضع من الإله "رالود" الحال بي، فكلامه على ما فيه من جِدّة مذمومة، قد ولج إلى ركن من أركان القلب حيث الاطمئنان والاقتناع، تحدث يا "أمسناو" آت ما عندك من حل علّه يخرجنا من الموت القادم من أرض فينيق وما حولها.

- (يتحرك أمسناو صوب الملك متحاشيا النظر إلى الرهبان كأنه لا يتحدث إليهم) سيدي الملك المفدى، أيها الرهبان المبجلون، إن اليوم يوم مكاشفة وحلي لكم هو وقبل كل شيء ينبني على الاعتراف بضعفنا أمام هذا الخطر المهول المحدق بتيغالين، أولا أرى أن نبعث إلى إمبراطور فينيق برسول على أعلى مستوى، يوصل إليه مدى تشبثنا بإقرار أواصر الصداقة والمحبة التي يمكن أن تجمع بين بلدينا، ويعرب له عن استعداد مملكتنا تسهيل كل مصالح فينيق في المنطقة والمناطق التابعة لنا، ويؤكد له أنه يمكن أن يجني المصالح التي يريدها من بلادنا بغير حرب، وأن ملكنا " مكاحيب" يقدم أسمى آيات الولاء لإمبراطورته التي يتمنى أن يكون حليفا لها، ونبعث له هدايا تليق بمقامه وننظر بما يرجع الرسول.

كثر الهرج والمرج في القاعة وعبّر جل الرهبان عن عدم الرضى تجاه كلام "أمسناو" الذي اعتبره بعضهم خروجا عن الآلهة وديانة الأجداد ونقض للعهد بعدم تسليم الأرض للأغراب الذي ورد في الكتب المقدسة التي يؤمن بها التيغاليون، ولما رأى الملك الحال قرر أن يؤجل قرار العلاقة مع إمبراطورية فينيق إلى اجتماع لاحق، وأمر الرهبان باختيار ولي عهد للملكة من بين ابنيه أمغار

وغيلاس، فاختار نصف الرهبان "غيلاس"، بينما اختار النصف الآخر وبالتساوي " أمغار"، ليترك القرار للملك في هذه الحالة، الأخير الذي اختار دون تردد ابنه المقرب إلى قلبه وجليسه في مجالس الرهبان وهازمه في لعب الذكاء، إنه "غيلاس" الابن الأصغر للملك الذي ورث منه كل شيء وكان " مكاحيب" يرى نفسه فيه...

" زليخة" تضرب الأرض ضربا بخطواتها المرتعدة، تروح وتغدو بين الغرف وردهات القصر الفسيحة، تنتظر عينها داخل الاجتماع ليخبرها بما حدث داخل الاجتماع، فهي وإن لم تكن تأبه لأمر العلاقة مع فينيق باعتبار إيمانها الراسخ بحماية الآلهة للمملكة من كل شر، والدور الذي تلعبه أسوارها في صد أي عدوان، فإن عظيم اهتمامها موجه لاختيار ولي العهد وما سيجنيه فلذة كبدها " أمغار"، مرت ساعات الاجتماع حيرة وخوفا، تدعو الإله تارة وتتوعد الملك تارة أخرى إن لم يكن ابنها وليا للعهد، يدخل عليها ابنها بين الفينة والأخرى قلقا كأمه ليسألها فتنهره نهرا، (أنت من يجب أن يأتيني بالأخبار)، وأخيرا ها هو عينها الراهب " أكنار" قد أتى بالخبر اليقين، محياه العابسة أبلغ من أي بنت شفة يمكن أن ينطق بها.

- ما الأخبار يا " أكنار" ؟ (يسأل أمغار الراهبَ أكنار بقلق طفولي)

- لا داعي لسؤالك أيها الابن المغفل، فوجهه الأشأم من وجهك يكفيني لأعرف أنه فاشل مثلك ولا أتباع له ولا رأي ولا سلطان له في القصر، وأن أموالي ودعمي تذهب هدرا إلى غير مكانها (زليخة حانقة)

- لا يا سيدتي إنه "أمسناو" والملك الذي دعمه، فقد تساوى أتباعنا وأتباع أمسناو والملك من حسم في الأمر ولولا ذلك لكان سيدي "أمغار" في سدة الملك (أكنار مبررا)

- تبا لهذا الراهب، ألا يكفينا منه أنه ما تعلم في معابدنا وما صاحب راهبا من أسلافنا، وان والده الراهب كان خارج دائرة القوة و الحضوة الإلهية، وأن كل علمه جاء به من رحلاته الشيطانية، لكن لا بأس، ستكون نهايته على يدي هاتين، (

زليخة تناجي نفسها) وسأجعل من ابني ملكا ومن قبل قد جعلت من "مكاحيب" ملكا، (غاضبة) اغربا الآن عن وجهي.

بقي "أمسناو" في قاعة الاجتماع بعد أمر الملك له قبل أن يغادر، ينتظر ما يبغي منه بعد أن انتهى الاجتماع، وحيدا بين الكراسي يناجي الآلهة :

تراتيل الشك والانعتاق

وحدي والشك القاتل أُنسي
هل لكم سلطان أم مجرد لُبسِ
فهل أوجدتموني أم أوجدتكم بنفسي
قد اتبعتكم فيا لتعسي ونكْسي
وقد رأيت النور قبلا مصبحا وممسي
درست في العالم ألف شرح ودرسِ
وما استفدت إلا كما يستفيد كل حِبسِ
أأعبد من صنعت بعقلي أُزكي وأُخْسي
لقد وضعت عقلي في معقلٍ وحبسِ
لكن لا أرضى غير شاطئ سلفي أرسي
أسلك مسلكهم حياتي ورمسي
حصينا ومعبدي الآلهة وهماً تُرْسي
أكانوا حقا أم صنيعة جن أو إنسي

- لقد تحملتك أكثر مما كنت أظن ولا أرى لك اليوم إلا القتل أوتكونين لي برضى أوبغيره، وما يمنعني الآن من تنفيذ وعيدي إلا "أمسناو" ينتظرولإن وجدتك على ما أنت عليه بعد عودتي لترين "مكاحيب" كما لم يعامل غيرك معاملتك قط.

obeikandl.com

(ميكاحيب مخاطبا تيليلا بعد أن سمعها تبكي وتنوح في غرفتها وهو متوجه إلى قاعة الاجتماعات حيث أمسناو ينتظره)

تضم "تليلا" ركبتيها على صدرها كأنها تحتمي بهم من المكروه الذي يتربص بها، تبكي بغير دمع وتجهش بغير صوت، وفجأة تدخل عليها امرأة بهية الطلعة جميلة الوجه طلقة المُحيّا

- هدئي من روعك أيتها الفتاة، لقد فعلتِ بحق ما لم يتجرأ عليه أعتى الرجال، أنا "ماتيا" زوجة الملك وأم ولي العهد الجديد " غيلاس"

- (تليلا تقوم مسرعة) أهلا سيدتي.

- لا بأس عليك، أريدك أن تعتبريني أختا كبرى لك، ستجدينني سندا وعونا (ماتيا مربتة على كتف تليلا)

- شكرا سيدتي (تيليلا والدمع يسابق كلماتها)

- لقد سمعت عنك وعن حب الملك لك وما لقيه من صدّ وإعراض، من أين لك هذه الجرأة أمام ملك بحجم "مكاحيب"؟ (ماتيا تسأل دون أن تبدي رغبة في معرفة الإجابة، كأنها مشجعة لا سائلة)

- لا أدري يا مولاتي، في كل مرة يهم بالدخول علي فيها لا تحدثني نفسي إعراضا ولا امتناعا، لكن ما إن يلمسني حتى تهب دون أن استطيع لها تحكما، كأنني لست أنا، حقيقة لا أدري.

- على أيٍ إنها شجاعة منقطعة النظير منك.

- لكنها الأخيرة وعظمة الآلهة.

- ولِما؟

- لقد هددني إما الاستسلام له أو الموت (تليلا باستسلام)

- ما رأيك بعرض ثالث (ماتيا كمطر بعد جفاف طويل)

- ماذا تقصدين مولاتي (تلتمع عينا تليلا)

- أساعدك على الهروب.

- الهروب؟ لكن أين وكيف؟

- لا عليك، لدي الوسائل لتهريبك، وأما المقصد فبدل الواحد هناك العشرات.

- (تنظر تليلا باستغراب) وما مصلحتك من تعريض نفسك لهذا الخطر.

- لا أعرف، ربما هي قصتك التي تشبه قصة قدومي إلى قصر وزوج لم أكن أتمناه، وفرضته علي مصالح أبي، أو ربما هو تحقيقك لرغبتي الدفينة في صد الملك الذي لم أستطع أن أتجرأ عليها ولو في أحلامي...

في قاعة الإجتماعات ينتظر أمسناو الملك وفي قلبه شيء يحدثه أن الملك سيقبل بمقترحه، فهو يعلم أن الملك لا تنقصه الفطنة، وما تشبثه بتقاليد الملك والحكم إلا رغبة في توطيد الحكم والسيطرة على الشعب، وأنه إن بدا له عدم فائدة الطرق التقليدية لن يتردد في تغييرها

- أهلا بعودتك مولاي (يقف أمسناو بعد دخول الملك القاعة متجهما من بقية ما حدث في غرفة تليلا)

- لقد أرهقتموني بخصامكم " أمسناو" (الملك مبديا غضبه السابق واللاحق)

- القرار بيدك أولا وآخرا مولاي، ولإن رأيت ما يرون فإنني سأكون أول الداعمين لقرارك

- ستسافر غدا "أمسناو" (الملك حاسما أمره الذي حسمه قبل أن يغادر القاعة)

- حيث تريد يا مولاي

- أقصد فينيق " أمسناو" واعرض عليهم عرضك ولا تحدث بالأمر أحدا...

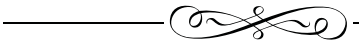

التفاف الحبل حول تيغالين

تجلس "زليخة" منتظرة دخول قائد فرقة من فرق جيش تيغالين أمرت باستدعائه على عجل إليها، وما إن حضر حتى غلّقت الأبواب وأرخت الستائر وحبل كلامها هامسا، ذكّرت القائد بفضلها وفضل والدها عليه، الأخير معترفا بالفضل يبدي استعداده للائتمار بأمرها وتنفيذ ما تطلب، لكنه ما يلبث أن يصمت ويطرق رأسه حين يعلم أن المطلوب رأس "غيلاس" و"أمسناو"...

يجلس " ماسين" مجتمعا بالقائد " زيان " والقائد "مازغ" يتدارسون الخطوات التالية بعدما كوّنوا جيشا مهولا من قطّاع الطرق والمتمردين، على غفلة من تيغالين المنشغلة بالخطر الفينيقي المحدق، يقنعهم أن المؤامرات قد تسقط تيغالين قبل أن يدخلوها محاربين، لذا عليهم أن يبحثوا عن حلفاء لهم داخل القصر والمعابد، والأموال والوعود كفيلة بإقناع كل ذي طمع...

يستعد "مادغيس" على قدم وساق ليبعث رسوله إلى فينيق لملاقاة إمبراطورها وتقديم فرائض الولاء والطاعة، وقبول العرض بدعمه حتى يسقط "مكاحيب" ويتولى مكانه أو يولّي من يشاء فيكون راعيا لمصالح فينيق في المنطقة وحاكما بأمرها، وقد أزعجه مقترح "أمسناو"، لأنه يسير ونهج فينيق الجديد في تعاملها مع أهدافها الجديدة من الأراضي التي تريد أن تخضعها، فخاف أن تضيع مصالحه ومطمعه في الملك والحكم...

تحركت أحقاد "ريما" على "مكاحيب" من جديد بعد أن هدّأها منصبه، لكنها ما لبثت أن عادت لتطفو من جديد بعد أن اختير "غيلاس" وليا للعهد، فهو ليس من رجاله ومن المستحيل أن يبقيه في منصبه، وربما يبدأ قريبا ولي العهد بتعيين رجاله كما جرت العادة لتثبيت ملكه قبل سنوات من توليه، حتى يكون انتقال

السلطة سلسا بين الملك وابنه بعد أن يموت، كما أن عرض "زليخة" وابنها بالإبقاء عليه في منصبه إن هو قتل الملك ساهم في ايقاظ أحقاده الدفينة...

"زليخة" منتشية بلف الحبل حول الملك وولي عهده، قررت أن تحوّل حبها الكبير للملك إلى كره قاتل، لقد وافق "ريما" على مخططها، ووجدت من يقتل "أمسناو" و"غيلاس"، وحركت وسائلها لكي تقلب اتجاه الحكم من ابن "ماتيا" إلى ابنها، وقد وجدت لها حلفاء من الرهبان على رأسهم "أكنار" وكبار قادة الجيش الذين يأتمرون بقرارات "ريما" ويدينون له بالولاء، لم تكن "زليخة" ترى حائلا دون مخططاتها إلا الوقت والترتيبات الصغيرة، فكل شيء في المملكة يباع بالمال، وهو موجود في حوزتها، ورجال الدولة تشتريهم بالوعود زيادة على المال...

تسير مخططات "ماسين" كما رسمها، ف"مازغ" كان عونا له أكثر من " زيان " باعتبار أن له رجالا داخل المملكة والقصر، وله تاريخ في التمرد ومحاربة المملكة، لقد أصبح ل"ماسين" اليوم بفضله عيونا في القصر أخبرته عن مخططات "زليخة" التي نصحه " زيان " بأن يتخذها حليفة له، لكنه كان يدرك أن طموحهما المشترك في حكم المملكة لا يمكن أن يجمعهما، وأن الواحد منهما يقف في طريق الآخر، بل وطموح كل منهما لا يتحقق إلا بدمار الآخر، و"ماسين" يدرك أن لديه امتياز معرفة مخططاتها فيما مخططاته لا تزال في طي الكتمان، فكل كبار المملكة يظنون أن " زيان " مجرد قاطع طريق قد استفادت منه المملكة بعد أن أسر "مازغ" المتمرد، لهذا فإن جنود تيغالين قد فكوا قليلا من القبضة الحديدية على قطاع الطرق، ولانشغالهم بالتفكير في حرب فينيق أيضا...

وصل "أمسناو" سرا إلى فينيق، وطلب أن يمثل أمام إمبراطورها "حنا" كرسول له من ملك تيغالين، وكان الإمبراطور قد استقبل قبل يوم واحد فقط رسول "مادغيس" والذي عبر له عن ولائه واستعداده ليقبل عرضه في حكم تيغالين بالنيابة عنه وضمان مصالحه في المنطقة.

- مرحبا ب"أمسناو" رفيق الدراسة وخصمنا العتيد العنيد في مدارج العلم أيام الشباب، لقد كبرت يا رجل (يقول الامبراطور بتودد)

- مرحبا سيدي الإمبراطور، لقد مر زمن طويل على ذلك، ويبدو أن ما أخذ الزمان مني لم يتجرأ على أخذه منك (أمسناو كأنه يتحدث مع قريب وسط دهشة رجال الامبراطور وكبار فينيق)

- (الامبراطور ضاحكا) هذا كلام تقوله لملوككم الذين يدعون حلول الآلهة أما نحن فمستسلمون لبشريتنا يا رجل، وقد أخذ الدهر مني ومنك الكثير

- حفظتك الآلهة يا سيدي

- ما وراءك يا "أمسناو"؟ ما هي رسالة "مكاحيب"؟ أو لعلها رسالتك التي علّمتها إياه تنقلها لنا منه، أنا أعرف أنك حكيم وقد تكون وجدت له حلا لا يخطر على بالي، لكن صدقني ليس هناك ما يقيه من جنودي (الملك يخلط الحزم بالهزل)

- سيدي لقد جئت اليوم لأعرض عليك ما تريده من تيغالين بالحرب سلما

- ماذا تقصد يا "أمسناو"؟

- نحن نعرف جميعا يا سيدي أن لكم مصالح في المنطقة، طرقكم التجارية وحركات جيوشكم، وتريدون الموانئ لتسيروا هذه القوات، كما تحتاجون إلى خيرات بلادنا من معادن ورجال وما إلى ذلك، ونحن ندرك تماما أن قتالنا لن يجر علينا إلا الدمار، وقد يجر عليكم تعطيل المصالح في حرب قد لا تنتهي، فإن انتهيتم من جنودنا فلن تنتهوا من شعب لا يحكم بالقوة ولا يسيّر بالحديد، وله معنا روابط دينية أكثر من أي شيء آخر، ونحن نعرض عليكم ربح الوقت والجهد، فنكون لكم عونا على مصالحكم وتكونون عونا لنا على أعدائنا، نحتمي بحماكم، وتمنعون عنا كل خطر داخلي أو خارجي.

طلب الإمبراطور مهلة للتفكير في كلام "أمسناو"، ورحب به في قصر الضيافة صديقا ورسولا من تيغالين، واستدعى "حنا" مستشاريه ليروا أي الخيارين هو الأضمن لهم في علاقتهم مع مملكة تيغالين، الملك المستسلم أم الراهب الخائن.

- ...إذن وكما سمعتم مني الآن فنحن أمام خيارين، حاكم جديد موال لنا على تيغالين أو استسلام الحاكم "مكاحيب" والإبقاء عليه، مع المحافظة على مصالحنا، فما ترون أنكم فاعلون يا ساسة فينيق؟ (الامبراطور مستشيرا وفي نفسه قرار تثبيت حكم ميكاحيب)

- لك الحكم يا سيدي الإمبراطور فكلا الخيارين نراهما مناسبين لمصالحنا، أما تيغالين فلا تهمنا.

- فأما "مكاحيب" فمتمكّن من حكمه وله أتباع مخلصون، وأما من نريد رفعه حديثا إلى الملك فيحتاج وقتا للتثبيت والتمكن، فلا أرى إلا أن نبقي على حكم تيغالين على ما هو عليه، حافظين مصالحنا ومبقين على جهد قد يكون جاهدا مع "مادغيس" ومطامعه، ولا تنسوا أن من باع وطنه مرة قد يبيع أي شيء مرات ومرات (الامبراطور يعرب عن ما في نفسه للحضور)

- ولكن ما نفعل مع "مادغيس"

- نقتل رسوله ونقتله (أحد المستشارين مبادرا للرد على زميله)

- قد يجلب ذلك البلابل التي نحن في غنى عنها، بل نفضح أمره لدى "مكاحيب" ويتولى هو أمره (الملك حاسما الجلسة)

تيغالين في الكتب المقدسة (٤)

وردت تيغالين في الكتب المقدسة المعتمدة من طرف اتحاد معابد الشاطئ الشرقي من بحر الظلمات، وورد تاريخها في كتب الرهبان الذين وضعوا الكتب بعد اندماج روح الإله بهم وحلول قوته فيهم، وسنعرض تواليا مقولاتهم عن المملكة ومختلف الجوانب المرتبطة بالحياة الاجتماعية بها :

(ستبقى تيغالين أرض الآلهة محمية من كل شر، ولن يهدمها إلا تخاذلكم عنها وضعف إيمانكم بآلهتها، هكذا تقرر في كتبنا، فإن الراهب قد يتوقف عنه الحلول، أو قد يكون مدع لاتحاد، فإن تأكد لكم خبره فاصلبوه على أعين العامة، وليكن صلبه عيدا لكم، ليقذفه الأطفال بالحجارة ولترمه النساء بالماء الحار، فإن خائن الآلهة لا يستحق رأفة ولا رحمة، قد ادعى عليها وحكم باسمها وشوه عظمتها وصبرت عليه لأجلكم حتى تكونوا أنتم كاشفوه، ولو شاءت لخسفت به الأرض، لكن لعنتها عليه لا تخلفه أبدا ولا تخلفون الاطلاع عليها.

لقد تعددت حوادث خيانة عهد الآلهة على مدار السنين، فكشفتهم الآلهة وحل عليهم عقابها، وقد خربت معابد كانت عامرة بإفكهم، يحرفون كلام الآلهة ويدّعون عليها ويحدّثون العامة بغير ما تريد إرادتهم، فيفسدون عليهم دينهم ويلبسون عليهم الأمور فتقل النعم ويضعف العزم، وتحدثنا الأخبار عن راهب مدع قد سخطت عليه الآلهة فتاه في بحر الظلمات عشر سنين فارا من عقاب ملك تيغالين بعد أن كشف للعامة إفكه وادعاؤه، فوجده بحّار على الشاطئ فأخذه إلى بيته ليعالجه من ما سرى في جسده من أمراض وأسقام، فانقطع الخير عن بيت البحار فعلم أن اللعنة قد أصابته لما لمس رجلا ملعونا، فرماه وأعاده حيث وجده، فأرسلت الآلهة عليه علقة تمص دماءه دون أن ترديه، فظل ينادي أن اصلبوني

ونجوني من عقاب الآلهة، فسمع به جنود الملك فأعدوا العدة لصلبه لكنهم كلما هموا أن يفعلوا غشيهم غبار وريح وثارت عليهم الأرض بما حملت فتركوه ملعونا يتخبط في أسقامه، بين الضياع في بحر الظلمات والقذف في الشاطئ تأكله الأمراض والأسقام، كلما رآه صياد عرفه فعافه وابتعد عن لعناته، وسيظل هكذا إلى الأبد عقابا على ما ادعاه.) وردت هذه المعلومات في الكتاب المقدس الذي وجد في تابوت أحد الملوك القوط الذين حكموا المنطقة بعد زوال مملكة تيغالين ويسمى هذا الكتاب " أيور"، وقد كتبه الراهب " تازيري " كبير من كبراء رهبان معبد "رالود" السابقين، ويعتبر الكتاب الأعلى في كل المعابد وليس منه نسخ مكتوبة أخرى فهومحفوظ في الصدور بين الرهبان، وقد خطت هذه النسخة على حجر صقيل واستغرقت كتابتها أربعين عاما.

obeikandl.com

الشاطئ الثاني
نكث الغزل

وقف العامة حشودا متحلقين وسط الساحة العامة التي أخليت من التجار والمهرجين ومروضي القردة والحكواتيين الذين اعتادوا أن يكونوا أنسا للفلاحين صيفا وللصيادين شتاء، حديث جاد حول المصير والمآل، وتحذير من خيانة الإله والمملكة والملك، وتذكير بمن حلت عليهم اللعنات في عهود مضت وتتناقل حكاياتهم الجدات سلفا عن سلف، عن من تخلت الآلهة عنهم، عن الذين خسفت بهم الأرض، أواغرقوا في اليم، أو أمطرت عليهم السماء حجارة من سجيل، عن الذين كانوا عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، يكثر الهرج والمرج والجنود يدعّونهم دعا ليبتعدوا عن المقصلة ومنصتها، فجأة يعم الصمت وكأن الجميع على رؤوسهم الطير، يكاد يسمع دبيب النمل وطنين الذباب، وصوت السلاسل تجر جرا يسمع من خلف عتمة البوابة الكبيرة التي فتحت، فشدّت الجماهير إليها، كأنها غيمة بعد قحط طويل، يقترب الصوت ويزداد الصمت، ولا يكسر الهدوء السائد إلا صوت السلاسل خشخشة وقعقعات، يطل الجنود برؤوسهم وخلفهم راهب قد أمسك بيده عصا تملؤها الأجراس والعقد، ولباس مزخرف تتهادى منه السلاهيم، وبعده يظهر "مادغيس" يجر رجليه المكبلتين بأثقال من السلاسل والأغلال، ويرخي يديه المثقلتين بالأصفاد والأوثاق، ما إن ظهرت ناصيته حتى كسرت صمت الجماهير الطويل، وأرخت أياديهم مقاليع تقذفه بما أتيح لها من حجارة وقطع معادن وفواكه متعفنة وبيض فاسد، لكن الرجل لم يحس بشيء، فقد أنهى الحراس كل معاني الشعور والإحساس لديه، ضربا وجلدا وفقأً، ولم يكد يصل كامل جسده إلى منصة، يتدلى من بين أيدي الحراس وهم يهمون بفك وثاقه الذي

لم يعد يصلح لشيء غير الإذلال والإهانة، ويد منشغلة بالفك وأخرى تقي نفسها تسديدات الجماهير تجاه "مادغيس"

- أيها الناس يا عباد رالود وآلهة تيغالين، هذه لعنة الآلهة قد حلت على المدعين، الذين ظنوا أن بإمكانهم خداع الآلهة وافتروا عليها قولا وتعاليم، قد فضحتهم وعرت سريرتهم، واستحالت خيانتهم المخفية لباس عار وذل، وإننا إذ نقف اليوم أمام عقاب الخائن " مادغيس" نتأكد من نصر الآلهة ونصرهم لنا وخذلانهم للمدعين وأنصار أبراكساس، لقد خان " مادغيس" عهد المعبد وتحالف مع أعداء الملك والمملكة وها نحن نرى لعنة الآلهة تحل به، ليكون عبرة لمن تسول له نفسه اقتراف مثل ذنبه وجرمه، (يشير الراهب الذي يلعب دور القاضي بيده إلى الحارس الملثم) ضعه وافصل رأسه الخبيث عن جسده المدنس.

تنزل المقصلة لتتطاير الدماء ويسقط رأس " مادغيس" أمام جثته التي همدت قبل أن تصل إليها شفرة المقصلة، لتكمل النار مهمة إخفاء دنس الجسد الملعون، حتى يختفي وتختفي اللعنة معه...

وجد "ماسين" حلفاء كثر داخل المملكة وجمع الجنود والعتاد ليهجم على تيغالين ويسقط حكمها، ليحقق أحلامه بإقامة دولة العدل التي يعيش فيها الناس حريتهم ورفاهيتهم، وقد اسند لكل من "مازغ" و"زيان " وبقية قادة القبائل المتمردة مهمته التي سيقوم بها، بين من سيُغِير من جهات مختلفة ومن سيدعم القوات تواليا، وفرق ستقتحم البوابات الرئيسية للقصر وتدك الحصون المنيعة دكا، وقد استطاع أن يجند عددا من حراس البوابات ليفتحوها حينما تبدأ المعركة لتدخل فرقه المقاتلة لتتسلل للقصر لقتل الملك بينما الجنود منشغلين في المعركة المفاجئة، لقد وضع خطة محكمة كلّفته عصارة قراءاته وبحثه المضني، فهو يراهن على هذه الحرب التي ستحدد مصيره، بل مصير شعب بأكمله...

اقترح " ريما" على زليخة أن تضع سمّا للملك ليموت في هدوء دون أن يغامروا بقتل الملك علنا، لكنه غيّر خطته بعدما علم أن الملك لا يأكل طعاما إلا بعد أن يتذوقه أكثر من واحد من خدمه، لذا قرر أن يقتله وابنه " غيلاس" في رحلة من رحلات الصيد الخارجية، مجموعة من الجنود تغير لتقتل الملك وابنه، بينما تنسب الفعلة للقبائل المتمردة، وتكون دية الملك حربا ضروسا عليها لتضرب زليخة وابنها الملك القادم عصفورين بحجر واحد، القضاء على المتمردين الذين هادنهم الملك بعد ما ظن أن قطاع الطرق قد قتلوا كبيرهم "مازغ"، والقضاء على الملك الذي خان حبها وغدر بها وفضل ابن "ماتيا" على ابنها، كما أنها ستضني قلب غريمتِها على قلب الملك بقتل ابنها.

خرج "مكاحيب رع" من لقاء "أمسناو" منتشيا بعد أن سلم من بطش فينيق وثبت ملكه، وقضى على متمرد كان يعيش معه دون أن يعرف بمكره، وقصد غرفة تليلا عازما على أن ينهي مسلسل تمنعها وصبره عليها.

- أيها الحراس، (يقف بين يده حارسين) أين تليلا؟

- لا علم لنا يا مولاي فجلالتك لم تأمر بعدم مغادرتها الغرفة (أحد الحراس مجيبا بتذرع وخوف من مغبة غضب الملك الذي بدأ يعلو وجهه)

- احضروها إلي إذن (الملك بتوتر كبير كأنه أحس أنها هربت من بين يديه)

- حاضر يا مولاي

بحث الحراس عن تليلا في أرجاء القصر ولم يجدوا لها أثرا، وقصدوا خارج الأسوار مسيرة يومين دون جدوى، وكاد الملك يفقد صوابه ويجن، وعاث تقتيلا وفتكا بالحراس والمضيفات، لكنه عاد وتأكد أنها فعلة أكبر من سلطة الحراس والخدم وتطلعاتهم، فتوعد نساءه والبنات، وتوعد أبناءه ورهبان القصر.

تراتيل الطير المذبوح

اذرفي خفية يا عيني المدرارُ
فقد هُجِّرَت مِن طبيبها الدارُ
ولان قلب حديد كان قد قسا
دخله غرّة هوى مِهْمارُ
وكان قبلا أوصِدَتْ أبوابه
ووُضعت على نوافذه الأستارُ
حتى جاء من عرّى عورته
واستجابت لقدرته الأقدارُ
وإن الحب في حق من مثلنا
مدعاة نقص وعزيمةٌ مِفتارُ
أَأُترك وأنا المطلوب أمةً
وخلفي سندا جيش جرّارُ
قد دارت علي الأيام دهرا
وحالفني بؤس وإِقتارُ
أظهر للناس أنني الجبار
وأنا مذبوح تنتظره النارُ

زليخة تضع اللمسات الأخيرة على خطّتها المحكمة في الاستيلاء على الحكم، تحاول أن تخفي توترها كلما جمعها المجلس ب"مكاحيب رع" التي تحاول أن تبدي له حبها البائد وتخفي عليه كرهها المستجد، "ريما" و"أمغار" أصبحا ملازمين لها

obeikandl.com

أكثر من أي أحد آخر، يحاولان أن يساعدانها على توزيع المهام وإنجاح الخطط، وقد تورط معهم "أكنار" حقدا على "أمسناو" وتقريب الملك له يوما بعد يوم، ما لم تعرفه زليخة وحلفاؤها أن أعينا تراقبهما أينما حلوا وارتحلوا، تعلم مخططاتهم ولا تبدي لمن تبلغها أولا بأول، هل هي عيون "أمسناو" الذي بدأ يشك أن هناك شيئا ما يدار في غفلة من الملك الذي يبدو أنه اعتزل السياسة والحكم بعد الاطمئنان من جهة فينيق وما حل بقلبه بعد اختفاء "تليلا"، أم هي عيون ماسين الذي لم يعد يطيق انتظارا لإسقاط حكم "مكاحيب رع"، أو ربما هي عيون "ماتيا" التي بدأت تعي أن دورها تغيّر بعد اعتلاء ابنها ولاية العهد، وأن عليها أن تحذر من غيرة "زليخة" التي لا يُطمئنها ابتعادها عنها وعن استفزازها...

خلال السنوات القليلة التي غادر فيها "ماسين" وانهماكه في مخططاته لإسقاط مملكة تيغالين، لم يفكر يوما في "تليلا" ولم يحدثه قلبه يوما عنها شوقا وتوقا، فمن الواضح أنه يحب نفسه وانشغل بها أكثر من أي شيء آخر، وأن مخططاته لها الأولوية على ما دونها من الاهتمامات التي قد تشغله، أو ربما هو وقت لا مكان فيه للعواطف والمشاعر، فمجد الوطن الذي ينشده أكبر من حب شخصي قد يكون الانشغال فيه أنانية تجاه أبناء شعبه، لكن هل التفكير في الحبيب والشوق إليه هو الذي سيوقف مخططات الحلم الوطني الكبير؟ !

أكدت مخططات حكماء فينيق الجديدة أن حكم العالم بغير القوة العسكرية أمر مربح، فقد حافظت فينيق على مصالحها واستطاعت استغلال العديد من الدول دون ما حاجة إلى تحريك فيالقها وفقدان جنودها إلا نادرا، حينما تتجرأ بعض البلاد على التمرد عليها أو حينما تحاول أن تسلك طريقا غير التي خُطت لها، لكن هذا لم يكن كافيا، فملوك وقادة البلدان قد يُتمرد عليهم وتسقط دولهم، لذا فقد بدأت فينيق تفكر في تجنيد الشعوب لتعلن الولاء لها بعدما جندت الحكام فوالوها، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

- سيدي الإمبراطور، إن حكماء إمبراطوريتنا العظيمة قد انهوا العمل في ما أسندتم لهم من انجاز مخطط لحكم شعوب العالم، بعدما كدنا ننهي الأمر مع حكام الممالك المختلفة، ولو تكرمت ألقيت على مسامعكم التقرير النهائي للجنة الحكماء (نيلوس كبير حكماء فينيق بين يدي الامبراطور)

- تفضل يا "نيلوس" الموقر أتحف مسامعنا بما تجودون به علينا من نعم هبات الفطنة الإلهية عليكم (الامبراطور منتشيا بحكمة كبار مثقفيه)

- بعد جهد جهيد وبحث مضن من خيرة حكماء الإمبراطورية، فإننا يا سيدي الإمبراطور قد رأينا أن حكمنا للعالم بغير القوة العسكرية يحتاج إلى الوقت والمال، ولعل هذا ما اشترطناه قبل البدء في العمل وقبلتموه حضرتكم. بداية، إن إحساس العالم بتقدمنا الكبير في القوة العسكرية ضروري، لهذا فلا يعني اعتمادنا على هذا المخطط إضعاف القدرات العسكرية وتوقيف أو الحد من تطويرها، بل بالعكس فإن تطوير عتادنا العسكري وقوتنا العسكرية ضمان لإرهاب الأعداء والمتجرئين، بل أكثر من ذلك، فإنه علينا على الدوام أن نشيع أخبار قوتنا العسكرية وجبروتنا ما كان منها واقعا وما كان من قبيل الأساطير المنسوجة من طرفنا، وبهذا نبني صورة عند العالم أن قوتنا فوق القدرات البشرية، وأن العالم مهما بلغت قوته لن يستطيع أن يقف في طريقنا، ولو اتخذت الممالك والبلدان من بعضها البعض ظهيرا وسندا، وبعد هذا يا سيدي فإن مخططنا يعتمد على أربعة وعشرين بندا، منه ما يجب العمل على تحقيقه في الأفق المنظور، ومنه ما يحتاج منا مزيدا من الوقت والجهد

أولا : تحسيس العالم أننا قوة كاملة في كل المجالات الحياتية، وجعل عيشنا نموذجا للأمم يحلمون به ولا نمكّنهم من مفاتيح الوصول إليه

ثانيا : اعتماد عملة ذهبية ذات قيمة في كل العالم، وهذا يدعونا لاحتكار تجارة الذهب في العالم

ثالثا : تهميش الأديان والتشكيك فيها وإعلاء شأن دياناتنا

رابعا : إعلان سياسات مخالفة لسياساتنا الحقيقية داخليا وخارجيا

خامسا : السعي لهدم أي بذرة لحضارة من شأنها أن تكون بديلة عن حضارة إمبراطوريتنا المجيدة، والتحكم في العلم ومصادره ومناهجه في العالم بما فيه المصلحة لإمبراطوريتنا

سادسا : إضعاف القوى التابعة لنا بإشعال الحرب بينها، دون أن يسفر هذا عن منتصر حقيقي غيرنا، وجعل العالم يعيش حالة خوف وإيهامه أننا المنقذ الوحيد لهم، وخاصة الحكام

سابعا : جعل سلطة الحكام الموالين لنا شكلية وإحاطتهم بعملاء لنا لا يعلم أحدهم بعمالة الآخر

ثامنا : جعل أبناء إمبراطوريتنا مستشارين وخبراء لدى كل الدول الموالية لنا حتى يضمنوا ولاءهم لنا

تاسعا : السيطرة على كل مصادر العلوم والمعارف ومنع تطويرها خارج إمبراطوريتنا

عاشرا : التحكم في الطرق التجارية والمراكز التجارية وجعل سلطتها المباشرة في أيدينا، حتى وإن كانت تحت سلطة الموالين لنا...

جلس الإمبراطور "حنا" ينصت بإعجاب لدَهِيّ ما توصل إليه حكماء إمبراطوريته، وما إن انتهى "نيلوس" حتى وقف مبدٍ كبير إعجابه وتقديره لرجاله الساعين لمصلحة الإمبراطورية، وتأكد أن باجتهادهم يمكن أن تسود الإمبراطورية العالم أبَد الدهر.

تيغالين في الكتب المقدسة (٥)

وردت تيغالين في الكتب المقدسة المعتمدة من طرف اتحاد معابد الشاطئ الشرقي من بحر الظلمات، وورد تاريخها في كتب الرهبان الذين وضعوا الكتب بعد اندماج روح الإله بهم وحلول قوته فيهم، وسنعرض تواليا مقولاتهم عن المملكة ومختلف الجوانب المرتبطة بالحياة الاجتماعية بها :

(سيسودكم العالم، ويحكمكم الأغيار، وتمجدون لاشيئيات من شتى الملل والعقائد والنحل، خطر عليكم لا تحذروهم ولا تبتعدون عنهم، فإن أُحيطَ بكم فأيقنوا أنه مما كسبته أيديكم، فلا تلوموا أحدا ولوموا أنفسكم، وكذلك سُنَّة الخالق في كونه أنه من ظلم نفسه فإن له معيشة ضنكا، ونسلط عليه من لا يخاف فيه لائما ولا منتقما، وما أنتم عليه نذير لكم بما أحذركم، فاذكروا كلامي هذا وخطوه في كتبكم، عسى أن يأتي من يعيه ويجد من يتبعه فيخلصكم، وإلا فإنه ورد في كتب خير من كتبكم أن عملكم هباء وعقيدتكم عجفاء وصلتكم بالحق جفاء.)

وجد هذا منحوتا في معبد "مالس" على إحدى الأعمدة المغمورة بالمياه.

"زليخة" تترنح تخطيطا... "مكاحيب رع" يترنح شوقا... "غيلاس" يترنح أملا... "أمغار" يترنح طمعا... "أمسناو" يترنح وعيا... "أكنار" يترنح حقدا... "نير" يترنح تسويفا... "مادغيس" يترنح موتا... "زيان" يترنح حالما... "مازغ" يترنح تربصا... "ماسين" يعيش مترنحا... "ريما" يترنح انتقاما... تيغالين تترنح ذبحا...

لم يكن "أمسناو" غافلا عن كم المؤامرات التي تطوّق المملكة، ولكن كلامه يذهب هباء على مسامع الملك الذي رضي بفينيق حاميا وسندا، لقد قدم لهم كل

شيء، ولم يعد يهتم بالمقابل بأي شيء، كان يلوم نفسه لأنه قدم مقترحه الاستسلامي للملك، لم تعد المبررات التي كان يقدمها لنفسه تقنعه.

- لقد فعلت كل ما يمكنني هذه هي قدرات المملكة التي لا يمكن أن تقف أمام جبروت فينيق، لم يكن بإمكاني أن أغامر بحياة الآلاف في معركة محسومة، ربما ننبعث من جديد، إنها خطوة للخلف تردفها قفزة للأعلى...

- (ضاحكا) أتسخر من نفسك؟ إنه استسلام وجبن

- ولكن لماذا تلومني؟؟ اذهب ولُم الملك الذي كان مستعدا لينفذ بجلده ويتركنا أمام النار لتلتهمنا، أو لُم الرهبان الذين انتفخت بطونهم على موائد جهل العامة ورشاوى الملوك والقادة، أوربما لُم العامة الذين يرفعون من يخدعهم ويحطّون من يَصْدُقهم، (يغضب ويصرخ) أليس في هذه المملكة غيري؟

- نعم ليس فيها غيرك، فأنت كنت قائد قوافل منتفخي البطون، فلا تجعل نفسك بطلا من ورق، أين ما كنت تحلم به خارج المملكة؟ أين ما تعلمته وجئت لتجعله شرعة ومنهجا؟ لقد انتهى كل شيء في أول مائدة مع الملك، أنت المُلام ولا لوم إلا عليك... أنت المُلام ولا لوم إلا عليك... أنت المُلام ولا لوم إلا عليك...

- (كَفّيْه على أذنيه) كفى..كفى..كفى

لقد أصبح "أمسناو" كالأحمق يتردد صدى اللوم والتقريع في رأسه كل يوم، لم يعد يستطيع نوما ولا راحة جراء ذلك، بينما ينغمس بقية الرهبان والقادة في عيشتهم البائدة وقد بدأ الواحد تلو الآخر يقبل ما رفضه سابقا من طبيعة العلاقة القائمة بين تيغالين وفينيق، أما العامة فقد أصبحت فينيق حلم نومهم ويقظتهم، يتطلعون لها زيارة ونهجا دون أن يعِدّوا أنفسهم تكوينا وعملا ليسيروا في طريق تقدمها ورقيّها.

الموج الأخير
حتمية الغرق

جلس "ريما" منتشيا باقتراب ساعة انتقامه من "مكاحيب رع"، الابن الذي حاز كل شيء هو وأمه، بينما لم ينل هو إلا الإقصاء والإبعاد، فقد عاش محروما مع أمه وسط القرية الصغيرة، حيث كانت الليالي تمر عليه طويلة مجدب البطن عريانا، في كوخ حقير لا يقي قرّ الشتاء ولا حر الصيف، قبل أن يقتلوا أمه التي لم يكن له غيرها ولم يكن لها غيره، وبالمقابل يعيش "مكاحيب" مرفّها يرفل في أسرّة الحرير والقطن والصوف، يتغذى لحم الضأن وأسماك المحيط الطرية، لم يشق يوما للحصول على لقمة عيش يقدم مقابلها الكرامة والصحة، لم يرى أمه تعاني أمامه مرضا وفقرا دون أن يستطيع أن يقدم لها شيئا، لم يضطر إلى مفارقة الأهل والأحباب والرفقاء ليعيش وقطاع الطرق سنوات طويلة، كل ذلك عاناه "ريما" بسبب والده الملك الذي لم يشأ أن يعترف به ابنا، أو على الأقل أن يضمن له عيشا كريما في القصر أو خارجه، لكن كل هذا سينتهي، سيدفع الملك ثمن ما اقترفته يدا أمه وأبيه، أخيرا سيخمد نارا تأكله داخل قلبه منذ عقود كان يحبسها مقابل المنصب الذي قدّمه له أخوه دون أن يكلف نفسه أن يقول له يوما أخي، أو يعامله كالأخ، لقد ظل يحس دائما أنه الخادم والمطيع للسيد الآمر ملك تيغالين المعظم.

لقد أعلم "ريما" الجنود أن الملك وابنه سيخرجون نهاية الأسبوع إلى شاطئ البحر في رحلة صيد، فالصيف قد انتصف ولم يعتد الملك أن يفوت مناسبة كهذه لممارسة هوايته المفضلة، وقد اختار "ريما" جنوده المخلصين فقط، وأمرهم أن يتخلصوا من الحرس المرافق للملك ويتركوا أمر تصفية الملك وابنه لسيفه الحاد،

حتى يطفئ نار الانتقام التي اتقدت في صدره منذ صباه، فقد حان الوقت لتصفية الحساب مع من كان سببا في طرده وأمه من القصر.

"زليخة" فرحة ببشرى "ريما" لها باقتراب موعد الحسم، حيث ستتخلص من حبيب خان حبها ونسي تضحياتها، ومن ابن غريمتها الذي يريد أن يأخذ منصبا أعدته لابنها حتى قبل أن يولد، فهي تتذكر دائما أنها من أقنع والدها الراهب الكبير بتدبير خطة اعتلاء "مكاحيب رع" عرش المملكة بعد أن لم يكن مرشحا لها، لكن زليخة لم تأمن مكر الزمان، فقد خططت أن تفضح أمر "ريما"، حتى يموت فيموت معه سر مخططها، لقد كانت تخطط أن ترسل فرقة من الحراس لاستدعاء الملك في الوقت المحدد لقتله، حتى تشهد على فعلة "ريما" وربما تقتله في اشتباك مع قواته، فيموت قبل أن يحاكم أو يفتح فمه بما قد يكون شبهة في حقها.

(لم أعد أطيق الصبر، أيام كأنها الدهر كله، بل هي كذلك، أليست هذه الأيام هي التي ستحدد مستقبلنا ومستقبل أجيال قادمة، نحو الحرية والانعتاق أو استمرار العبودية والقهر، أيام قليلة ستنسيني ألم فراق أهلي الذين تركتهم وليس لهم معيل غيري، أيام قليلة ستحدد جدوى رهاني على قُطاع طُرق ليكونوا محررين ومنقذين ومخلصين، بدل أن أواصل البحث والتنقيب عن طاهر يحمل معي رسالتي وحلمي، أيام قليلة قد تنقلني إلى الجنة أو تعيدني إلى النار) يحدّث "ماسين" نفسه وهو يسترجع شريط حياته بكل تفاصيل الفقر والجوع والظلم والقهر، يتذكر كيف كانت أمه تحمد الآلهة وتنادي بحياة الملك وهي تتظاهر أمام أبنائها الصغار أنها تطهو شيئا حتى يناموا انتظارا آملين أن تُملأ بطونهم، يتذكر كيف يمر الجند بمحل النسخ الخاص بوالده الذي لم يحصِّل شيئا ليقدم لهم ما ادخره ليوم عصيب، يتذكر كيف أخذت أخته الكبرى إلى قصر قائد عسكري حتى تمضي ليلة معه وهي طفلة لم تتم العاشرة من عمرها، يتذكر كيف سحل عمه لأنه ثار يوما في وجه كبير الحي التابع للمعبد، يتذكر كل شيء قد مر بحياته دون أن يجد نقطة

ضوء وحيدة سوى الأمل في ما سيأتي خلال يومه الذي ينتظره بفارغ الصبر، وقد رصّ الصفوف، واحكم الخطط...

- علينا أن نحرك الجنود إذاً نحو تيغالين، لم يعد "مكاحيب رع" قادرا على ضمان حكم تيغالين، فأخبار التمردات والانقلابات عليه قد أزكمت أنوفنا، ولن ننتظر حتى تصبح المملكة مرتعا للاضطراب وعدم الاستقرار فتضيع مصالحنا هناك (الامبراطور حنا وسط مستشاريه وقد وصلتهم كل صغيرة وكبيرة عن تيغالين وما يحيط بها)

- لكن لصالح من سيدي الإمبراطور

- نسيطر أولا على المملكة وندحر المتمردين، وبعد ذلك نحكمها بأيدينا إلى أن نجد من يحكمها بديلا عنا، وطبعا لن يكون "مكاحيب رع" لأنه إن نجا من الاغتيال فإنه لن ينجو من المتمردين من قطاع الطرق، (يدخل قائد الجند على الامبراطور) مرحبا يا قائد الجند

- مرحبا سيدي الإمبراطور، طوع أمرك يا عظيم فينيق

- حرّك جنودك إلى تيغالين حتى يسيطروا عليها وبعد ذلك انتظر أوامري، لن تحتاج إلى عدد كبير فستجدهم قد أنهكوا بعضهم البعض

- ستتحرك الفرقتين الثالثة والعاشرة يا سيدي، مسيرة أسبوع ونكون في أرض تيغالين

"مكاحيب رع" يقف أمام البحر من نافذته مردّدا (إلهنا العظيم "رالود" تقدس اسمك العظيم، وعمّت بركاتك وبشائرك خديمك المطيع وشعبك العابد، يا من يهيج البحر ويركد بقدرته، يا راعينا ورازقنا، يا إله البحر العظيم، ساعدنا وانصرنا على الشر العظيم القادم من وراء يمّك الهائج، وجنبنا سوءه، واجعل روحك المتّقدة بداخلي تُهلك كل من عاداني، أنا سليل الآلهة، وخليفتك على هذا

الساحل من سواحلك الممتدة... آمين) لقد علم بتحرك جنود فينيق تجاهه، لكنه لم يعرف أبدا لذلك سببا، استدعى "أمسناو" ليكون بين يديه لكنه لم يجب، فلم يجده الحراس في المعبد حيث يكون دائما، استدعى "ريما" ولم يجب أبدا فقد كان منشغلا و"زليخة" في ما استجد من أخبار حول زحف جنود فينيق نحو المملكة، زليخة التي لم تجد حلا سوى البعث برسولها إلى إمبراطور فينيق لتجدد ولاء ابنها للإمبراطور وتنتظر أخبار رسولها لعله يعود بما يعيد فتح باب الأمل لأحلامها، فهي لم تفهم سبب زحف جنود فينيق على المملكة.

تتقدم جنود " زيان " نحوعاصمة المملكة بهدوء قطاع الطرق قبل الهجوم، يتقدمهم "مازغ" الذي حلم بهذه اللحظة دائما، حلم باستعادة ارض أجداده التي اغتصبها "مكاحيب" ومن قبله أبوه، وفي وسط الجنود "زيان " وعن يمينه"ماسين" والقلق باد على محياه، متخفين بالأشجار يتسللون بين أعشاب الغابة كالثعابين لا يكاد يسمع لهم صوت ولا يحدثون حِسّا، تسبقهم فرق استطلاع تدمر كل ما يوجد في طريقها ممن قد ينقل الأخبار عن قدومهم لتيغالين وممن لا يُشَكّ فيهم، ينتظرون أن يحل الليل كي يدكوا الحصون ويضربوا فوق الأعناق ولا يبقوا من حكم "مكاحيب" باقية، وداخل الأسوار أتباع "ماسين" ينتظرون الإشارة لفتح البوابات.

رهبان المعابد المختلفة يرسلون الوفود إلى إمبراطور فينيق وقائد قواته الزاحفة نحو مملكة تيغالين ليؤكدوا أنهم ليسوا أهل حرب وقتال، وأنهم مع كل من يحكم الأرض طاعة وولاء، وقد بدأ عملهم على قدم وساق في إخفاء ثروات المعابد وأموالهم تحت الأرض بعيدا عن عيون الجند إذا ما اقتحموها.

العامة بدأ بعضهم يأكل بعضا، يسرقون المعابد وينهبون البيوت وينتقمون لخلافاتهم السابقة حتى عمّ الهرج وأزكمت رائحة الموت الأنوف.

العبّاد أتباع مختلف المعابد اجتمعوا في معبد وبدؤوا في ترديد تراتيل الحفظ والوقاية، يؤمنون أن الجنود وقطاع الطرق والمتمردين الذين يغيرون على أرضهم سيُدفعون بقوة الآلهة التي تحميهم وتحفظهم، وأن أسوارهم قادرة على منع كل غاز ومعتد...

اقتربت الشمس من مشافهة أفق البحر و"مكاحيب رع" يقف داعيا إلهه رالود أن ينصره على من يعاديه، والقصر في هرج ومرج، بين الفار والناهب والمرابط، فجأة يدخل على الملك "ريما" حاملا سيفه ومضمرا الشر لأخيه، يلتفت "مكاحيب رع" إليه ودون أن يعير له انتباهه يواصل دعاءه طلبا للنصر والحماية من إله البحر

- لقد حان الوقت كي تدفع الثمن يا سليل الملوك، ما لم تدفع ثمنه أمك الجائرة وأبوك الظالم ستدفعه اليوم أنت، وسيكون هلاكك على يدي، أم أنك تريد أن ترث الملك دون الثأريا... يا أخي (ريما وشرر الحقد يلمع في عينيه)

فجأة تجحظ عينا "ريما" ويخرّ ساجدا طالبا المغفرة من رالود و"مكاحيب"... لقد رأى البحر يُخرج موجا عظيما علامة على نصرته للملك، والملك قد خط ابتسامة على فمه فرحا وغبطة بنصر الآلهة...

حولت نيران أسهم جيش "زيان" المشتعلة ليل تيغالين نهارا، ولم يمض وقت كبير حتى اقتحم رجاله حصون تيغالين مدعومين بفتحها من طرف من كان "ماسين" قد تآمر معهم، ويعيث الجنود قتلا وسفكا في جنود تيغالين حتى المستسلمين منهم، و"ماسين" يتقدم رفقة "زيان" نحو القصر محاطين بفرقتهم التي تحميهم.

المعبد الوحيد الذي ظل صوت العباد يعلو بداخله كان أول ما احترق من المباني التي تحيط القصر، فيما نجت المعابد الاخرى لأن رهبانها وعبادها غادروها مبكرا إلى جحور أعدوها لمثل هذه الأيام...

بدأ العامّة يحاولون إيجاد مفر نحو الغابات، لكن قطاع طرق جدد أظهروا رغبتم في سلب الناس متاعهم، كانوا يتخفون في زي العوام وينتظرون فرصة للظهور، مزقوا أشلاء الفارين طمعا في متاع قليل معهم، ولم ينج من التقاتل والتدافع سوى القليل...

"زليخة" وابنها ظنّا أن جند فينيق من وصل إلى تيغالين، واستنتجا أن ولاءهما لم يقبل، فاختارا أن يجمعا ما يمكن من مال وجواهر وينطلقا هاربين إلى قبيلة أهلها البعيدة، علّها تجد هناك مكانا آمنا، بدل أن تموت في القصر أو يتخذونهما من العبيد، تركض و"أمغار" في ردهة القصر فجأة تلمح عيناها البحر قد غادر مكانه، تطّلع من الشرفة المطلة على الشاطئ فإذا بالسمك يتراقص في الشاطئ دون ماء، ومن بعيد موج عظيم قادم نحوالقصر، تجمّدت الدماء في عروقها ولم تفهم شيئا.

التجأت جموع العامة إلى المعابد والأديرة، ما بقي من الرهبان يثبتونهم ويعضونهم : (ثقوا بالآلهة، ثقوا بنصرها، مهما بلغ جند فينيق قوة وعظمة فإن الآلهة ستنتصر لنا، سننتصر، لا تقلقوا وحافظوا على إيمانكم، ثقوا بالأسوار السبعة التي نجددها كل سنة باستغفارنا ودعواتنا...)

-أيها الملأ قد حلّت عليكم لعنتي، ها أنا أندمج والإله رالود، وها هو الموج يجيب طلبي وقد علا ليظهر لكم عظمتي، فإن استسلمتم فالمستقبل بيني وبينكم، وإن تماديتم دمرتكم ولا أبقي على أحد منكم (الملك ميكاحيب من شرفته مخاطبا جموع المتمردين الذي وصلوا ساحة قصره)

يخر الجنود والمتمردون سجدا أمام عظمة الملك "مكاحيب رع" الذي بدا خلفه موج كالطود العظيم قد أرسلته الآلهة لنصرته، ويكاد عقل "ماسين" ينفلت من ناصيته دهشة واستغرابا وفجأة، ولم يملك سوى السجود سبيلا...

وصل جنود فينيق فلم يجدوا إلا دمارا بين أيديهم، جثث بالآلاف على شاطئ "آسفو"، ولا وجود لتيغالين إلا ما بقي من صروح عالية بدت بعضها والأمواج ترتطم بها تواليا، لم يجد الجنود أحدا من سكان المدينة المحاذية للشاطئ من أرض "آسفو" لم يجدوا إلا الجثث وبقايا كل شيء...

تمت رواية تيغالين ولعنتها لا تزال مستمرة

obeikandl.com

عودة لرواية عثمان

الصوت العميق

تدفع حنان الكرسي المتحرك الذي يحمل زوجها، مكبلة اليدين لم تعد تستطيع أن تقدم شيئا له، سوى مذياع صغير وضعته على ركبته الجامدتين يعلوا بصوت شاعر كأنه من ماض بعيد، الصوت لا الشعر...

١

ممنوعةٌ أنتِ من الدخول، يا حبيبتي ، عَلَيَّه..
ممنوعةٌ أن تلمسي الشراشفَ البيضاءَ، أو أصابعي الثلجيَّهْ
ممنوعةٌ أن تجلسي.. أوتهمسي.. أوتتركي يديكِ في يَديَّهْ
ممنوعةٌ أن تحملي من بيتنا في الشامْ..
سرْباً من الحَمَامْ
أوفُلَّةً.. أووردةً جُوريَّهْ..
ممنوعةٌ أن تحملي لي دُمْيَةً أحضُنُها..
أوتقرأي لي قصّةَ الأقزام، والأميرةِ الحسناء، والجنيَّهْ.
ففي جناح مرضى القلب يا حبيبتي..
يصادرونَ الحبَّ، والأشواقَ ، والرسائلَ السريَّهْ..

٢

لا تَشْهَقي .. إذا قرأتِ الخَبَرَ المثيرَ في الجرائد اليوميَّهْ
قد يشعرُ الحصانُ بالإرهاق يا حبيبتي
حينَ يدقُّ الحافرَ الأوّلَ في دمشقْ
والحافرَ الآخرَ في المجموعة الشمسيَّهْ..

٣

تَمَاسَكي.. في هذه الساعات يا حبيبتي
فعندما يقرّرُ الشاعرُ أن يثقبَ بالحروفِ..
جِلْدَ الكُرَة الأرضيَّهْ.
وأن يكونَ قلبُهُ تُفّاحةً
يقضُمُهَا الأطفالُ في الأزِقّة الشعبيَّهْ..
وعندما يحاول الشاعرُ أن يجعل من أشعارِهِ
أرغِفَةً.. يأكُلُها الجياعُ للخبزوللحُريَّهْ
فلن يكونَ الموتُ أمراً طارئاً..
لأنَّ من يكتبُ يا حبيبتي..
يحملُ في أوراقه ذبْحَتَهُ القلبيَّهْ..

٤

أرجوكِ أن تبتسمي.. أرجوكِ أن تبتسمي..
يا نَخْلَةَ العراق، يا عصفورةَ الرصافة الليليَّهْ
فَذَبْحةُ الشاعرليستْ أبداً قضيَّةً شخصيَّهْ
أليسَ يكفي أنني تركتُ للأطفال بعدي لغةً
وأنني تركتُ للعُشّاق أبجديَّهْ..

٥

أغطِيتي بيضاءْ..
والوقتُ، والساعاتُ، والأيَّامُ كلُّهَا بيضاءْ
وأوجُهُ الممرضات حولي كُتُبٌ أوراقُهَا بيضاءْ
فهل من الممكن يا حبيبتي؟
أن تضعي شيئاً من الأحمرفوق الشفة الملساءْ

فمنذ شهرٍ وأنا.. أحلُمُ كالأطفال أن تزورَني
فَرَاشةٌ كبيرةٌ حمراءْ..

٦

أَطلب أقلاماً فلا يعطونني أقلامْ...
أطلبُ أيَّامي التي ليس لها أيَّامْ
أسألُهمْ برشامةً تُدخلني في عالم الأحلامْ
حتى حبوبُ النوم قد تعوَّدتْ مثلي على الصحو.. فلا تنامْ..

٧

إن جِئتني زائرةً..
فحاولي أن تلبسي العقودَ، والخواتمَ الغريبةَ الأحجارْ
وحاولي أن تلبسي الغابات والأشجارْ..
وحاولي أن تلبسي قبّعةً مفرحةً كمعرض الأزهارْ
فإنّني سئمتُ من دوائر الكِلْسِ.. ومن دوائر الحَوَّارْ..

٨

ما يفعلُ المشتاقُ يا حبيبتي في هذه الزنزانة الفرديَّه
وبيننا الأبوابُ ، والحُرَّاسُ، والأوامرُ العُرْفيَّهْ..
وبيننا أكثرُ من عشرين ألفَ سنةٍ ضوئِيَّهْ..
ما يفعلهُ المشتاقُ للحُبِّ، وللعزف على الأنامل العاجيَّهْ
والقلب لا يزالُ في الإقامة الجبريَّهْ..

٩

لا تَشْعُري بالذنْبِ يا صغيرتي.. لا تشْعُري بالذَنْبْ..
فإنَّ كلَّ امرأةٍ أحببتُها..
قد أورثَتْني ذبحةً في القلب..

١٠

وصيَّةُ الطبيب لي:
أن لا أقولَ الشعرَ عاماً كاملاً..
ولا أرى عينيكِ عاماً كاملاً..
ولا أرى تحوُّلاتِ البحر في العين البنفسجيَّه
الله.. كم تُضْحِكُني الوصيَّهْ.. (نزار قباني)

على حِجر رشيد فوق الكرسي المتحرك نسخة من رواية عثمان تحمل توقيعه وإهداءه ولا إشارة عنه، لقد أصبح كاتبا مشهورا في أقل من سنة، جوائز كثيرة وتكريم في كل مدينة، أصبح صحفيا لامعا تتسابق الجرائد والمجلات على كتاباته، غادر المسكن الذي كان يتخذه أسفل مسكن رشيد، انتقل إلى العاصمة الاقتصادية حيث مصدر الأضواء التي أصبحت تسلط عليه، بينما بقيت حنان وأسرتها تحت عتمة مدينة آسفي، تشتغل صباح مساء في مدرسة خاصة تمتص دماءها مقابل أجر هزيل يسد متضامنا مع ما يذره كشك امي عايشة حاجيات البيت الضرورية، على طريق طويل تسير دون كلام كأنها تدفع الزمن إلى الأمام متسارعة حتى لا يطول عذابها، تُلبس رشيد بدلته كما لوأن شيئا لم يحدث، تمسح من جوانب فمه بقايا لعاب يخرج غصبا من فم لم تعد الكلمات تخرج منه، يستوقفهما شاب لتلميع حذاء زوجها، ينشغل في التلميع...

- مص..ط..فى ! (يقول رشيد بتثاقل تحت نظرة فرحة ودهشة من حنان)...

obeikandl.com

" أيها الوطن الكسيح استيقظ..فك عنك أسرك والحضيض... ارفع هامتك فأنت لست من صنف الزواحف... أيعقل أن تنتظر دفعة من مدينة ! أنت الحمى فبمن تلوذ ؟ ! تحتاجك المدينة المغتصبة حتى تأخذ بثأرها، دافع عن عرضك وشرفك وتاريخك فلا تتراخى وتتخلى عنها، لا تتركها للغرباء العابثين، نحن لن نهيئ الكفن، لن نحضر الحنوط، فالنائم ينتظر له استيقاظ وإن طال السبات، الطين الذي يصنع منه الخزف ينتظرك، التربة التي لم يزرها قطْر ولا ندى تنتظرك، المآذن والمآثر وقصر البحر المصدّع على وقع الأمواج، أمواج الاهمال، ينتظرك، ننتظر استيقاظك حتى نبتسم ونقول لك صباح الخير، صباح الخير رغم لؤم الذئاب وأنياب الزمن " (يقول الصوت النابع من داخل رشيد، صوت لا يكاد يسمع إلا صداه، كأنه ينبع من بئر عميق، لكن رشيد سمعه هذه المرة بشكل ممتاز).

تمت بحمد الله

obeikandl.com

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذو جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017

obeikandi.com